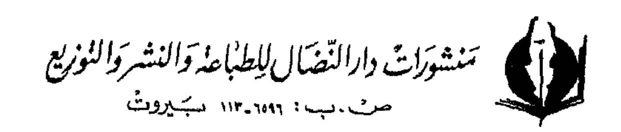
الخليفة
عبد الملك بن مروان
الناقد الأديب

دراسة وتحقيق

د. خليل ابراهيم جفال

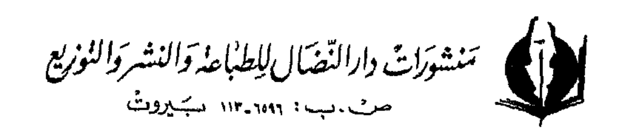



الخليفة
عبد الملك بن مروان

الخليفة
عبد الملك بن مروان
الناقد الأديب

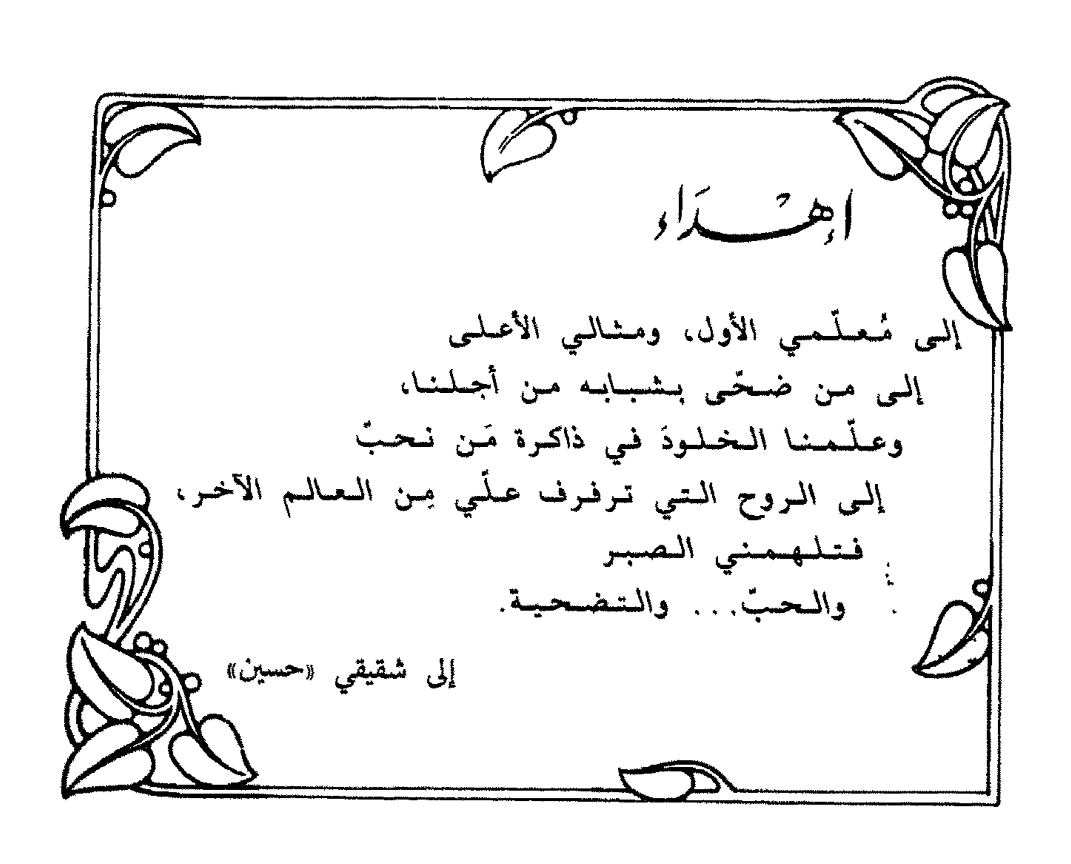
دراسة وتحقيق

د. خليل ابراهيم جفال



الطبعة الاولى

1991م - 1411هـ



إهداء

إلى مُعلّمي الأول، ومثالي الأعلى

إلى من ضحّى بشبابه من أجلنا،

وعلّمنا الخلودَ في ذاكرة مَن نحبّ

إلى الروح التي ترفرف علّي مِن العالم الآخر،

فتلهمني الصبر

والحبّ... والتضحية.

إلى شقيقي «حسين»

شكر وتقدير..

لا بدّ لي في مستهلّ هذا البحث ، ومن باب الوفاء وعرفان الجَميل ، أنْ أتقدّم بالشكر والتقدير لأستاذي الدكتور جبرائيل جبّور ، الذي وقف معي ، فوجّهني وسدّد خُطاي بصبر وعطف أبوي كبير ، فوضع مكتبته الغنية في متناول يدي ، وما احتجب عني في أي وقت طرقت بابه ، فكنت أشعر معه بالثّقة والطمأنينة والخشوع ، لِمَا ظهر لي من علمه الواسع وتواضعه النبيل وشخصيته الفذة .

كما أشكر كلّ من أسهم معي ومدّ لي يد العون في سبيل إنجاز هذه الدراسة .

المؤلف

المقدمة

الخَليفةُ عبد الملك بنُ مروان رجلُ دولـةٍ وسياسـةٍ ، ميدانهُ التاريـخ ، فلماذا اخترته موضوعاً لدارسة أدبيّة ؟ ما الذي لفتني إليه ؟ وما الذي أغراني بدرسه ؟

لـلإجابـة على هـذه الأسئلة ، لا بـدّ من ذكـر الأسبـاب التي أثـارت إعجـابي بشخصيةً عبد الملك وعبقريتّه العظيمة ، فقـد استطاع إعـادة توحيـد الدولـة العربيّـة ولَمّ شعثها ، بعد أنْ مـزقتها الأطمـاع والفتن ، وظهرت عـدة دويلات في ربـوعها ، فشمّر عبد الملك لـلأمر ، واستعمـل الحزم والشـدّة في سبيل إعـادة توحيـد الدولـة تحت سلطته . هذه الشخصيَّـة كنت أعشقها ، ويـزداد إعجابي بهـا كلّما ازداد وعي للحالة السياسيّة التي يعيشها مجتمعنا المعـاصر ، فـأقابـل بين عصر اليـوم وعصره ، بين رجـالات اليوم وبينـه ، وأتساءل : كم نحتـاج من الرجـال أمثـال عبـد الملك ؟ لنصلح من أنفسنـا ومجتمعنـا ، مـا أصلح عبـد الملك من نفسـه وأمّتـه ، هـذه الشخصيـة الفذّة لم يـطغ أحد جـوانبها على الآخـر ، وعبد الملك كـرجل دولـة لم يـطمسْ عبـد الملك الأديب ، فكـان يعقـد المجـالس الأدبيّـة ، ويشغف بهـا رغم مشاكله الكثيرة ، فيبذل وقته وماله في سبيـل ذلك ، ويـروي الشعر العـربي ويتذوقـه تذوّق السليقة والفطرة والدربة ، فيدلي بـآراء قيّمة تسـاعد على فهم الحـركة النقـديّة في عصره ، وتطورها على يده .

هـذه الأسبـاب دفعتني لاقتـراح هـذه الشخصيـة الفـذّة في تـاريخنـا المجيـد مـوضوعـاً لـدراستي مـع شخصيّـة أخـرى هي الـرّاعي عبيـد بن الحصين ، حيـاتـه وشعـره ، فوقـع الإختيار على عبـد الملك لجدّة المـوضوع ، وغنى هـذه الشخصيّة

التي قادت التاريخ العربي نيفاً وعشرين سنةً ، وقادت خلال ذلك الحركة الأدبيّة ، ووجهتها وأسهمت في نموّها وتطوّرها . ومن غريب الصدف أنّي لم أجد من انتبه لعبد الملك الناقد الأديب ، وعقد له بحثاً مستقلاً لا في القديم ولا في الحديث ، اللّهمّ إلاّ مقالة للسيّد عبد العزيز أحمد في مجلّة الأديب اللبنانيّة ، عدد نيسان سنة 1943 ، بعنوان عبد الملك بن مروان النّاقد الأديب ، وهي دراسة مكثّفة تظهر بعض أوجه نشاط عبد الملك الأدبيّة ، إلاّ أنّها رغم الجهد المبذول فيها تُنْبِيءُ بأنّ صاحبها قد كتبها وهو على عجلة من أمره ، فلم يذكر مصادر بحثه ، ولا من أين استقصى أخباره ، فيقع في بعض المغالطات التي يجدر منه أنْ يتلافاها . فهو يذكر في الصّفحة الثّامنة من العدد المذكور أنّ عبد الملك كان « يجيد اختيار الشعر المناسب للمقام المناسب ، فيحسن استغلاله والإستشهاد به فيقع به أجمل وقع » ويستشهد على ذلك فيقول : « من ذلك أنّه حين هَمَّ بالخروجِ لحرب مصعب بن الزبير ، وقد لاذت به زوجه عاتكة تسأله عدم الخروج ، وأنْ يوجّه إلى مصعب من يكفيه أمره : هيهات ، أما سمعتِ قول الأول :

قومٌ إذا حَارَبُوا شَدّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النّساءِ ولو باتَتْ بأطْهارِ[1]

إنّ هذا الأول مَنْ هو؟ لم يذكرْهُ ، ولم يذكرِ المُنَاسَبَةِ التي جعلته الأول ، ثُمّ إنّ المناسبة التي استشهد عبد الملك بهذا البيت خلالها وتمثّل به ، روتها كتب الأدب على نحو يختلف ، وهي أنّ صاحب اليمن أهدى لعبد الملك جاريةً لم يُرَ أحسن منها : فدفع إليها قضيباً كان في يده ، فأنحنت لتتناوله ، فبان من محاسنها ما بَهَرَهُ ، ثم دخل رسول الحجّاج بخبر ثورة ابن الاشعث، فقرأ الرسالة وردّ جوابها ، ثم بات يقلب كفّ الجارية ويقول ما وفدت وفادة أحسن من هذه ، فقالت ما يمنعك يا أمير المؤمنين ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ، قال : قول الأخطل :

قومٌ إذا حَارَبُوا شدوا مَآزِرَهُمْ دُونْ النِّساءِ وَلَوْ باتَتْ بأَطْهَارِ

لأنّي إنْ تجاوزته كنتُ أَلأمَ العرب[2]. ثم ينسب السيّد عبد العزيز أحمد أبيات كثيّر بن أبي جمعة :

---

(1) الاديب ، نيسان 1943 ، ص 8

(2) الكامل في اللغة والادب ، ج : 1 ص 160-161

إذا مـا أراد الغَـزْوَ لم يَثْنِ هَمَّـه   حصـانٌ عليهـا عِقْـدُ درٍ يـزينُهَـا
نَهَتْـهُ فلمّـا لم تَـرَ النَهْيَ عـاقَـهُ   بَكَتْ، فبكى مِمّا شَجَاهـا قَطينُهَـا

إلى عمـر بن أبي ربيعة ، ويـوردها في سيـاق خبر خـروج عبد الملك لقتـال مصعب بن الـزبيـر . مـع أنّ الكثيـر من المصـادر لم تغفـلْ نسبـة هـذه الأبيـات لكثيّر[1] .

والمَصْـدَرُ الثّاني الـذي عالج عبد الملك بن مـروان بشكلٍ مستقـلٍ ، كتـاب عمر أبو النصـر ، وقد ضـرب المؤلّف صفحاً من الإشـارة الى مصدر المعلومـة التي يقتبسهـا ، واكتفى في نهايـة كتابـه بسرد لائحـة من المصادر دون أنْ يـذكر طبعـات هذه الكتب أو أسماء محقّقيها أو ناشـريها ، وهـو كتاب احتفـل بالمـادة التاريخيّـة ، وذكر بعض رسائل عبد الملك دون أنْ يعلّق عليها .

والبحث الثالث والأخير في عبـد الملك : رسالـة جامعيّـة في قسم التاريـخ ، الجـامعـة اللبنـانيّـة ، تحت عنـوان عبـد الملك بن مـروان وأثـره في تـطوّر الـدولـة العربيّة ، لمعينة قصار ، لم أستطع التعرف عليه لكونـه مفقوداً أنّـه خارجٌ عن نـطاق بحثنا .

ومـوضوع عبـد الملك النّاقـد والأديب ؛ جديـد كلّ الجـدّة ، لم يتعـرض لـه سوى من ذكرنا وبالطريقة التي ذكرناهـا . فكان حقّـاً علينا لتـراثنا القـديم وحضارتنـا العريقـة أنْ ندرس عبـد الملك من خلال آثـاره المشتتّة في بـطون الكتب ، فنعطيـه حقّه في عصر زال فيه التمايز الفئوي ، وغدت الكتابة الموضوعيّة من أبـرز سامتـه ، فقد لاحظنا أنّ مَنْ تناوله بالذّكر كان بين متعصّب له أو عليه .

وقد قسّمت بحثي إلى ثلاثة أبواب وخاتمةَ :

البـاب الأول وفيه خمسـة فصول : الفصـل اول : الصراع القبلي بين قبـائـل اليمن والقيسيّة ، ودور عبد الملك في هذا الصراع .

الفصـل الثّاني : يتحـدّث عن الصراع على الزعامـة الأمويّـة ، وعن الكيفيّـة

---

(1)الاغاني : ج 8 ص 35 وانظر الامالي ج 1 ص13

التي استطاع بها عبد الملك أن يحسم هذا الصراع لمصلحته .

الفصل الثالث : تضمّن الحديث عن عبد الله بن الزُّبيْر والحزب الزُّبَيْري ، وصراعه مع الحزب الأموي وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي .

والفصل الرابع : يتحدّث عن حركة التوّابين وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي وقضائه على قائد عبد الملك عبيد الله بن زياد ونتيجة صراعه مع مصعب ابن الزُّبَيْر .

والفصل الخامس : ويتحدّث عن الخوارج وفرقهم الرئيسة التي ناهضت عبد الملك بن مروان طيلة عهده .

الباب الثاني وفي فصلان:

الفصل الأول : نسب عبد الملك ونشأته في المدينة قبل تولّي الخلافة .

الفصل الثاني : تضمّن سيرة عبد الملك في خلافته وبعض مآثره في الإقتصاد ونقل الدواوين ، وإنشاء مصلحة البريد والعمران وإصلاح الخطّ العربي .

والباب الثالث : وفيه ستة فصول :

الفصل الأول : يتضمّن الحديث عن نزعة عبد الملك الأدبيّة ومجالسة العلماء والأدباء وأهل الفضل .

والفصل الثاني : ويتحدّث عن تطوّر النقد الأدبي منذ الجاهلية حتّى عصر عبد الملك .

والفصل الثالث : يستعرض نماذج من نقد عبد الملك وشرحها ومكانة عبد الملك النقديّة .

والفصل الرابع : ويتضمّن خطب عبد الملك مع دراسة تحليليّة لها ، وقد حاولت التعرّف إلى مواطن الجمال فيها ، واستنتاج سمات عامة ، طبعت ما أُثِرَ عن عبد الملك بطابعها .

والفصل الخامس : تحدّثت فيه عن وصايا عبد الملك لولاته واهل بيته .

والفصل السادس : وقد أثبتّ فيه ما استطعت الحصول عليه من رسائله فدرستها دراسة تحليليّة .

وختمتها بخاتمة للبحث ، تضمنّت القيمة الأدبية والحضارية لِمَا أُثِرَ عن عبد الملك .

في نهاية مقدمتي هذه ، أتمنّى أنْ أكون قد وُفّقْتُ إلى ما رميت إليه من خلال هذا العمل ، والله وليّ التوفيق .

خليل جفال

رشاف ١٥ تشرين الاول ١٩٧٩

إنّ عبد الملك بن مروان ، رغم كونه أديباً وناقداً وخطيباً ، لم تحفظ لنا الأيّام مؤلفاً يُنْسَبُ إليه ، ولم نعثرْ على رواية تَنْسبُ له كتاباً أو تعدّه من بين المؤلفين . ويمكن أنْ يرجع ذلك الى أسباب منها :

1 ـ أنّ عصر التدوين والتأليف المنظّم لم يبدأ بعد ، وعصر عبد الملك هو عصر الرواية الشفهيّة .

2 ـ أنّ اشتغال عبد الملك بالخلافة وشؤونها لم يترك له الوقت الكافي لمباشرة التأليف .

فأخبار عبد الملك ـ والحالة هذه ـ مشتّتة في بطون الكتب التارخيّة والأدبية التي سنعرض بإيجاز لأهمّها .

أولى هذه الكتب الطّبقات الكبرى لابن سعد ، وفيها ترجمة لعبد الملك بن مروان ، في حدود العشر صفحات ، تروي نسبه ومولده ووفاته ، وبعض الحوادث الهامّة التي عايشها وأثّر في مجرياتها .

ثمّ كتاب طبقات الشعراء لابن سلاّم ، وفيها عدّة أخبار أدبيّة عن عبد الملك بن مروان .

وأمّا تاريخ اليعقوبي وفتوح البلدان للبلاذري ، فجلّ ما فيها عن عبد الملك أخبار تاريخيّة لا تفيد كثيراً مَنْ يهتمّ بنواحي عبد الملك الأدبيّة .

وكتاب الحيوان للجاحظ ، وكتابه الآخر البيان والتبيين ، يحتوى كلّ منهما

على أخبار أدبيّة متفرّقة ، وعـدّة رسائـل موجّهـة من عبد الملك إلى بعض عمـاله ، وبعض الخطب المجزوءة .

يـأتي بعد الجـاحظ ابن قُتَيبة في كتـابه عيـون الأخبـار ، وفيـه مـادة أغـزر من كتب الجاحظ فيما يختصّ بعبد الملك ، يشترك معه في بعض الأخبار ، مِمّـا يدفـع للظّن بأنّه قرأ كتب الأخير ، وأخذ شيئاً منها .

ثم كتـاب الكامـل في اللغة والأدب للمبـرد ، وفيه مجمـوعـة من أخبـار عبـد الملك ، يتفق بعضها مع الجاحظ وابن قتيبة .

ثم تاريخ الرسل والملوك للطبري ، الذي يورد ،بالاضافة للمـادة التاريخيّـة ، الكثيـر من الروايـات الأدبيّة المتعلقـة بـالمؤرلأخ لـه ، وقـد أثبت لعبـد الملك عـدّة رسائل وخطب ، بالإضـافة لعـدّة أخبار أخـرى تتعلق بتمّثل عبـد الملك للشعر ، أو مديح بعض الشعراء له .

ثم كتـاب العِقد الفـريد لابن عبـد ربّه ، وفيـه مادة غـزيرة عن عبـد الملك لا يضـاهيها إلّا المـادة الموجـودة في كتاب الأغـاني ، وقد اعتمـد في جزء كبيـر فيهـا على روايات الجاحظ وابن قتيبة والطبري .

ثم كتـاب مـروج الـذّهب للمسعـودي ، الـذي انفـرد بـروايـة بعض الأخبـــار واعتمـد في البعض الآخر على الجـاحظ والطبـري . وكتابـه كتاب تـاريخ ، إلّا أنّـه وشّاه ببعض الأخبار الأدبيّة عند ترجمته للشخصية التي يؤرخ لها .

ثم كتاب الأغاني لأبي الفـرج الأصبهاني ، الـذي يحفل بشتّى الأخبـار الأدبيّة والتـاريخيّة ، وهـذا الكتاب رغم تـأخره عن العقـد الفـريـد ، إلا أنّـه لا يمكننـا أن نجزم بأنّه أخذ عنه . فالمعاصرة بين الكـاتبين ممكنة . وكـذلك كتـاب الأمالي لأبي علي القالي ، فأبو علي توفي في العـام الذي تـوفي فيه أبـو الفرج ، فـالإشتراك في بعض الأخبار ، لا يسمح لنا بدعوى أنّ أحدهما أخذ عن الآخر .

ثم كتاب زهر الآداب للقيرواني ، ففيه مجمـوعة من أخبـار عبد الملك جلّهـا موجود فيما تقدم ذكره من المصادر .

وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، يحتفل بالمادة التاريخيّة مع بعض الأخبار الأدبيّة .

ثم يأتي كتاب التّاريخ الكامل لابن الأثير ، الذي استفاد كثيراً من المصادر السابقة وخاصة تاريخ الطبري .

ثم كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، الذي اعتمد اعتماداً مباشراً في ترجمته لعبد الملك على طبقات ابن سعد وغيره من المصادر الآنفة الذكر .

مآخذ البحث

1 ـ ابن الأثير :

ـ تاريخ الكامل ، القاهرة ، 1301 هـ .

2 ـ ابن أبي ربيعة ، عمر :

ـ ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ليبزغ ، 1901.

3 ـ ابن قتيبة :

ـ الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، 1364 هـ .

ـ عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، 3 مجلدات : 1930,1928,1925

4 ـ ابن أبي الحديد :

ـ شرح نهج البلاغة ، ج 4 ، دار الاندلس ، د . ت .

5 ـ ابن سعد :

ـ الطبقات الكبرى ، الجزء الخامس ، دار صادر ، بيروت ، 1957.

6 ـ ابن عبد ربه :

ـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العربان ، ط 1953,2.

7 ـ ابن الطقطقي :

ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ، 1962.

8 ـ الأصبهاني ، أبو الفرج :

ـ الأغاني ، دار صعب ، بيروت ،

9 ـ إبراهيم ، طه :

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ،
10 - أبو النصر ، عمر :
عبد الملك بن مروان ،
11 - أحمد ، عبد العزيز :
- عبد الملك بن مروان الناقد الأديب ، مجلة الأديب ، نيسان 1943.
12 - إسماعيل ، ابو الفدا :
- المختصر في تاريخ البشر ،
13 - الأنصاري ، عبد الواحد :
- مذاهب ابتدعتها السياسة في الإسلام ، ط 1 ، الاعلمي ، بيروت ،
14 - البغدادي ، عبد القاهر :
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، القاهرة ، 1910.
15 - البغدادي ، أبو بكر :
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، القاهرة ، 1931.
16- الجاحظ ، عمر بن بحر :
- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، 1961.
- البيان والتبيين وأهم الرسائل ، تقديم جميل جبر ، بيروت ، 1959.
- الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1945 .
17 - الجمعي ، محمد ابن سلّام :
- طبقان الشعراء ، تحقيق عبد الحميد فايد ، بيروت .

18 - حتي ، فيليب - جرجي ، أدوار جبور جبرائيل :
- تاريخ العرب ، ج 1 ، بيروت 1965
19 - الحنبلي ، إبن العمـــاد:
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج 1.
20 - حاوي ، إيليا :
- نماذج في النقد الأبي ، ط 2 ، بيروت ،
21 - الدمشقي ، عثمان ابن قايماز :

ـ ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، تصحيح الغساني ، ط 1 ، القاهرة 1325هـ
22 ـ الدمشقي ، أبو الفداء ابن كثير :
ـ البداية والنهاية ، ط 1 ، بيروت 1966.
23 ـ الديار بكري ، حسين بن محمد :
ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ،
24 ـ الزركلي ، خير الدين :
ـ الأعلام ، ج 4 ، ط2.
25 ـ السيوطي ، جلال الدين :
ـ تاريخ الخلفاء ، طبقة دار الفكر .
26 ـ الشهر شتاني ، أبو الفتح :
ـ الملل والنحل ، ج 1 ، تحقيق محمد سعيد الكيلاني ، القاهرة 1961
27 ـ صفوت ، أحمد زكي :
ـ جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، القاهرة 1933.
ـ جمهرة رسائل العرب ، القاهرة ، 1937-1938.
28 ـ ضيف ، شوقي :
ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط 7 ، دار المعارف ، القاهرة .
ـ تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف القاهرة .
29 ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :
ـ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1964.
30 ـ القرطبي ، أبو عمر بن يوسف :
ـ الإستيعاب في أسماء الأصحاب وهو ذيل على الإصابة ،
31 ـ القالي ، أبو علي :
ـ الأمالي ، تحقيق مصطفى ذياب ، ط 3 ، (مذيل) ، القاهرة .
الجزء الأول 1953 ، الجزء الثاني 1954.
32 ـ القلقشندي ، أبو العباس أحمد :
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج 1 ، القاهرة 1913.

33 ـ القيرواني ، أبو إسحاق إبراهيم :
ـ زهـر الآداب وثمد الألبـاب ، تحقيق علي محمـد البجمـاوي ، ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
34 ـ القرماني ، أبو العباس :
ـ أخبار الدول وآثار الأول (ذيل على الكامل لابن الأثير) ،
35 ـ الكناني ، أحمد بن عبي :
ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، القاهرة 1939
36 ـ الكتبي ، محمد بن شاكر :
ـ فوات الوفيات ، تحقيق محمد محي الدين عبد احميد ، القاهرة 1951
37 ـ المبرد ، أبو العباس محمد :
ـ الكامل في اللغة والأدب ، القاهرة .
38 ـ المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين :
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهـر ، تحقيق محمد محي الـدين عبد الحميـد ، بغداد ، 1938.
39 ـ الهاشمي البغدادي ، أبو جعفر محمد بن حبيب :
ـ المحبّر ، تحقيق إيلز ، شتيتد ، حيدر آباد الدكن .
40 ـ اليعقوبي :
ـ تاريخ اليعقوبي ،

الباب الأول

الفصل الأول : الصراع القبلي بين القيسية واليمنيّة
الفصل الثاني : الصراع على الزعامة الأموية.
الفصل الثالث : عبدالله بن الزبير والحزب الزبيري.
الفصل الرابع : حركة التوّابين وحركة المختار.
الفصل الخامس: الخوارج.

الفصل الأول

- عبد الملك بن مروان عشيّة تسلّمه الخلافة.
- الصراع القبلي بين القيسيّة واليمنيّة

عبد الملك بن مروان عشية تسلمه الخلافة

لا بدّ لنا ونحن نؤرخ لعبد الملك الأديب ، من ذكر بعض الحوادث الهامّة التي لها مسيس الصِلة بموضوعنا ، خاصة أنّ عبد الملك لم يقف موقف المتفرّج على هذه الأحداث ، لكنّه كان منفعلاً بها وفاعلاً فيها ، صادراً بخطبه وأقواله عنها ، متحدثاً برسايله عن همومها .

فكان لِزاماً علينا التعرّض لها بإيجاز ليسهلَ علينا وضع النّصوص في مواضعها وليصدر تعليلنا لها عن مصادرها ، ويصبّ في مواردها .

فالخلافة الإسلامية انْتُهِكَتْ قدسيّتها ، والدولة بدت ، وقد انفرط عقدها ، فابن الزُبيْر وأشياعه دولة ، والخوارج يعيثون في الأرض ، ويشعلون الثورات هنا وهنالك والأمويون وأتباعهم دولة أخرى ، والمختار يحاول إنشاء دولة جديدة في الكوفة ، والصّراع القبلي انفجر من جديد وبشكل عنيف بين قيس من جهة وبين كلب وأخواتها اليمانيّة من جهة ثانية .

وفي هذا الجو الهائج من الإضطراب والطّامي بالأهواء والفتن ، ظهر عبد الملك بن مروان على مسرح السياسة ، فبذل من الجهود الكثير ، حتى فرض هيبته ووطّد دعائم حكمه ، وأعاد اللحمة السياسيّة في أرجاء العالم الإسلامي .

الصراع القبلي :

إنّ الحضارة التي أصابت مدن الحجاز ، لم تتسع لتشمل نجداً وبوادي الحجاز ، فاستمّرت القبائل فيها ، تعيش على الرعي وطلب المراعي ، فهي تعيش - كأسلافها في الجاهليّة - حياة متبديّة فيها الكثير من شظف العيش وقساوة الحياة ، هذه الحياة ، التي جعلت القبائل تتنافس على ما بأيديها من المراعي ، وتتربّص بعضها بالبعض الآخر ، وإنْ لم يأخذِ الصراع بينها شكله الحادّ الذي كان عليه في الجاهليّة لِمَا نهى عنه الإسلام من الأخذ بالثأر وانتقال هذا الحقّ من أيدي الأفراد إلى يد الدولة .

غير أنّا إذا تركنا الحجاز الى أطراف الجزيرة الشماليّة على حدود الشام والجزيرة ، وجدنا كثيراً من العشائر القيسيّة وبطونها ، وخاصة كلاب وسليم وعامر تنزح الى الشمال ، فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمانيّة في الشّام ، وتغلب في الجزيرة [1]، وكان هذا سبباً في اصطدام قبلي واسع جُيّشَتْ له الجيوش حتى من أذربيجان[2]، وأدى اصطدام المصالح الإقتصاديّة[3] الى اصطدام سياسي خطير كان له أثر بالغ في خلخلة سلطان بني أميّة فيما بعد .

ولّما كانت كلب والقبائل اليمانيّة الهوى، كان من الطبيعي أنْ تقف قيس في الصّفوف المعادية، وان تنتظر الفرص المؤاتية لإعلان ثورتها، وقد وجدت فرصتها بموت يزيد بن معاوية، وقد بدا للعِيَان وقتئذٍ، أنّ السلطان الأموي قد انهار، ونهض عبد اللهّ بن الزُبَيرَ بالبَيْعَةِ لنفسه، وسرعان ما حطبت قيس في حبله، وشايعته، وكان هذا سبباً مباشراً في اندلاع الحرب بين قيس وبين كلب وتغلب وبقيّة القبائل اليمانيّة.

فقد كان سعيد بن بجدل الكلبي على قِنسرين ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث الكلابي ، فأخرجه عنها ، وبايع لابن الزُّبَيْر ، وكان النعمان بن بشير الأنصاري على

(1) تاريخ الادب العربي - العصر الاسلامي ، ص148
(2) الاغاني ، ج 11، ص 61-63.
(3) الاغاني . ج 20 ، ص 126-127.

حمص ، فبايع لابن الزُّبَيْر . وكان حسّان بن بجدل الكلبي على فلسطين والأردن ، فاستعمل رَوْح بن زنباع الجذامي على فلسطين ، ونزل هو الأردن ، فوثب نائل بن قيس الجذامي على فلسطين ، فأخرج رَوْح بن زنباع عنها ، وبايع لابن الزُّبَيْر ، وكان الضحّاك والياً لدمشق في زمن يزيد بن معاوية ، فبدا متردّداً في أمره ، يمالىء الفريقين ، فإنْ جاءت اليمانيّة وشيعة الأمويين، أخبرهم أنّه أموي ، وإنْ جاءت قيس ، أخبرهم أنه مع ابن الزُّبَيْر . فلمّا قدم مروان بن الحكم الشّام ، قال له الضحّاك : هل لك أنْ تقدم على ابن الزُّبَيْر ببَيْعَةِ أهل الشّام ؟ قال : نعم : فلمّا خرج من عنده ، لقيه عمرو بن سعيد الأشدق ومالك ابن هُبَيْرة ، وحصين بن نمير الكنديان ، وعبيد اللّه بن زياد ، فسألوه عمّا أخبره به الضحّاك ، فأخبرهم ، فقالوا : أنت شيخ بني أميّة ، وأنت عَمّ الخليفة ، هل نبايعك ؟ فلمّا فشا ذلك ، اعتذر لهم الضحّاك وذكر حسن بلائهم عنده ، واجتمع ومروان بن الحكم وعمرو بن سعيد وخالد وعبدالله ابنا يزيد بن معاوية ، وقال لهم : اكتبوا إلى حسّان بن بجدل ، فليسر من الأردن حتى ينزل الجابيّة ، ونسير من هاهنا حتى نلقاه ، فيستخلف رجلاً ترضونه ، فكتبوا إلى حسّان ، فأقبل في أهل الأردن ، وسار الضحّاك بن قيس وبنو أميّة في أهل الشّام ، فلمّا استقلّت الرّايات كلّمت قيس الضحّاك بشأن ابن الزُبَيْر ، فأجابها ونزل مرج راهط .

وبعد أن اتفق مَنْ حضر الجابيّة على مروان ، أقبل على دمشق ، ثمّ عطف بمن معه على المرج وكانوا سبعة آلاف ، وكان مع الضحّاك بن قيس ما يناهز الثلاثين ألفاً ، فَقُتِلَ الضحّاكُ ، وفرّ زُفَر حتّى لحق بقرقيسيا ، وأقام عُمَيْر بن الحُباب شيئاً على طاعة عبد الملك حتّى يوم حازر ، وذلك حين قُتِلَ عبيد الله بن زياد فلحق بُزَفر . وقال زُفَر يبكي أهل المرج ، ويعتذر عن فراره .

لَعَمْري لقد أبْقَتْ وَقيعةُ رَاهِطٍ	بمروان صدعاً بَيْنَنا متنائيا
أتذهبُ كلبٌ لم تَنَلْها رِماحُنا	ويُتْرَكُ قَتْلى راهطٍ هي ماهيا
فقد تَنْبتُ المرعى على دِمَن الثّرى	وتبقى حزازاتُ الصّدور كما هيا[1]

(1) المرجع السابق ج 17 ، ص 111/ البداية والنهاية ، ج 8 ، ص 336 ـ 244

وقال ابن مخلّات الكلبي يجيبه :

لقد أبقت وقيعة راهطٍ على زُفَرٍ داءً من الدّاء باقيا
تُبكّي على قتلى سليم وعامر وذبيان مغروراً وتبكي البواكيا(1)

وأقبل عُمَير من قرقيسيا ، يتطرّف[1] بوادي كلب فيغير عليها . فاجتمعت كلب الى حميد بن حريث بن بجدل ، فسار بهم حتى نزل تدمر وبه بنو نُمير ، وكأن بين بني نمير وبني كلب بتدمر عهد ، فأرسلت بنو نمير إلى حُمَيد ، يناشدونه الحرمة ، فوثب عليهم ابن بعّاج الكلبي ، فذبحهم وأرسل لهم : قد قطعنا الذي بيننا وبينكم ، فالحقوا بما يسعكم من الأرض ، والتقوا فاقتتلوا ، فَقُتِلَ ابنُ بعّاج الكلبي وكثير من النُميريين ، وفي ذلك قال راعي الإبل :

يقول مَن يعلمُ علْمَهُ كذاك انتقام اللّه من كلّ فاجِر(2)

فجمع لهم حُمَيد بن حريث ، وخرج يريد الإغارة على بوادي قيس ، فعلم بمكان عسكرهم وأموالهم وأنّ عُمَيراً خرج من المعسكر في بعض الخيل ، فأغار عليهم ليلاً ، وأصاب عامّة عسكرهم ، وغنم أموالهم ، ولمّا وصل الخبر الى عُمَيْر ، جاء مسرعاً ، فعرف ابن بجدل وانهزم الى قرقيسيا ، فرجع حُمَيد الى الأسرى والقتلى ، فقطع سبالهم وأنوفهم ، فجعلها في خيط ، ثم ذهب الى الشّام ، وقال قائل : بل بعث بها الى عُمَير ، وفي ذلك قال سنان بن جابر الجهمي :

لقد طار في الآفاق أنّ ابن بجدل حميداً شفى كلباً فقرّت عيونها(3)

وينتهي الخبر الى عبد الملك ـ وعبد الله ومصعب ابنا الزُبَيْر حيّان ـ وعند عبد الملك حسّان بن بجدل وعبد الله بن مسعدة الفزاري ، فينتصر عبد الله لقومه ، ويظهر الغضب عليه ، فيغير حميد بن حريث على أهل العمود من فزارة

(1) الاغاني ، ج 17 ، ص 112.
(2) نفسه ، ج 2 ، ص 112-113.
(3) المرجع السابق ، ج 2 ، ص112-113

[1] يتطرّف : يُغيرُ على الأطراف .

ويصيبهم(1). وكان عبد الملك في الكوفة لمحاربة مصعب بن الـزُّبَيْر ، فلمّا رجـع عبد الملك من الكـوفة ، لحقـه أسماء بن خـارجة بـالنخيلة ، فكلّمـه فيـها أتى بـه حميـد بن حريث إلى أهل العمود من فزارة ، وقال :حدثنا أنّه مصدّقكَ وعـاملُكَ فأجبنـاك وبك عذنا، فعليك وفي ذمّتك ما على الحرّ في ذمّته، فأقدنا من قُضَاعي سكـير ، فأبى عبد الملك ، وقال : أنظرُ في ذلـك وأستشيرُ ، ثُمّ واداهم[1] ألف ألف ومـائتي ألف وقال : إنّي حاسبُها في أعطيات قُضَاعة ، فقال في ذلك ابن مخلاة الكلبي :

خـذوهـا بـني ذبـيـان عـقـلاً عـلى الأجياد واعتقـدوا الجذامـا
دراهـم مـن بـني مـروان بـيـضـاً ينجمهـا لـكم عـامـاً فـعـامـا(2)

فلمّا أخـذوا الديّـة ، انطلقت فـزارة ، فاشتـرت سلاحـاً ، وأغارت عـلى بنـات قين ، وكان فيها عدّة بطون من كلب ، فأصابوهم وأخـذوا أموالهم ، فبلغ الخبـر عبد الملك ، فـأمهـل حتى ولي الحجّـاج العـراق ، فكتب إليـه أنْ يبعث سعيـد بن عيينـة وحلحل بن قيس ومعهما نفـر من الحرس ، فلمّا قـدما قـذفهما بـالسجن وقال لكلب : واللّه لئن قتلتم رجلاً لأهرقنّ دماءكم ، فقدم عليه وجوههم ، فأقادهم منهما(3).

ـ مقتل عُمَير بن الحُباب :

وتحـاشدت قيس وتغلب ، فكـانوا يتغـاورون[2]، وأرسلت تغلب إلى مهاجـريها وهم بـأذربيجان ، فـأتـاهم شعيب ابن مليـل في ألفي فـارس ، واستنصر عُمَـير تميـماً وأسداً ، فلم يأته منهم أحد فقال عمير :

يـا أخـويـنـا من تميم هـديتـما ومن أسـد هـل تسمعـان المناديـا

وزحف العسكـران ، وأقبـل شُعيب ، فقتله عُمَـير ومعـظم أصحـابـه ، فلمّا

---

(1) نفسه ، ج 2 ، ص 112-113.
(2) نفسه ، ج 17 ، ص 114- 116 .
(3) نفسه ، ج 17 ، ص 114-116.

---

[1] واداهم . أعطاهم الديّة
[2] يتغاورون : يغير كل فريق على آخر .

علمت تغلب مقتل شُعيب ، حَمِيَتْ على القتال ، وتذامرت على الصبر ،فقتلت عُمَيراً وأصحابه ، وهرب من أفلت منهم[1].

ونصب عبد الملك بن مروان رأس عُمَيْرٍ بن الحُبَاب السلمي بدمشق[2]، ولّما قتلت تغلب عُمَيراً يوم الحشاك ، وهو إلى جانب الثرثار ، وهو قريب من تكريت . أتى ابن الحُبَاب زُفَرَ ، فأخبره مقتل عُمَير ، وطلب الثأر ، فكره زُفَرُ ذلك ، فخرج تميم بمَنْ تبعه من قيس ، يريد بني تغلب ، فلقيه الهُذَيل ، فسأله اين يريد ؟ فأخبره الخبر وجواب زُفَر ، فاستمهلهم ، وأقنع أباه بالثأر ، فساروا الى بني فَدَوْكَس ، فقتلوا رجالهم ، واستباحوا أموالهم ، ثُمّ ساروا الى حي كعب ابن زُهَير ، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً ، وبلغ ذلك بني تغلب واليمن ، فارتحلوا يريدون عبور دجلة ، فلحقهم زفر بالكُحَيل[3]، وهو نهر أسفل الموصل ، مع المغرب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وترجّل أصحاب زُفَر ، وبقي زفر على بغلٍ له ، فقتلوهم ليلتهم ، وبقروا ما وجدوا من النّساء ، وذُكِرَ أنّ الذين ماتوا غرقاً اكثر من الذين ماتوا قتلاً ، وهذه الواقعة تسمى الحرجيّة ، لأنّ تغلب أُحْرِجَتْ ، فألقت نفسها في الماء ، ولم يبقَ بالكُحَيل أحد ، وصعد زفر بأصحابه الى رأس الأثيل ، فوجد عسكراً من اليمن وتغلب فقاتلهم بقيّة ليلتهم ، فهربت تغلب ، وصبرت اليمن وهذه الليلة تسميها تغلب ليلة الهرير ، وفي ذلك يقول زُفَرُ :

ولّما أنْ نعى الناعي عُمَيْراً — حَسبْتُ سَماءهم دُهِيَتْ بليل
فلو نُبِشَ المقابر عن عُمَيْرٍ — فتخبر من بلاء أبي الهُذَيْلِ[4]

في هذه الأثناء ، كان مصعب بن الزُبَيْر ، يقاتل المختار بن عبيد اللّه الثقفي بالكوفة . وعبد الملك يتربّص على أيّهم تدور الدوائر ، وينتصر مصعب ، فلا يعاجله عبد الملك ، إنّما يحاول أنْ يأمن الطريق إليه من قيس الجزيرة وبها زُفَرُ بن الحارث

(1) نفسه ، ج11 ، ص 61-63.
(2) المحبر ، ص 492.
(3) الكحيل نهر على عشرة فراسخ من الموصلّ .
(4) الاغاني ، ج 11 ، ص 58-59.

الكلابي[1]. فأمر أبّان بن عقبة بن أبي معيط ، وهو على حمص أنْ يسير الى زفر ، فَقُتِلَ من أصحابه الكثير ، وقُتِلَ وكيع بن زفر ، ثم إنّ عبد الملك سار إليه بنفسه ، فحصر زُفَر في قرقيسيا ، ونصب عليها المجانيق[1]، واستبعد من معه من قيس بناءً على نصيحةالكلبيين خشية أنْ ينهزموا ، وأعْلَمَتِ القيسيّة زُفَرَ ذلك ، وأبدى الهذيل بطولةً رائعةً ، وأعيا زُفَرُ عبدَ الملك بن مروان ، فسارت السفراء بينهم بالصلح بناء على نصيحة روح بن زنباع والهُذَيل بن زفر ، وكان من شروط الصلح : أنّ لِزُفَر الخيار في بَيْعَة عبد الملك بن مروان سنة ، وأنْ ينزل حيث شاء ، ولا يعين عبد الملك على قتال ابن الزُبَير ، وحاول عبد الملك الغدر بزُفَرَ لّما ظنّ أنّه أدرك غرةً منه[2]، ففشل في ذلك ، عندئذ أعطاهم الأمان وتمّ الصلح على أمان الجميع ووضع الدماء والأموال ، وأن لا يبايع عبد الملك حتّى يموت ابن الزبير للبَيْعَة التي في عنقه ، وأنْ يُعْطَى مالاً يقسّمه في أصحابه ، ولم ينزل إليه زُفَر مخافة الغدر به كما غدر بعمرو بن سعيد الأشدق حتى أرسل له قضيب النبي (ص)[3].

فلما كانت سنة ثلاث وسبعين ، وقُتِلَ ابن الزُبَيْر ، فتكافّتْ قيس وتغلب وهدأت الفتنة ، واجتمع النّاس على عبد الملك . ظنّ كلّ واحد من الفريقين أنّ عنده فضلاً لصاحبه ، وتكلّم عبد الملك في ذلك ولم يحكم بالصلح ، فبينما هم على تلك الحال ، إذ أنشد الأخطل عبدَ الملك وعنده وجوه قيس :

ألا سائل الجحّاف هل هو ثائر ... بقتلى أُصيبَتْ من سليم وعامر

وكان الجحّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عُمَيْر بن الحباب المسلمي ، فوثب يجر مطرفه وما يعلم من الغضب ، وقال :

نَعَمْ سوف نَبْكِيهم بكلّ مُهَنَّدٍ ... ونبكي عميراً بالرّماحِ الخَوَاطِرِ

---

(1) التأريخ الكامل ، ج 4، ص 164 تاريخ الأدب العربى ، ص 151.
(2) إذ جاءه من يخبره أنّ أربعة أبراج من أبراج المدينة قد هُدِمَتْ
(3) التاريخ الكامل ، ج 3 ، ص 164-166.

---

[1] المجانيق : مفردها منجيق : آلة تذف بها القذائف على الحصون لهدمها .

فقال عبد الملك للأخطل : « ما أحسبك إلاّ قد كسبت قومك شراً »[1].

ومضى الجحّاف ، فافتعل عهداً من عبد الملك على صدقات بكر وتغلب ، وصحبه من قومه نحو من ألف فارس ، فسار بهم حتى وصل الرّصافة[2]، ثم كشفَ أمره ، وأنشدهم شعر الأخطل ، وقال لهم : إنّما هي النّار أو العار ، فمن صبر فليقدم ومن كره فليرجع . فقالوا : ما بأنفسنا عن نفسك رغبة ، فأخبرهم بما يريد ، فقالوا : نحن معك فيما كنت فيه من خير وشر ، فمضوا الى أعاجنة الرحوب ، وهي في قبلة صفّين والبشر ، وهي واد لبني تغلب ، فأغاروا على بني تغلب ليلاً ، فقتلوهم وبقروا من النساء مَنْ كانت حاملاً ، ومَن كانت غيرُ حامل فقتلوها ، وقُتِلَ ابنُ الأخطل في هذه المعركة ، وله يقول جرير :

شَربْتَ الخمر بعد أبي غياث فلا نعمت لك النشوات بالا

ووقع الأخطل نفسه أسيراً في أيديهم وعليه عباءة دنسة ، فأطلقوه بعد ان أوهمهم أنّه من عبيد تغلب ، فقال ابن صفّار في ذلك :

لم تَنْجُ إلاّ بالتعبّدِ نفسُهُ لمّا تيقّنَ أنهم قومٌ عِدا

وجعل الجحّاف ينادي : من كانت حاملاً فاليّ ، فصعدن إليه ، فجعل يبقر بطونهنّ ، ثم إنّه هرب بعد فعلته ، وفرّق أصحابه ، ولحق بأرض الروم حتّى يسكن غضب عبد الملك ، وكلّمت القيسية عبد الملك في ان يؤمّنه ، وتلكّأ فقِيلَ له : أنّا واللّه لا منّة على المسلمين ، إنْ طال مقامه بأرض الروم ، فأمّنه فأقبل ، فلما قدم على عبد الملك لقيه الأخطل ، فقال الجحّاف :

ابا مالكٍ هل لُمْتَني إذْ حَضَضْتَني على القتل أمْ هل لا مني لك لائمُ
فإن تدعني أخرى أجبك بمثلها وإنّي لطبّ بالوغى جدّ عالمُ

(1) الاغاني ، ج 11، ص 59.

(2) بينها وبين شط الفرات مسير ليلة .

وقال الأخطل :

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وقعةً إلى اللّه منها المشتكي والمعوّلُ
فألاّ تغيّرها قُرَيْش بملكها يكنْ عن قريش مستزادٌ ومرحلُ

فقال عبد الملك : الى أين يا ابن النصرانية ؟ قال : إلى النار . ورأى عبد الملك ، إنْ تركهم على حالهم لم يحكم الأمر ، فأمر الوليد ابنه ، فحمل الدماء التي كانت قبل البشر في تغلب وقيس ، وضمّن الجحّاف قتلى البشر وألزمه إيّاها عقوبة له ، فأدّى الوليد الحملات ، ولم يكن عند الجحاف ما حُمّلَ ، فلحق بالحجّاج فأعانه عليه[1].

وكما في الجزيرة والشّام ، كذلك في العراق وخُراسان ، وكلّ مكان حلّت به القبائل العربيّة ، انتقل الصراع إليها بين اليمنيين والقيسيين ، ففي العراق علا نجم قيس بالحجّاج ، وعن خُرَاسان قال عبد الملك : « خُراسان ثغر المشرق ، وقد كان به من الشرّ ما كان ، وعليه هذا التميمي ، وقد تعصّب الناس وخافوا أنْ يصيروا الى ما كانوا عليه ، فيهلك الثغر ومَن فيه ، وقد سألوني أنْ أولّي أمرهم رجلاً من قُرَيْش ، فيسمعوا له ويطيعوا »[2]. فولّى عليهم أميّة بن عبد الله بن أسيد الأموي . وبسبب هذه العصبيّة أوغر الحجّاج صدر عبد الملك على المهالبة حتى عزل يزيد بن المهلّب عن خُرَاسان[3].

ولكنْ هل انتهى الصراع ؟ لا ، فإنْ انتهى الصراع الحربي ،فقد بقي الصراع السياسي يأخذ أشكالاً متعدّدة ، كالضغوط الإقتصادية وإيغار الصدور .

فمن الضغوط الإقتصادية ، أنّ عبد الملك كان ثقيلا على قيس ، وكان عمّاله يسومونهم شتى أنواع الإضطهاد والجبايات ، حتى وفد الراعي النُمَيْري على عبد الملك بن مروان يشكو بعض عمّاله ، فوقف بين يديه وأنشد :

---

(1) الاغاني ، ج 11 ، ص 59-61.
(2) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج 6 ، ص200.
(3) نفسه ، ج 6 ، ص 365.

إنّي حَـلَفْـتُ عـلى يمـين بـرّةٍ لا أكـذبُ اليـومَ الخليفـة قيـلا

مـا إنْ اتيتُ أبـا خُبَيـبٍ وافـداً سيـومـاً اردت لبَيْعَتي تبـديـلا[1]

ولَمـا اتيت نُـجَيْـدَه ابن عـويمـرٍ أبغي الهـدى فيـزيـدني تضليـلا

إذ كـان قـومي والجماعـة كـالـذي لـزِمَ الـرّحـالـة أنْ تميـلَ مُميـلا

أخـذوا العـريف فشقّقوا حيـزومـه بـالأصبحـيّـة قـائـماً مغـلولا

كهـداهـد كسر الـرمـاة جنـاحـه يـدعـو بقارعـة الشـريف هـديـلا

فـادفـع مـظالم عيّلت أبنـاءنـا عنّـا وأنقـذْ شـلونـا المـأكـولا

ولَئِـنْ بـقيْـتُ لأدعـونَّ بـطعـنـةٍ تـدع الفـرائصَ بـالشـريف قليـلا

فقـال لـه عبـد الملك : وأين من اللّه والسلطان لا ام لـك ؟ قـال : يـا أمـير المؤمنـين ، من عامـل الى عامـل ،ومن مصدّق الى مصدق [2]، فلم يحظَ ولم يحـل منـه بشيء ، فوفد إليه من قابل [3]فقال في كلمة أخرى :

وأختـل ذو المالِ والمثـرونَ قـد بَقِيَتْ

عـلى التـلاتـلِ من أمـوالهم عقـدُ

فـإن رفـعْت بهـم رأسـاً نعشتَـهم

وإن لقـوا مثلهـا في قـابـل فسـدوا

فقال له عبد الملك : أنت اليوم أعقل منك عام أول(1)

وحاول الأخطل أكثر من مرّة إيغار صدر عبد الملك بمثل قوله :

حشد على الحقّ عن قـولِ الخنا خـرسٌ

وإنْ أَلَمّتْ بهـم مـكـروهـةٌ صبـروا

بـني أمـيـة إني نـاصـحٌ لـكـمُ

فـلا يَـبِـيَّـتَـنَّ فـيـكـم آمـنـاً زُفَـرُ

(1) طبقات الشعراء ، ص 118-119.

[1] أبو خبيب : عبد الله ابن الزبير .
[2] المصدق : جابي الصدقة
[3] السنة : التالية .

فإنّ مشهدَه كفرٌ وغائلةٌ
وما يغيّب من أخلاقه دعرُ

إنّ العداوةَ تلقاها وإنْ قدمت كالعرّ[1] يكمن أحياناً وينتشر
بني امية قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم اووا وهم نصروا[2]
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعدما كفروا
ضجّوا من الحرب إذ غضت غواربهم وقيس غيلان من أخلاقها الضّجَر(1)

وينجح الأخطل في بعض هذه المرّات في إيغار عبد الملك على زُفَر بن الحارث، إذ دخل ذو الكلاع على عبد الملك ، فوجد زُفَرَ جالساً معه على السرير ، فبكى ، فقال له عبد الملك : ما يبكيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أبكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ، ثم هو معك على السرير وأنا على الارض ، قال : إني لم أجلسه معي إن يكون أكرم عليّ منك ، ولكن لسانه لساني ، وحديثه يعجبني ، فبلغت الأخطل وهو يشرب فقام فدخل على عبد الملك فقال :

وكأسٌ مثل عين الديك صرفٌ تنسّي الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أنْ يطولا
مشى قُرَشِيّة لا شكّ فيها وأرخى من مآزره الفضولا

فقال له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا خطّه في رأسك ، قال : أجل ، واللّه يا أمير المؤمنين ، حين تجلس عدوّ الله هذا معك على السرير وهو القائل :

وقد ينبت المرعى على دِمنَ الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فقبض عبد الملك رِجله ، ثم ضرب بها صدر زُفَر ، فقلبه عن السرير ،

(1) المرجع السابق ، ص 115-116.

[1] العر : الجرب .
[2] يشير الى هجائه الأنصار بناء على طلب بني أميّة .

وقـال : اذهب اللّه حـزازات تلك الصـدور ، فقـال (زُفَـر) : أنشدك اللّه يـا أمـير المؤمنـين والعهد الـذي أعطيتني . فكـان زُفَـر يقـول : مـا أيقنت بـالمـوت قط إلاّ تلك الساعة حين قال الأخطل ما قال »[1].

(1) الاغاني ، ج 7 ، ص 176-177.

الفصل الثاني

الصراع على الزعامة الاموية

الاموية

عندما أبى معاوية بن يزيد بن أبي سفيان أنْ يستخلفَ ، وقع الأمويون في حيرة من أمرهم[1] ، وبرز سؤال مهم : مَنْ يقوم للأمر من بعده ؟ وكان حسّان بن بجدل يريد الأمر لخالد بن يزيد لأنّه خال أبيه ، ولكنّ قبيلته قالت : إنّا نكره إنْ قدّمت العرب شيخاً فنقدّم غلاماً[2] .

وجاء مروان الشّام ، فاجتمعت كلمة الأمويين عليه ، بعد أنْ كاد يبايع لابن الزُبير ، وعُقِدَ مؤتمر الجابيّة ، فكرّس زعامة مروان بن الحكم ، وكان مروان قد وعد عمَرو بن سعيد وخالدَ بن يزيد بالأمر من بعده ، وخاض الأمويون وحلفاؤهم معركة مرج راهط ، فكانت صفّيناً ثانية للأمويين[3] ، ثم تبعتهم مصر بعد أنْ استولى عليها مروان بن الحكم[4] .

وهاجم مصعب بن الزُبَيْر فلسطين ، وهزمه عمرو بن سعيد ، وقال أثناء ذلك : الأمر لي بعد مروان ، فاجتمع مروان وحسّان بن بجدل وأطلعه على كلام عمرو وعلى رغبته في البَيْعَةِ من بعده لولديه ، فقال حسّان : « أنا اكفيك عمراً، فلما اجتمع النّاس عند مروان عشيّاً ، قام حسّان فقال : أنّه بلغنا أنّ رجالاً يتمنون

(1) اخبار الدول وآثار الاول، ج ١ ، ص 285 / التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص 94.
(2) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص 94/ البداية والنهاية ، ج 8 ، ص 241.
(3) تاريخ العرب ، ج 1 ، ص255.
(4) اخبار الدول وآثار الاول ، ج 1 ، ص285.

أماني ، قوموا ، فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده ، فبـايعوا عن آخـرهم »[1]

وكان حسّان يريد الأمر بعد مروان بن الحكم لخالد بن يزيد ، فلمّا بايعه أهـل الشّـام «قيـل لمروان : تزوّجْ أمّ خـالد ـ وهي بنت أبي هـاشم بن عتبة ـ حتى يصغـر شأنه ، فلا يطلب الخلافة ، فتزوجها، فدخل خالد على مروان وعنده جمـاعة وهـو يمشي بين صَفَّين ، فقـال مـروان : واللّه إنّـك لأحمق . . وقـال : يـا ابن الـرّطبـة الإست »[2] .

اغتاظ خالد وعاد الى أمّه فأخبـرها ، فقـالت له ليكتمهـا وهي تكفيه البـاقي ، وعند المساء سألها مروان : هل قال لها خالد فيه شيئاً ؟ فأجابت بالنفي ، وبعد أيّـام ينـام عندهـا مروان ، فتـرمي عليه وسـائد ، وتجلس عليهـا وجواريهـا حتّى يموت ، ويقـال : بل سَقَتْـهُ سمّاً فـارتبط لسانـه ، ودخـل أولاده ، فجعـل يـومىء إليهـا وهي تقول : بأبي أنْتَ ، إنّه يوصيكم بي .

ويهمّ عبـد الملك بالفتـك بها ، فيقـال لـه : تعلم العـرب أنّ أبـاك قـد قتلتـه أمرأة[3] ، فيقول لها : « والله لولا أنْ يقـول الناس إنّي قتلت بـأبي امرأة ، لقتلتـك بأمير المؤمنين »[4] .

واستمّر التنافس بين أبناء يزيد وأبناء عبـد الملك ، ولكنّه لم يخـرجْ إلى دائرة الصّـراع العسكري ، إذ يُـرْوَى أنّ عبد الله بن يـزيد بن معـاوية أتى أخـاه خـالـداً ، فقال : يا أخي ، هَمَمْتُ اليـومَ أنْ أفْتُكَ بـالوليـد بن عبد الملك ، فقـال له خـالد : بئس والله مـا هَمَمْتَ في ابن أميـر المؤمنين ، ووليّ عهـد المسلمين ، فقـال : إنّ خيلي مّرت به فعبث بها وأصغرني ، فقال له خالد : أنـا أكفيك ، فـدخل على عبـد الملك والوليد عنـده ، فقال لـه : يا أميـر المؤمنين ، الوليـد بن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين ، مرّت بـه خيل ابن عمّـه عبد الله بن يـزيد فعبث بهـا ، وأصغره،

---

(1) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص93.

(2) نفسه ، ج 4 ، ص94.

(3) التاريخ الكامل ، ج 4، ص94.

(4) العقد الفريد ، ج 5 ، ص138.

-وعبد الملك مطرق - فرفع رأسه ، فقال : (إنّ الملوكَ إذا دَخلوا قـريةً أفسـدوها ، وجعلوا أعـزة أهْلِها أذِلَّـةً ، وكذلـك يَفْعلون) . فقال خـالد : (وإذا أرَدْنَـا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ، أمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسقوا فيها ، فَحَقَّ عليها القَوْلُ فدمّرْنـاها تَـدْمِيرا) . فقـال عبد الملك : أفي عبد الله تكلّمني ؟ والله لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحناً . فقـال له خـالد : أفعلى الـوليد تقـول ؟ فقال عبـد الملك : إنْ كان الـوليـد يلحن فـإنّ أخـاه سليمان . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإنّ أخاه خـالد . فقـال له الـوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تُعَدّ في العير ولا في النفير . فقال خالـد : اسمع يـا أمير المؤمنين ، ثم أقبـل عليه ، وقـال : ويحك فَمَنْ العيـر والنّفيـر غيـري ؟ جـدِّي أبـو سفيـان صاحب العيـر ، وجـدّي عتبـة بن ربيعـة صـاحب النّفيـر ، ولكن لـو قلت : غنيمات وجبيلات والطائف ورحم اللّه عثمان ، لقلنا صدقت »[1]

وكان خالد مُراقباً حتّى فيمَنْ يتزوّج ، وحتّى قال بعض الشعراء يحرّض عبد الملك عليه :

عليـك أميـر المؤمنين بخـالـد	ففي خـالـد عمّـا تحبّ صـدودُ
إذا مـا نظرنـا في منـاكـح خـالـد	عرفنا الـذي ينوي وأين يـريدُ[2]

وكان خالـد قد تـزوّج أمّ كلثوم بنت عبـد الله بن جعفر ، وآمنـة بنت سعيد بن العـاص ، ورملة بنت الزُبَيْـر بن العوّام ، وتحت هـذا الضغط طلق خالـد آمنـة بنت سعيد ، فتزوّجها الوليد وفي ذلك يقول خالد :

فتـاة أبـوهـا ذو العصـابـةِ وابنُـهُ	وعثمـانُ مـا أكفـاؤهـا بكثيرِ
فـإنْ تَفْتَلِتْهـا والخـلافـة تنقلب	بأكرم عـرقي منصبٍ وسريـرِ[3]

يعرّض بأنّه اختلسها كما اختلس الخلافة .

وكان خالد يعرف أنّ آل مروان قد سلبوه حقّه ، وقد عرّض به أصحاب زُفَرَ في حصار قرقيسيا ، وكان قد اشتدّ خالد في قتـالهم :

---

(1) الكـامل في اللغة والادب ، ج 1 ، ص196-197/ مروج الذهب ، ج 3 ، ص177/ البداية والنهاية ، ج 10 ، ص 60-61

(2) الكامل في اللغة والادب ، ج، 1\203-204a ·ù

(3) نفسه ، ج1 ، ص203-204.

مـاذا ابـتـغـاءُ خـالـدٍ وهَـمّـهُ　　إذا سُلِبَ الملك ونيكَت أمّهُ[1]

يعرّض بزواج مروان بن الحكم من أمّ خالد وسلبه الخلافة من أبنائها ، وكان كثيراً ما يحصل التباعد بين خالد وعبد الملك ، وكان الأخير يلجأ للضغوط بقطع ما يجري لهم من أعطيات ، فكلّمه عمرو بن عتبة في ذلك فقال : « إنما يستحق أعطيتي منْ يُسْتَعْطَاها ، فأمّا من ظنّ أنّه يستغني بنفسه ، فسنكله إليها ، يعرّض بخالد . فقال خالد : أمّا عمرو بن عتيبة فقد أعطى من نفسه أكثر مِمّا أخذ ، أو بالحرمان يتهددني ، يد اللّه فوق يديه »[2] .

أمّا الخصومة الأمويّة التي كادت أنْ تطيح بعبد الملك ، فكانت خصومة عمروٍ بنِ سعيدٍ الأشدق .

فعمرو بن سعيد كان موعوداً من مروان بالخلافة ، لكنّ مروان عرف كيف يستبعده ، فلمّا سار عبد الملك لقتال مصعب قال له عمرُو ذلك ، وطلب منه أنْ يجعلَه بعده ، لكنّ عبد الملك رفض ذلك ، فرجع عمرو بن سعيد برفقة حميد بن حريث وزهير بن الأبرد ليلاً إلى دمشق .

وكان عبد الملك قد استخلف عليها بن أمّ الحكم الثقفي ، فلمّا عرف بقدوم عمرو ، هرب عنها ، فدخلها عمرو وغلب على خزائنها ، وخطب النّاس ، فوعدهم ومنّاهم . عرف عبد الملك بما صنعه عمرو بن سعيد ، فعاد إلى دمشق ، وقاتل عمراً أيّاماً ، وجرت مكاتبات بين الطرفين ، وجرى الصلح فدخل عبد الملك دمشق[3] .

بعد دخوله دمشق ، بدأ التفكير بالوسيلة التي يتخلّص بها من عمروٍ بن سعيد ، وقد استشار في ذلك كرنب ابن أبرهة الحميري ، فلم يوافقه على ذلك . ومع ذلك فقد أرسل له أنْ يأتيه ، وحاول عبد الله بن يزيد وحميد بن حريث وزوجته أنْ يثنوه عن عزمه ، فلم يثنِ ، فلبس درعاً ولبس فوقه قباءً ، وتقلّد سيفاً ،

---

(1) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص164 وما بعدها .

(2) عيون الاخبار ، ج 2 ، ص130/ العقد الفريد ، ج2 ، ص21-22.

(3)مروج الذهب ، ج 3 ، ص46/التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص146-149/ البداية والنهاية ، ج8 ، ص307.

ومضى في مئةٍ من مواليه ، وقد جمع عبد الملك بني مروان وحسّان بن بجدل وقبيصة بن ذُؤَيْب ، وكان حرّاس عبد الملك يحبسون موالي عمرو ، كلّ جماعةٍ عند باب . فأحسّ عمرو بالخطر ، وحاول إيفاد أحد مواليه ، ولكنّ المولى لم يفهم ، وأُغْلِقَتِ الأبواب ، فاستدناه عبد الملك ، وأجلسه معه على السّرير ، وحدّثه طويلاً ، ثم نزع عنه سيفه ثم حدَّثه طويلاً[1]، ثم قال له : « يا أبا أميّة ، إنّك حيث خلعتني آليت بيمين إنْ أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك ، أنْ أجعلك في جامعة ، فقال بنو مروان : ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ، وما عَسَيْتُ أنْ أصنع بأبي أميّة ؟ فقال بنو مروان : أبْر قسم أمير المؤمنين . فقال عمرو : قد أبرّ اللّه قسمك يا أمير المؤمين ، فأخرج من تحت فراشه جامعةً ، وقال : يا غلام ، قُمْ ، فاجمعه فيها ، فقام الغلام فجمعه فيها ، فقال عمرو : أذكرك اللّه يا أمير المؤمنين ، أن تخرجني فيها على رؤوس النّاس ، فقال عبد الملك : أمكراً أبا أميّة عند الموت ؟ لا واللّه ما كنّا لنخرجك في جامعة على رؤوس النّاس ، ثم جذبه جذبةً أصاب فمه السرير ، فكسر ثنيتيه ، فقال عمرو : أذكرك اللّه يا أمير المؤمنين ، كُسِرَ عظم مني فلا تركب ما هو أعظم من ذلك . فقال له عبد الملك : واللّه لو أعلم أنّك تبقي عليّ إذا أبقيت عليك ، وتصلح قُرَيْش لأبقيتك ، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة على ما نحن فيه إلاّ أخرج أحدهما صاحبه ، فلما رأى عمرو أنّه يريد قتله ، قال : أفدراً يا ابنَ الزرقاء »[2].

ـ وفي مروج الذّهب أنّ عبد الملك أغلظ له في القول حتّى نقض عمرو بن سعيد العهد ، فقتله أبو الزّعَيْزَعَة[3] ـ وأذّنَ المؤذّن العصر ، فخرج عبد الملك يصلّي بالنّاس ، وقد أوكل أمر قتل عمرو لأخيه عبد العزيز ، فناشده اللّه والرّحم ، فعدل عبد العزيز عن قتله ، ودخل عبد الملك بعد أنْ صلّى صلاةً خفيفةً ، فغُلّقَتِ الأبوابُ ، ورأى النّاسُ أنّ عبد الملك حين خرج للصلاة لم يخرج عمرو معه ، فأقبل أخوه يحي بن سعيد ومعه ألفُ من عبيد عمرو ، وكثير من أصحابه يصيحون

---

(1) التاريخ الكامل ، ج2 ، ص146-149 البداية والنهاية ، ج 8 ، ص308.

(2) العقد الفريد ، ج 5 ، ص157/التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص146-149/ البداية والنهاية ، ج 2 ، ص308-309.

(3) مروج الذهب ، ج 3 ، ص46-47.

على بـاب عبـد الملك : « أسمعنـا صـوتـك أبـا أميّـة » ،وأقبـل حميـد بن حُـرَيث وزُهَيـر بن الأبرد ، فكسـروا باب المقصـورة ، وضربـوا النّاس بـالسيـوف ، وأُصِيبَ الوليدُ بجرح في رأسه ، فـاحتمله إبراهيم بن عُـدى صاحب الـديوان ، فـأدخله بيت القـراطيس ، وأُصِيبَ يحيى بن سعيد بحجـر على رأسـه ، ثم دخـل عبـد الملك ، فـوجد عمـراً حيّاً ، فقـال لعبد العـزيز : مـا منعك قتله ؟ فقـال : « ناشـدني الرّحم واللّه ، فَرَقَقْتُ له ، فقال له : أخزى اللّه أُمّك البّـوالة على عقبيهـا ، فإنّـك لم تشبه غيـرها » ، وحـاول طعن عمرو بحـربة فلم تجـز ، فوضـع يده على كتفـه ، فتلمّس الدّرع ، فقال : ودَرِعٌ أيضاً فأخذ السّيف ، وجلس على صدره ، فذبحه وقال :

يا عمرو إنْ لا تدعْ شتمي ومنقصتي أضربْكَ حتى تقول الهامة اسقوني[1]

وانتفض عبد الملك واصابته رِعْدَةٌ ، فحُمِلَ ووُضِعَ على سريره ، فقال : قتله صاحب دنيا لا طالب آخرة ، وقاتل بنو مروان يحي وأصحابه ، ورمـوا الرأس عليهم والأموال ، فانتهب الناس الأموال ، وتفرّقوا ، وقيل في قتله غير ذلك .

ثم أمر عبد الملك بسريره ، فأُخْرِجَ إلى المسجد ، فافتقد الوليد ، وقال : إنْ قتلوه فقـد أصابـوا ثأرهم ، فـأُخْبِرَ أنّـه أصِيبَ بجرح ولا بـأس عليه ، فـأمر بـاعتقال يحي بن سعيـد وأبناء عمـرو بن سعيد وحميـد بن حريث وزهيـر بن الأبرد ، وحـاول قتلهم ، فشفع بهم عبد العزيز ، فحُبسوا شهراً وأُلْحِقوا بمصعب بن الزُبَيْر[2] ، وقام عبد الملك ، فقال بعد أنْ حمد اللّه وأثنى عليه :

« أمّا بعد ، فلستُ بـالخليفةِ المُسْتَضْعَف (عثمـان) ، ولا بالخليفـة المداهن (معاوية) ، ولا بالخليفة المأفون (يزيد) ، ألاَ وإنّ مَنْ كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ، ويطعمون من هذه الأموال ، ألا و إنّي لا أداهن هذه الأمّة إلاّ بالسّيف حتّى تستقيم لي قناتكم ، تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين ، ولا تعملون أعمالهم ، فلم تزدادوا إلاّ اجتـراحـا ، ولن نزداد إلا عقوبة ، وهذا حكم السّيف بيننا وبينكم ، هذا عمرو بن سعيد ، قرابته قرابته ، وموضعه موضعه ، قال برأسـه هكذا ، فقلنـا بسيفنا هكـذا ، ألا وأنّا نحتمـل كلّ شيء ، إلا وثـوباً على منبـر ، أو نصب رأية ، ألا وإنّ

(1) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص146-149/ البداية والنهاية ، ج 8 ، ص309.

(2) التاريخ الكامل ، ج4 ، ص146-149/ البداية والنهاية ، ج 8 ، ص309.

الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي ، واللهلا يفعل فعله أحد ، إلّا جعلتها في عنقه ، ثم لا تخرج إلّا صعداً . وزادوا فيها : واللّه لا يأمرني بتقوى اللّه أحد بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ، ثم نزل ، فركب ناقةً ، وأخذ بزمامها ، وقال :

فصحّت ولا شلّت وضرّت عدوّها يمين أراقت مهجة ابن سعيد[1]

ثم أمر بالأموال فجُمِعَت ، وبعث بعد ذلك إلى امرأةَ بن سعيد الكلبيّة : أنْ ابعثي اليّ بكتاب الصلح الذي كتبته لعمرو ، فقالت لرسوله : « ارجع، فاعلمه أنّ ذلك الصلح معه في أكفانه ليخاصمك به عند ربه »[2] . وقد سأله مرة خالد ابن يزيد ، كيف أصاب غرّة من عمرو ، فقال :

أدْنَيْتُهُ منّي ليسكنَ روعهُ فأصولُ صولةَ حازمٍ متمكّن
غضباً ومحميةً لديني إنّه ليس المسيءُ سبيله كالمحسنِ[3]

وقد وصف بعض بني مروان قتله فقال :

كأنّ بني مروان إذ يقتلونه بغاثٌ من الطير اجتمعْن على صقرِ[4]

وسأل عبد الملك أحد أصحاب المشورة عنده عن مقتل عمرو ، فقال : « أمر قد فات دركه ، قال : لتقولّن ، قال : حزم لو قتلته وحييت . قال : أو لست بحيّ ؟ فقال : ليس بحي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ، ولا بعقد . قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلي لأمْسَكْتُ »[5] .

وقد تغنّى عبد الملك بقتله كثيراً،وفي أكثر من خطبة ومناسبةٍ ،وبتخلصه من عمرو بن سعيد تمّت له السيطرة على الحزب الأموي ، وصار على استعداد لمواجهة مصعب بن الزُبَيْر .

(1) فوات الوفيات ، ج 2 ، ص33 / البداية والنهاية ، ج 8 ، ص310 وفيها صحت ولم تشلل والشعر لابي اليقظان/البداية النهاية ، ج 9 ، ص61 وما بعدها .
(2) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص146-149.
(3) مروج الذهب ، ج 3 ، ص47/ التاريخ الكامل ، ج4 ، ص146-149/ البداية والنهاية ، ج 9 ، ص 61 وما بعدها ، وفيها مستمكن والشعر للظبي ابي رافع .
(4) الحيوان ، ج 6 ، ص315 والجزء السابع ص60
(5) العقد الفريد ، ج 1 ، ص58 /ج 5 ، ص148.

وفي هذه الأثناء خرج أحد قواد الضواحي في جبل اللكام واتبّعه خلق كثير من جراجمة وانباط وأبّاق ، وعبيد ، وصار بهم الى لبنان ، فلما فرغ من عمرو ، صالح هذا القائد ، وبذل له ألف دينار كلّ أسبوع حتى اطمأنّ ، فأرسل عليه سحين بن المهاجر ، فغافله وقضى عليه[1] .

(1) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص149.

الفصل الثالث

- عبدالله بن الزبير والحزب الزبيري
- القضاء على مصعب بن الزبير
- مقتل عبدالله بن الزبير.

الزبيري

لقد تلاحقت الحوادث بعد مقتل عثمان بن عفان (رض) إذ ولي الخلافة علي (ع) ، فنشب الصراع بينه وبين عائشة وطلحة والزُبَيْر ، ويَقْضِي عليهم في معركة الجَمَل ، فيتصدّى له معاوية مطالباً بدم عثمان ، وتكون« صفّين » و« التحكيم » ، وسرعان ما يُقْتَلُ الأمام علي (ع) ، ويخلص الامر لمعاوية بعد مقتل علي .

وكان الأمويون في نظر الكثير من المسلمين لا يمثّلون الحكّام الجديرين للعالم الإسلامي لمعاداتهم للرّسول (ص) في بداية دعوته ، ولأنّ في المسلمين من هو أحقّ منهم بالخلافة ، ويقضي معاوية ، وتنشب المعارضة ليزيد ، وقد بدأت لمّا حاول معاوية أخذ البَيْعَةِ لابنه ، فإنّ فريقاً من أبناء كبار الصّحابة مثل الحسين بن علي (ع) وعبد اللّه بن الزُّبَيْر وعبد اللّه بن عمر ، أبّوا أنْ يبايعوا ليزيد ، فلمّا ولي الخلافة ، شدّد على هؤلاء الثلاثة ، فبايع عبد الله بن عمر ولحق عبد اللّه بن الزُّبَير والحسين بن علي (ع) بمكّة ، ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين إليهم وبايعوه[1] ، وكان عبد اللّه بن الزبَيْر يغري الحسين بالذّهاب ، وذهب الحسين واستشهدبكربلاء على حدود العراق . « فشمر ابن الزبيرلـلامر الذي اراده ، ولبس المعافري وشبربطنه وقال : إنما بطني شبر ، وما عسى أنْ يسع الشبر ، وجعل يظهر

(1) تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، ص183

عيب بني أميّة ، ويدعو الى خلافهم ، فأمهله يزيد سنة ، ثم بعث اليه عشرة من أهل الشام »[1] فهددوه بالقتل ، فحبسهم شهراً ثم ردهم الى الشام . وعنه قال السائب بن فرّوخ يذكر شبر بطنه :

ما زال في صورة الاعراف يدرسها حتى فؤادي مثل الخزّ في اللين
لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد فضلت فضلاً كثيراً للمساكين[2]

فيئس يزيد من بيعته ، فأرسل الى عامل المدينة أنْ يأخذها منه قسراً ، فبعث إليه عمرو بن الزُّبير ، فلم يفعل شيئاً ، وقبض عليه أخوه ، وقتله تحت السّياط[3]

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أنْ يبعث بعض أشرافها إلى يزيد ، فأكرمهم يزيد ، وعادوا الى المدينة ليحرّضوا الناس عليه ، إذ قالوا : إنّما قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ، ويعزف بالطّنابير، وتضرب عنده القِيَان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخرّاب والفتيان »[4] .

ويمضي بنُ النربيد في دعوته ، فيأتي « صفّية بنت أبي عبيد اللّه زوجة عبد الله بن عمر ،فذكر لها أنّ خروجه كان غضباً للّه تعالى ورسوله(ع) ، والمهاجرين والأنصار من إثرة معاوية وابنه وأهله بالفيء ، وسألها مسألته أن يبايعه (عبد اللّه بن عمر) ، فلما قدّمت له العشاء ذكرت له أمر ابن الزُّبَيْرِ واجتهاده وأثنت عليه ، وقالت ما يدعو إلاّ إلى طاعة اللّه عزّ وجلّ ، وأكثرت في ذلك . فقال لها :أمَا رأيت بفلات معاوية التي كان يحجّ عليها الشهب فابنُ الزُّبَيْرِ ما يريد غيرهن »[5] .

وأقام بنُ الزُّبَيْر على خلع يزيد ، ومَالأ على ذلك أكثر النّاس ، فدخل عليه عبد اللّه بن مطيع وعبد اللّه بن حنظلة وأهل المدينة المسجد ، وأتو المنبر ، فخلعوا يزيد ، فقال عبد اللّه بن أبي عمرو بن حفص بن المُغيرة المخزومي : « خلعت يزيد كما خلعت عمامتي ، ونزعها عن رأسه وقال : إنّي لا أقول هذا وقد وصلني وأحسن جائزتي ، ولكن عدو اللّه سكّير خمّير ، وقال آخر : خلعته كما خلعت نعلي ، وقال

---

(1) الاغاني ، ج 1 ، ص 11-12.
(2) مروج الذهب ، ج 3 ، ص22 / الاغاني ، ج 1 ، ص11-12.
(3) الأغاني ، ج 13 ، ص39-40.
(4) تاريخ الرسل والملوك ، ج 4 ، ص368.
(5) الاغانى ، ج 1 ، ص12

آخر : خلعته كما خلعت ثوبي ، وقال آخر : خلعته كما خلعت خفّي ، حتّى كثرت العمائم والنّعال والخفاف ، وأظهروا البراءة منه وأجمعوا على ذلك ، وامتنع منه عبد اللّه بن عمر ومحمّد ابن علي بن أبي طالب (ع) ، وجرى بين محمّد خاصّةً وبين أصحاب ابن الزُّبَيْرِ فيه قول كثير ، حتى أرادوا إكراهه على ذلك ، فخرج إلى مكّة ، وكان هذا أول ما هاج الشرّ بينه وبين ابنِ الزُّبَيْرِ »[1] .

واجتمع أهل المدينةَ وأخرجوا بني أميّة منها بعد أنْ أخذوا عليهم العهود والمواثيق بعدم قتالهم أو رجوعهم مع الجيش ، إنْ لم يستطيعوا أنْ يمنعوا الجيش عنهم ، وحاول عثمان بن محمّد بن أبي سفيان نهيهم عن ذلك فقال لهم :«انشدكم اللّه في دمائكم ، وطاعتكم ، فإنّ الجنود تأتيكم ، وتطؤكم ، وأعذر لكم إنْ لا تخرجوا أميركم ، إنّكم إنْ ظفرتم وأنا مقيم بين أظهركم ، فما أيسر شأني وأقدركم على إخراجي ، وما أقول هذا إلاّ نظراً لكم أريد به حقن دمائكم »[2] .

فشتموه وشتموا يزيد ، وضمّ علي بن الحسين (ع) لمروان أهله وثقله بعد أن سأله، ذلك، وتبعهم حُرَيْث رقّاصة، وهو مولى لبني بهزمن من سليم، وضايقهم حتى ساروا إلى الشّام[3].

وثار أهل المدينة بقيادة عبد اللّه بن حنظلة، واوقع بهم مسلم ابن عقبة المرّي في معركة الحرّة ، واستُبِيحَتْ مدينة الرّسول (ص) ثلاثة أيّام ، ومضى نحو مكّة ، ويموت مسلم في الطّريق ويخلفه الحُصَين بن نُمَير السّكوني ، فيحاصر ابنَ الزبيد في مكّة[4] . وفي هذه الأثناء يشبّ حريق في الكعبة ، إذ سمع ابنُ الزُّبَيْرِ أصواتاً في الليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشّام قد وصلوا إليه ـ وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة ـ فرفع ناراً على رأس رمح ، فأطارتها الريح ، فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها ، وخشي ابن الزبير العاقبة ، وخشيها النّاس كذلك ، فدعوا اللّه كثيراً ، ثم بعد أنْ هدأ روعهم ، هدمها ابنُ الزُّبَيْرِ ، وأعاد بناءها على قواعد

(1) نفسه ، ج 1 ، ص 12-13.
(2) الاغاني ، ج 1 ، ص12-13.
(3) نفسه ، ج 1 ، ص13-14.
(4) تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ،ص 184.

إبراهيم ، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ،واحضر لذلك الفعلة من الفرس والرّوم[1]

وتأتي الأخبار بموت يزيد بن معاوية ، ويحاول الحُصَيْنُ بنُ نُمَير أنْ يصحب ابن الزُّبَيْر إلى الشام ليأخذ له البَيْعَة ، ويرفض ابن الزُّبير ، وقد غلب على الحجاز وجعل يتبع شيعة بني أميّة ، فينفيهم عن المدينة ومكّة حتّى لم يبقَ بها أحد منهم .

ولم يقصر عبدُ الله بن الزبير تضييقه على شيعة بني أميّة ، إنّما أغرى ببني هاشم ، يتبعهم بكلّ مكروه ، ويغري بهم ويخطب بهم على المنابر ، ويصرّح ويعرض بذكرهم ، وناظره ابن عباس وغيره منهم ، ثم بدا له فيهم ، فحبس ابنَ الحنفيّة في سجن عارم ثم جمعه وسائر بني هاشم ، فجعلهم في محبس ملأه حطباً وأضرم فيه النّار ، وبلغ أبا عبد اللّه الجدلي الخبر فوافاه وقت إضرام النّار ، فأطفأها ، واستنقذه وصحبه ، وأخرجه عن جوار ابن الزُّبير ، وفي ذلك يقول كُثيّر عزّة :

تخبّر مَنْ لا قيت أنّك عائذ ... بل العائذ المظلوم في سجن عارم[2]

وهيأ موت يزيد لاتّساع دعوة ابن الزُّبير ، واضطراب الامصار على ولاتها لبني أميّة حتّى الشّام ، إذ بايع ولاتها ابن الزُّبير ، ودعمته قيس في ذلك، ولأجل هذا تمثّل عبد الملك بعد أن أنشد ابن عبدل بين يديه ، فقال (عبد الملك) :

إنْ يمك اللّه من قيس ومن جدسٍ ... ومن جذامٍ ويقتلْ صاحب الحرمِ

نضرب جماجم أقوام على حنق ... ضرباً بنكل عفاً عن غابر الأممِ[3]

ودخلت مصر في طاعته ، كما دخلت الكوفة والبصرة وخُرَاسان ، ثم قام المختار بعد حركة التوّابين ، فغلب على الكوفة ودعا لمحمّد بن الحنفيّة[4] .

ويلي مصعب بن الزبير البصرة لأخيه ، وينازل المختار ـ بعد ان يغري إبراهيم بن الأشتر فينحاز اليه ـ ويُقْتَلُ المختارُ ويُحَاصَرُ أصحابُه في قصره ، ويؤمنهم

---

(1) العقد الفريد ، ج 247,7 /مروج الذهب ، ج 30,3 / الاغاني ، ج 84,3-85 / ج 6 ، ص 31/ ج 1 ، ص 98/ البداية والنهاية ، ج 302,9.

(2) الاغاني ، ج 8 ، ص108/ ايضا ص 32-33.

(3) نفسه ، ج 2 ، ص156.

(4) الاغاني ، ج2 ، ص 138

مصعب . فينزلون على أمانه فيقتلهم جميعاً ، وكانوا نحو سبعة آلاف رجل ، وحتّى نساء المختار لم تسلم من مصعب ، فقد قتل إحداهن لأنّها رفضت أنْ تبرأ من زوجها ودفنها حيّة بأمر من أخيه العائذ بالبيت الحرام[1] .

وكانت الشّام قد دانت لمروان بن الحكم بعد معركة مرج راهط التي دارت الدوائر فيها على قيس[2] ، وتتبعه مصر ثم يخلفه ابنه عبد الملك ، فيتخلّص من عمرو بن سعيد[3] ويتربّص بمصعب والمختار من يقضي على صاحبه[4] .

ويفد فاتك ابن فضالة الأسدي على عبد الملك بن مروان ، فيضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأنْ يسلّموا مصعباً إذا لقيه ، وأن يتفرقوا عنه وله يقول الأُقَيْشِر في هذه الوفادة :

يا فاتِكَ بن فضالةِ بن شريك[5] وَفَدَ الوفودُ فكنتَ أفضلَ وافدٍ

وإذا كانت وقعة مرج راهط قد قررت صمود بني أميّة ، فإنَّ عبد الملك أدرك أنّ المعركة الفاصلة ستكون في العراق ، فبدأ يتجهّز للقاء مصعب ، ويقرّر المسير إليه بنفسه ، لأنّه كان يعلم أنّ مصعباً هو سيف عبد اللّه وساعده ، والقضاء عليه ، إنّما يعني القضاء على الحركة الزُّبَيْرِيّة . وبالفعل ، فإنّ عبد اللّه بن الزُّبير لم يستطع الصمودَ أكثر من عامين بعد مقتل أخيه .

القضاء على مصعب بن الزُّبير

في سنة إحدى وسبعين عزم عبد الملك بن مروان على المسير إلى العراق وقتال مصعب ، فأستشار أصحابه في ذلك ، فأشار يحيى بن الحكم بن أبي العاص عمّه بأنْ يقنع بالشّام ، ويترك ابن الزُّبَيْر والعراق ، وكان يقول عبد الملك من أراد صواب الرأي ، فليخالف يحيى . وقال بعضهم : إنّ العام جدب ، وقد غزوت سنتين ، فلم تظفر ، فأقم عامك هذا ، فقال عبد الملك : الشّام بلد قليل المال ولا

---

(1) نفسه ، ج2، ص138.

(2) راجع فصل : الصراع بين القيسية واليمنية .

(3) التاريخ الكامل ، ج4 ، ص 146-149.

(4) الاغاني ، ج 20 ، ص 120-121-1261/ التايخ الكامل ، ج 164,4-166.

(5) الاغاني ، ج 10 ، ص94.

آمن نفاده ، وقد كتب كثير من أشراف العراق يدعونني إليهم ، وقال أخوه محمّد بن مروان : الرأي أن تطلب حقّك ، وتسير إلى العراق ، فإنّي أرجو اللّه أنْ ينصرك . وقال بعضهم : إنْ تقيم وتبعث بعض أهلك وتمدّه بالجنود . فقال عبد الملك : إنّه لا يقوم لهذا الأمر إلا قُرَشيّ له رأي ، ولعلّي أبعث مَنْ له شجاعة ولا رأي له ، وإنّي بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن احتجت إليه ، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ، ولكنّه لا علم له بالحرب . . . ومعه مَنْ يخالفه ومعي مَنْ ينصح لي »[1]

وسار عبد الملك يريد العراق ، وبلغ مصعباً مسير عبد الملك إليه ، فأرسل الى المهلب ، وكان يقاتل الخوارج ، وقيل : بل أحضره عنده واستشاره ، فقال لمصعب إنّ أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك ، فلا تبعدني عنك ، ولكنّه أهمل نصيحته وقال : « إنّ أهل البصرة طلبوا أنْ تكون على قتال الخوارج ، وأنا أكره إنْ سار إليّ عبد الملك أنْ لا أسير إليه فاكفني هذا الثغر »[2] . وسار إلى الكوفة ومعه الأحنف ، فمات بالكوفة ، وأرسل إلى ابراهيم بن الأشتر وكان على الجزيرة والموصل ، فجعله على مقدّمته ، وسار حتى نزل باخمرا وهي قريب من أوانا ، فعكسر هناك على نهر دُجَيل بالقرب من دير الجاثليق[3] .

وكان عبد الملك قد جعل على مقدّمته أخاه محمّد بن مروان ، وقد مرّ بقرقيسيا فحاصرها وبها زُفَرُ بن الحارث الكلابي ، ثم صالحه وأمن بذلك قيس الجزيرة ، وسار معه الهُزَيْل بن زُفَر فلحق بمصعب ، ونزل بمن معه بمسكن قريباً من عسكر ابن الزُّبَيْر ، فلمّا تدانى العسكران ، بعث عبد الملك رجلاً من كلب ، وقال له : « أقرىء ابن أختك السّلام ـ وكانت أمُّ مُصعب كلبيّة ـ وقل له يدع دعاءه الى أخيه ، وأدع دعائي لنفسي ، ويجعل الأمر شورى . فقال مصعب : قل له : السيف بيننا »[4] .

وكاتب عبد الملك أهل العراق ، ومن كان كاتبه ومن لم يكاتبه ، وجعل لهم جميعاً أصبهان طعمة ، وكان كلّ من كاتب عبد الملك طلب أصبهان ، حتى قال

---

(1) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص157 وما بعدها .

(2) نفسه ، ج 4 ، ص 157 وما بعدها .

(3) اليعقوبي ، ج 3 ، ص12.

(4) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص157-162.

« أيّ شيء أصبهان هذه ؟ حتّى كلّهم يطلبها » . وكشف إبراهيم ابن الأشتر أمر هذه الرسائل ونصح مصعباً لكنّه لم يلتفت للنّصيحةِ . قاتل إبراهيم حتّى كاد ينتصر ، وقُتِلَ ، وأقبل مصعب ، فخُذِلَ ، وَبَذَلَ له عبد الملك الأمان ولأهل بيته ، فأبى وقاتل حتّى قُتِلَ[1] .

وحمل عُبيد اللّه بن زياد بن ظبيان رأسه إلى عبد الملك[2] . فسجد وقال : « متى تغذو قُرَشيّة مثلك » ، وقيل غير ذلك ، ولكنّ عبد الملك على كلّ حال ، لم يقدر خصماً له كمصعب ، ولم يأسف لقتل أحد كما أسف عليه ، إذ قال لمّا قُتِلَ مصعب : « واروه ، فقد واللّه ، كانت الحرمة بيننا قديمةً ولكنّ الملك عقيم »[3] ، وكان يصفه بأنّه أشجع الناس[4] .

وكان مصعب سيّداً كريماً ممدَّحاً ، بكاه كثير من الشعراء ، ومن بديع مديحه قول عُبيد الله بن قيس الرّقيّات :

إنّما مصعب شهاب من اللّه   تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوّة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء[5]

وقال أبو العبّاس الأعمى مولى بني الديل :

يرحم اللّه مصعباً فلقد   مات كريماً ورام أمراً جسيما[6]

وبعد مقتل مصعب ، دعا عبد الملك جند العراق الى بَيْعَتِهِ فبايعوه ، ودخل الكوفة وخطب النّاس فقال : « إنّ الجامعة التي وُضِعَتْ في عنق عمرو ابن سعيد عندي ، واللّه لا أضعها في عنق رجل فأنتزعها إلّا صعداً لا أفكّها فكّاً ، ولا يَتَقِيَنّ أمرؤ إلّا على نفسه ولا يُولِغَنّ دمه والسّلام » ودعا النّاس فبايعوه[7] . « وقال

(1) نفسه ، ج 4 ، ص157-162.
(2) اليعقوبي ، ج 3 ، ص12.
(3) تاريخ الرسل والملوك ، ج 6، 161.
(4) الاغاني ، ج 17 ، ص 166-167/ التاريخ الكامل ، ج 4، ص 157 ـ 162
(5) الاغاني ، ج 4 ، ص158
(6) الاغاني ، ج 15 ، ص62
(7) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص157-162.

المضاء بن علوان ، كاتب مصعب بن الزُّبَيْر : دعاني عبد الملك بعدما قَتَلَ مصعباً ، فقال لي : علمتَ أنّه لم يبقَ من أصحاب مصعب وخاصته أحد إلّا كتب يطلب إليّ الأمان والجوائز والصّلات والإقطاعات ، قلت قد يا أمير المؤمنين ، إنّه لم يبقَ من أصحابك أحد إلّا وقد كتب إليَّ مصعب بمثل ذلك ، وهذه كتبهم عندي ، قال : فجئني بها ، فجئته بإضبارة عظيمة ، فلمّا رآها ، قال : ما حاجتي أنْ أنظر فيها فأفسد صنائعي وأفسد قلوبهم علي ، يا غلام : احرقها بالنّار ، فأُحْرِقَتْ »[1] .

ووُرِيَ لعبد الملك وهو جالس في دار الإمارة بالكوفة لمّا أُدْخِلَ عليه رأس مصعب ، أنّ رأس الحسين(ع) قُدِّمَتْ بين يدي عُبيد اللّه بن زياد ، وأنّ رأس ابن زياد قُدّمَتْ بين يدي المختار ، وأنّ رأس المختار قُدِّمَتْ بين يدي مصعب ، وأنّ رأس مصعب قُدِّمَتْ بين يديه هو في نفس هذا المكان ، فأمر بهدم الدار[2] . ونصب رأس إبراهيم بن الأشتر النخعي في دمشق[3] ، وبعث برأس مصعب الى أخيه عبد العزيز بمصر ، ثم أعاده إلى دمشق ، فطاف به ، فأخذته عاتكة بنت يزيد ، فغسلته وحنّطته ودفنته[4] .

مقتل عبد اللّه ابن الزُّبير

في سنة اثنتين وسبعين وجّه عبد الملك بن مروان الحجّاج بن يوسف الثقفي الى مكة لقتال ابن الزُّبَيْر ، وكان سبب توجيه الحجّاج دون غيره « أنّ عبد الملك لمّا أراد الرّجوع إلى الشّام ، قام إليه الحجّاج فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي رأيت في منامي ، أنّي أخذت عبد اللّه بن الزُّبَيْر فسلخته فابعثني إليه ، وولّني قتاله »[5] ، فبعثه إليه ـ وقد كتب إليه عبد الملك بالأمان إن دخل طاعته ـ في ألفين من جند أهل الشّام في جمادى من سنة اثنتين وسبعين ، فلم يعرض للمدينة ، وسلك طريق

(1) اليعقوبي ، ج3 ، ص12.
(2) مروج الذهب ، ج 3 ، ص53.
(3) المحبر ، ص492.
(4) نفسه ، ص492.
(5) تاريخ الرسل والملوك ، ج4 ، ص 274.

العـراق ، فنزل بـالطائف ، وكـان يبعث البعوث الى عـرفـة في الخيـل ، ويبعث ابن الزُّبير بعثاً فيقتتلون هنالك(1) .

ثم يحاصر الحجّاج ابنَ الزُّبَيْـر بعد أنْ تصله الأمـداد مدّةً من الـزمن ، ويقتله لسبع عشرة ليلةً خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين(2) .

وقد أظهر أبو بكر عبد اللّه بن الزُّبير خلال المعارك التي خاضها بطولةً رائعةً لا تدانيها إلّا بطولة مصعب يـوم مقتله بالعـراق ، وأظهرت والـدته أسمـاء بنت أبي بكر الصـدّيق (رض) من الشّجاعـة الأدبيّة في حض ابنهـا على الصمود في مـوقفـه حتّى الإستشهاد حتى صار يُضْرَبُ بها المثل .

ولمّا قُتِلَ ابنُ الزُّبير ، صلب الحجّـاج جسده وبعث بـرأسه إلى عبـد الملك ، فجلس على سريره ، وأذن للنّاس ، فدخلوا عليه ، فقام عبد اللّه بن الزُّبيـر الأسدي فاستأذنه في الكلام ، « فقـال له : تكلّم ولا تقـل إلّا خيراً وتـوخَّ الحقَّ فيما تقـول » فأنشأ يقول :

مشى ابنُ الزُّبير القهقري فتقدمت	أميّـة حتّى أحـرزوا القصبـات
وجئت المُعَلّى يا ابن مروان سابقاً	أمـام قُـرَيْش تنقص العـذرات
فـلا زلت سبّـاقـاً إلى كـلّ غـايـة	الى المجد نجّاءً من الغمرات(3)

وكان عبدُ اللّه بنُ الزُّبير بخيلاً ، فهجاه غيرُ واحد من الشعـراء ، خاصـةً ابنُ فضالة بن شريك ، وكان سبب هجائه له ، أنّـه قدم عليـه فقال لـه : « نفذت نفقتي ونقيت راحلتي ، فقال : احضرها ، فأحضرها . فقال : أقبل بها ، أدبر بهـا ففعل ، فقال : ارقعها بسُبْتٍ ، واخصفها بهُلْبٍ[1] ، وانجد بها البَرْدَينِ[2] تصحْ ، فقال ابنُ فضالة : إنّي أتيتك مستحملاً ولم آتِـكَ مستوصفـاً ، فلعن اللّه ناقـةً حملتني إليك ، فقال ابن الزُّبير : إنّ وراكبها[3] »، فانصرف عنه ابن فضالة وقال :

(1) نفسه ، ج 4 ، ص 174. وفي رواية اخرى انه بعثه في جيش كثيف .

(2) نفسه ، ج 6 ، ص187 . وفي رواية اخرى ان مدة حصره بلغت ستة اشهر وسبعة عشر ليلة .

(3) الاغاني ، ج3 ، ص 43-44.

[1] السُّبْتُ : نبات كالخطمي ، خصف · ألصق ، أو أتبع الشيء بالشيء . الهُلب : الشعر

[2] لبردان : الغداة والعشي .

[3] أي نعم ولعن راكبها .

أقـول لغلمـتي شـدّوا ركـابـي — أجـاور بـطن مكّـة في سـواد
فمـالي حين أقـطع ذات عـرق — إلـى ابن الـكـاهـليّـة مـن مـعـاد
أرى الحـاجات عنـد أبي خُبَيّبٍ — نُـكِـرْنَ ولا أميّـة فـي الـبـلاد
من الأعيـاص أو من آل حـرب — أغـر كغـرة الفـرس الـجـواد [1]

وكان عبد الملك يقول : « ان ابن الزبير لطويل الصلاة ، كثير الصيام ، ولكنه لا يصلح لها لبخله »[2].

وبمـوت ابن الـزُّبيـر تمّتْ البَيْعَـةُ لعبـد الملك في جميـع الأمصـار واستقـلّ بالخلافة[3] .

(1) الاغاني ، ج 1 ، ص 9.
(2) تاريخ الرسل والملوك ، ج 6 ، ص 422.
(3) المحبر ، ص 24 / تاريخ الرسل والملوك ، ج 4 ، ص 174 وما بعدها . تاريخ بغداد ، ج 10 ، ص 388/ المختصر في اخبار البشر ، ج 2 ، ص 111-116.

الفصل الرابع

الشيعة والمختار بن ابي عبيد الثقفي

الشيعة

« الشّيعةُ هم الذين شايعوا علياً (ع) على الخصوص ، وقالوا بإمامامته ، وخلافته نصاً ووصيّة ، إمّا جليّاً وإمّا خفيّاً . واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده ، ولَئِنْ خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقيّةٍ من عنده ، وقالوا : ليست الإمامةُ قضيّةً مصلحيّةً تُنَاطُ باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضيّة أصوليّة ، وهي ركن من الدين ، لا يجوز للرّسول (ع) إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله »[1] .

وسنتكلّم في هذا الفصل عن حركتين من حركات الشيعة ، الأولى حركة التّوابين ، والثّانية حركة المختار بن أبي عُبيد الثقفي .

١ ـ حركة التّوابين

بعد مقتل الحسين بن علي (ع) عاد الى الكوفة عُبيد اللّه بن زياد ، فتلاقته الشّيعة باللوم والنّدم على ما فرّطوا فيه بحقّ ابن بنت نبيهم من دعوتهم له وتركهم نصرته وإجابته ، حتى قُتِلَ بين ظهرانيهم ، فرأوا أنّه لا يغسل عارهم ولا يكفّر عن إثمهم إلا قتل من قتله أو الإستشهاد في سبيل ذلك ، واجتمعوا إلى خمسة نفر من رؤساء الشّيعة هم : سليمان بن صرد الخزاعي والمسيّب بن نجبة الغزاري وعبد اللّه بن سعد بن نفيل الأزدي وعبد اللّه بن وال التميمي ورفاعة بن شدّاد البجلي ،

---

(1) الملل والنحل ، ج 1 ، ص 146.

وكـان هؤلاء من خيرة أصحـاب علي (ع) . فـاجتمعـوا في منـزل سليمـان بن صـرد وتشاوروا ، واتّفقوا على الأخذ بثأر الحسين (ع)[1] ، « وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان يعلمه بما عزموا عليه ، ويدعوه الى مساعـدتهم ومَنْ معه من شيعة المدائن ، فقـرأ سعد بن حـذيفة الكتـاب على من بالمـدائن من الشّيعة ، فـأجابـوا إلى ذلك ، فكتبـوا إلى سليمـان بن صرد يعلمـونه أنّهم على الحـركة إليـه والمساعدة له . وكتبُ سليمان أيضاً كتاباً إلى المثنّى بن مخرمة العبدي بالبصرة مثـل ما كتب الى سعد بن حذيفة ، فأجابه المثنّى : إنّنا معشر الشّيعة حمدنا اللّه على ما عزمتم عليه ، ونحن موافوك إنْ شاء اللّه »[2] .

فحركة التّوابين ابتدأت بعد مقتل الحسين مباشرةً سنة إحدى وستين للهجـرة ، فكانوا يدعون في السـرّ للطّلب بدمـاء الحسين ، ويعدون العـدّة لذلـك ، وما زالـوا على تلك الحال حتى هلك يزيد بن معاوية سنة أربع وستين ، « فلمّا مات يزيد جاء الى سليمان أصحابه ، فقالوا : قد هلك هذا الطاغية والأمر ضعيف ، فإنْ شئت وثبنا على عمروِ بنِ حُرَيث ـ وكان خليفة ابن زيـاد على الكوفـة ـ ثم أظهرنـا الطّلب بـدم الحسين وتتبعنـا قتلتـه ، ودعـونـا النّـاس الى أهـل هــذا البيت المُسْتَـأْثَـر عليهم ، المدفوعين عن حقّهم ، فقال سليمان بن صرد : لا تعجلوا ، إنّي نظرت فيمـا ذكرتم ورأيت قتلة الحسين هم أشـراف الكوفـة وفرسـان العرب ، وهم المُـطَالَبون بـدمه ، ومتى عَلِمُـوا ما تـريدون كـانـوا أشـدّ النّـاس عليكم ، ونـظرت فيمَنْ تبعني منكم ، فعلمت أنّهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم ، وكانوا جزراً لعدوهم ، ولكن بثّـوا دعاتكم وادعـوا الى أمركم ، ففعلوا ، واستجـاب لهم ناس كثيـرون بعـد هلاك يزيد »[3] .

ثـار أهل الكـوفة بعـد هلاك يـزيد ، فـطردوا عمراً بـن حُـرَيْثٍ ، وبايعـوا لعبد اللّه بنِ الزُّبَيْر ، إلاّ أنّ الأمر لم يؤثر على سليمان بن صرد وأصحابه ، فاستمرّوا في بثّ دعوتهم ، وكان المختار بن أبي عُبيد الثقفي قد قدم الكوفة ، وأرسل ابن الزبيـر

(1) مروج الذهب ، ج 3 ، ص 37 وما بعدها .
(2) نفسه ج 3ص
(3) الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص 80-81.

عبد اللّه بن يزيد الأنصاري أميراً على الكوفةِ وإبراهيم بن محمّد بن طلحة معه على خراجها[1] .

قام المختار يتثبيط النّاس عن سليمان بن صرد ، ودعا النّاس لقتال قتلة الحسين ، وكان يقول إنّ محمّد بن الحنفيّة قد أرسله للطّلب بدم الحسين وسليمان بن صرد لا علم به بالحرب ولا القتال[2] . علم عبد الله بن يزيد الأنصاري بالأمر وحاول لفيف من أهل الكوفة مِمّن كان له ضلعٌ في قتل الحسين ، إغراءه بالتصدّي لهذه الحركة وخوّفوه منها ، فقال عبد اللّه : « إنْ هم قاتلونا قاتلناهم ، و أنْ تركونا لم نطلبهم ، إنّ هؤلاء القوم يطلبون بدم الحسين ، ابن علي ، فرحم اللّه هؤلاء القوم ، آمنون فليخرجوا ، ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم (يعني ابن زياد) وأنالَهُمْ ظهيرٌ ، هذا ابن زياد وقاتل الحسين ، وقاتل أخياركم وأمثالكم قد توجّه إليكم ، وقد فارقوه على ليلة من جسر منبج ، فالقتال والإستعداد إليه أولى من أنْ تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، فيلقاكم عدوّكم وقد ضعفتم ، وتلك أمنيته ، وقد قدم عليكم أعدى خلق اللّه لكم ، من ولي عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي من قِبَلِهِ أُتِيتُمْ، والذي قَتَلَ مَنْ تنادون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدّكم وشوكتكم ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم ، إنّي لكم ناصح »[3] .

هذا الرأي الحصيف من عبد الله بن يزيد لم يرق لإبراهيم بن محمّد بن طلحة ، فقال : « أيّها النّاس ، لا يغرّكم من السيف والغشم مقالة هذا الداهن ، واللّه لئِن خرج علينا خارج لنقتلنّه ، ولَئِن استيقنّا أنّ قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذنّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، والحميم بالحميم ، والعريف بما في عرافته ، حتّي يدينوا للحقّ ، ويذلّوا للطّاعة ، فوثب إليه المسيّب بن نجبة ، فقطع عليه منطقه ، ثم قال : يا ابن النّاكثين ، أنْتَ تهدّدنا بسيفك وغشمك ؟أنت واللّه أذلّ من ذلك ، إنّا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدّك ، وأمّا أنت أيّها الأمير

(1) نفسه ، ج 4 ، ص80.
(2) مروج الذهب ، ج 3 ، ص 37.
(3) الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص81.

فقد قلت قولاً سديداً »[1] .

وحان الموعد الذي كان الشّيعة قد تواعدوه للمسير إلى قتال ابن زياد ، فاقترح عبد الله بن سعد بن نفيل أنْ يبدأوا بقتال قتلة الحسين مِمّنْ يسكن بالكوفة كعُمَرَ بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وغيرهم ، إلاّ أنّ سليمان ابن صرد رفض الإقتراح لأنّ المسؤولية الكبرى في قتل الحسين (ع) تقع على ابن زياد ، وعندما يقتل ابن زياد يسهل التخلّص من الباقين، وحاول عبد الله بن يزيد أنْ يثني سليمان عن المسير ، واقترح عليه البقاء حتى يستعدّ (أي عبد الله) فيواجهوا ابن زياد مجتمعين ، فرفض سليمان وأبى إلاّ المسير ، ومرّ بأصحابه على كربلاء ، فبكوا عند ضريح الحسين وتفجّعوا عليه ، ومضوا الى قتال ابن زياد ، فمرّوا بُزفَربن الحارث الكلابي ، فاقترح عليهم التحصّن معه في قرقيسيا ، فيواجهوا جيوش ابن زياد قوّةً واحدةً ، فأبى سليمان وقال : لقد رفضنا ذلك من أهل مصرنا ، فنصحهم وأرشدهم الى المكان المناسب للمعركة . وتدانى التوّابون من جيوش أهل الشّام ، فدعا جند الشّام التوّابين إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان ودعا التوّابون جند الشّام إلى خلع عبد الملك وتسليم عُبيد الله بن زياد ، ثم يُرَدّ الأمر إلى أهل البيت ، فرفض أهل الشّام ذلك ، وكانت المعركة في عين الورد ، واستبسل التوّابون في المعركة ، ولكنّ قلّتهم وندرة امداداتهم ، وكثرة جند الشّام والإمدادات الكبيرة لهم كانت من العوامل التي حسمت المعركة لصالح بن زياد وجيشه ، فاستشهد سليمان ومعظم أصحابه ، واستطاع رفاعة بن شدّاد أنْ ينسحب بالجرحى ومن قدّر له النجاة الى الكوفة ، وفي طريق العودة التقى بالمثنّى بن مخزبة العبدي في شيعة اهل البصرة ، وسعد بن حذيفة في شيعة المدائن ، فأخبرهم بواقع الحال ، فرجع الجميع الى الكوفة »[2] .

حركة المختار بن أبي عُبيد الثقفي

هو المختار بن أبي عُبيد الثقفي ، ولد عام الهجرة ، وكان أبوه من جلّة الصحابة ، استشهد في معركة الجسر لعهد عمر بن الخطّاب (رض) فلزم المختار

---

(1) نفسه ، ج 4 ، ص81.

(2) الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص86.

بني هاشم بعد وفاة أبيه ، وقدم مع عليّ(ع) العـراق وسكن البصرة بعـده[1] ، وقد اكتسب المختار شهرته التاريخيّة لسببين :

الأول : إنّه طلب بدم الحسين بن علي (ع) ونجح في ذلك .

الثاني : إنّه يُنْسَبُ إليه مذهب الكيسانيّة .

ما هي سيرةُ المختار قبل الطلب بثأر الحسين (ع)

لم يذكرِ التاريخُ عنه قبل وثوبه بالكوفة والطّلب بـدم الحسين ما يمكن اعتبـاره مأخذاً عليه إلاّ حادثتين : الأولى : رواية عن هرمز « أنّه حمـل مالاً من المـدائن من عنـد عمّه إلىّ علي (ع) فـأخرج كيسـاً فيه خمسـة عشر درهمـاً ، فقال : هـذا أجـور المومسات ، فقال له علي : مالي وللمومسات . . . ثم قال : ماله قـاتله اللّه لو شُقّ قلبه الآن لوُجِدَ ملآن من حبّ اللات والعزّى »[2] .

وقد فنّد عبد الواحد الأنصاري هذه الرّوايـة ورفضها لأسبـاب منها أنّ الـراوي مجهول ومتروك فلا يؤخذ رواية عنه . ولـو كان الحـديث صحيحاً فـلا يعقل أنْ يتهم علي رجـلاً بالوثنيّة عاش عيشةً إسلاميّةً ونشأ في أهلٍ مسلمين ، ولا ذنب لـه إذ لم يقم بجبـايـة هــذه الضـريبـة على اعتبـار أنّهــا جُبِيَتْ ، وإنمــا كُلِّفَ بحملهــا[3]

والحادثة الثانية « أنّ الحسن بن علي لما طُعِنَ في ساباط المدائن ، حُمِلَ إلى دار سعـد بن مسعود الثقفي عمّ المختـار ، فقال المختـار لعمّه : هـل لك في الغنى والشرف؟ قال له عمّه: وما ذاك؟ قال: تستوثق الحسن، وتستأمن به معـاوية، فقال له عمّه: عليك لعنة الله، أثب إلى ابن بنت رسول الله (ص) وأوثقه؟ بئس الرجل أنت».

ويعقّب الأنصـاري على هـذا الخبـر فيقـول : « لم يكشف لنـا ابن الأثيـر عن الرّاوي لهذه الحادثة التي لم تختلف عن سابقتها في الكذب والافتراء ، ولا شكّ من

---

(1) الاصابة في تمييز الصحابة ، ج 3 ، ص491-493.

(2) نفسه ، ج 3 ، ص 491-492.

(3) مذاهب ابتدعتها السياسة في الاسلام ، ص 77.

أنّ هذه الرواية من الروايات التي وُضِعَتْ لتشويه سمعة المختار والحطّ من شأنه في مجتمع الشّيعة ، وإبعاد الملتفّين منهم حوله ، يوم ثار بطلب دم الإمام الحسين مِمّن اشترك في قتله وقتل آله في كربلاء ، ورفع شعار إمامة آل الرسول »[1] .

ويذكر ابن الأثير أنّ الشّيعة ما زالت تسبّه وتعيبه حتّى خروج مسلم بن عقيل بالكوفة[2] ، وهل تنسى الشّيعة الوصمة التي وُصِمَ بها المختار إذا كانت حقيقةً واقعةً لمجرد أنّه همّ بنصرة ابن عقيل ؟ ثم أورد صاحب الإصابة أنّه « كان معدوداً في أهل الفضل والخير الى أنْ فارق ابن الزُّبَيْرِ »[3] ، وهذه العبارة تجعلنا أمام اعتبارين : إمّا أنّه بريء من التهم الموجّهة إليه قبل وثوبه بالكوفة ، فهو منْ أهل الخير والفضل ، وإمّا أنّ صاحب الإصابة يعتبر محاولة الغدر بسبط الرسول فضيلة يُحْمَدُ عليها المختار فهو في أهل الخير والفضل ، وهذا ما نستبعده قطعاً . فكل ما بأيدينا من الروايات المقبولة عقلاً تؤكد أنّه كان حسن السيرة قبل أنْ يطلب بدم الحسين بن علي ، وأمّا مارواه صاحب الإصابة والشهرستاني مثل « كان في أوّل أمره خارجيّاً ، ثم صار زُبَيْريّاً ثم صار زيديّاً ثم صار رافضياً[4]» على ما ذكره صاحب الاصابة أو كان « خارجياً ثم صار زُبيرياً ثم صار شيعيا وكيسانيا[5]» فمنطق الاحداث ينفي مثل هذه الروايات، فكيف يكون معدوداً في أهل الفضل ويكون خارجيّاً ؟ وكيف يكون زيديّاً والزّيديّة لم تُوجَدْ بعد ؟ ثم أيعقل أنْ يكون المختار خارجيّاً ويخفى أمره ، فلا يذكر في تاريخ الخوارج ؟

بروز المختار على مسرح الأحداث

« كان المختار في قرية تدعى (لغفا) ، فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر ، أنّه ظهر ، ولم يكن خروجه عن معياد . . . فأقبل المختار في مواليه الى باب الفيل بعد المغرب ، ـ وقد أقعد عُبيد اللّه بن زياد عمرَو بن حريث بالمسجد ومعه راية ـ فوقف

(1) نفسه ، ص78.

(2) الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص83.

(3) الاصابة في تمييز الصحابة ، ج 3 ، ص491-492.

(4) المرجع السابق ، ج 3 ، ص491-492.

(5) الملل والنحل ، ج 1 ، ص148.

المختار لا يدري ما يصنع ، فبلغ عمراً خبره ، فاستدعاه وأمّنه ، فحضر عنده ، فلمّا كان الغد ، ذكر عمارة بن الوليد بن عقبة أمره لعبيد اللّه فأحضره فيمَنْ دخل عليه ، وقال له : أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل ؟ قال : لم أفعل ، ولكنّي أقبلت ونزلت تحت راية عمرو ، فشهد عمرو بذلك فضرب وجهَهُ فشترعينه ، وقال : لولا شهادة عمرٍو لقتلتك ، ثم حبسه حتى قتل الحسين ، ثم إنّ المختار بعث إلى عبد الله بن عمر ـ وكان ابن عمر قد تزوج أخت المختار صفيّة بنت أبي عبيد ـ فكتب ابن عمر الى يزيد يشفع فيه ، فأرسل يزيد إلى ابن زياد يأمره بإطلاقه ، فأطلقه وامره أنْ لا يقيم غير ثلاث ، فخرج المختار الى الحجاز »[1] ونفسه تتميّز غيظاً على ابن زياد ، فلقيه وراء ابن العِرق ـ واقصه ـ فسلّم عليه ، « وسأله عن عينه ، فقال : خبطها ابن الزّانية بالقضيب ، فصارت كما ترى ، ثم قال : قتلني اللّه إنْ لم أقطع أنامله وأعضاءه إرباً إرباً ، ثم سأله المختار عن ابن الزّبير ، فقال : إنّه عائذ بالبيت وإنّه يبايع سراً ولو اشتدّت شوكته ظهر ، فقال المختار : إنّه رجل العرب اليوم ، وإن اتّبع رأيي أكفِه النّاس إنّ الفتنة أرعدت وأبرقت . . . فإذا سمعتَ بمكان ظهرتُ به في عصابة من المسلمين ، أطلب بدم الشّهيد المظلوم المقتول في الطّفّ ، سيّد المسلمين وابن بنت سيّد المرسلين وابن سيّدهما ، الحسين بن عليّ ، فوربكَ لاقتلنّ بقتله عدّة مَنْ قُتِل على دم يحيَى بن زكريّا »[2] ، فطَلَبُ المختار بدم الحسين لم يكن موقفاً عفويّاً او آنيّاً أو بإيحاء من أحد ، لقد صمّم المختار عليه منذ البداية ، يوم كان سجيناً في سجن ابن زياد ، وراح يفكّر بالأسلوب الذي يبلغه هذا الهدف ، « بايع ابن الزُّبير وبقي معه ، وقاتل معه جند يزيد بن معاوية ، واشتدّت نكاية المختار في تلك الحروب على أهل الشّام وجاء خبر موت يزيد ، ورجع جند الشّام واستقام الحجاز لابن الزُّبَيْر »[3] ، وحدثت مغاضبة بين المختار وابن الزُّبْير إذ كان المختار قد بايعه على شروط ، فلم ينفذها ابن الزبير ، فخرج المختار الى الكوفة « وبعث رسله الى شيعة الكوفة ونواحيها الى المدائن ودعاهم الى البَيْعَةِ له ، ووعدهم أنّه يخرج طالباً بثأر الحسين بن علي ،

(1) الكامل في التاريخ ، ج4 ، ص83.
(2)الكامل في التاريخ ، ج 4 ، ص84.
(3) الفرق بين الفرق ، ص 31.

ودعـاهم الى محمّد ابن الحنفيـة وزعم أنّ بن الحنفيّة قـد استخلفه وأنّـه قد أمـرهم بطاعته »[1] .

وهناك رواية أخري ذكرها المسعودي وابن الأثيـر ، وهي أنّ المختار قـال لابن الزُّبير « إنّي لأعلم قوماً لو أنّ رجلاً له فقهٌ وعلمٌ بمـا يأتي ويـذر لاستجمع لـك منهم جنداً تقاتل بهم أهل الشّام ، قال : مَنْ هم ؟ قال : شيعة عليّ في الكـوفة ، قـال : فكُنْ أنت الرجل »[2] .

فنحن أمـام روايتين تتناقض إحـداهما مـع الأخرى ، ومهمـا يكن من أمر فـإنّ المختار ذهب الى الكوفة ونظّم صفوف الشِّيعة بها وأخرج عامل ابن الزبير منهـا ، إذ « اجتمع إلى المختار مَنْ بايعه في السّر ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً ودخل في بَيْعَته عُبيد الله بن الحرّ ولم يكن أشجع منه في زمـانه ، وإبـراهيم بن مالـك الأشتر . . . فخرج به على والي الكوفة عبد الله بن مطيع وهو يـومئذ في عشـرين ألف ، ودامت الحرب بينهما أيّاماً ، ووقعت الهزيمة في آخرها على اليـزيديـة ، واستولى المختـار على الكوفة ونواحيها ، وقتل من كان بالكوفة من الذين قـاتلوا الحسين بكربـلاء »[3]

وأعطى المختار الأمـان لأشراف الكـوفة[4]، وبـايعوه بعـد أن خطب بـالنّاس ، فقال : « الحمد للّه الذي وعد وليّه بالنّصر وعدّوه بالخسر ، وجعلها فيهما آخـر الدهـر قضاء مقضيّاً ، ووعـداً مأتيّـاً ، يا أيّهـا الناس ، قـد سمعنا دعـوة الدّاعي وقبلنـا قول الدّاعي ، فكم من باغٍ وبـاغية ، وقتـلى بالـواعية ، فهلمّـوا عباد اللّه إلى بَيْعَـة الهدى ومجاهدة العدى ، فإنّي أنا المسلّط على المحلّين والطالب بثأر بن بنت خاتم النبيين »[5]، ويذكر بن الاثير أنّ البَيْعَة كانت » على كتاب اللّه ، وسنّة رسول اللّه ، والطّلب بـدماء أهـل البيت ، وجهاد المحلّين ، والـدّفع عن الضعفـاء »[6]. ويذكـر المسعـودي سبب الخلاف بين المختار وابن الزبير ، وهو أنّ المختار « ابتنى لنفسه داراً ، واتخذ بستاناً أنفق

(1) نفسه ، ص31-32.

(2) مروج الذهب ، ج 3 ، ص 85 وما بعدها .

(3) الفرق بين الفرق ، ص 32.

(4) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص110- 111.

(5) الفرق بين الفرق ، ص32.

(6) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص111.

عليه أموالاً عظيمةً أخرجها من بيت المال ، وفرّق الأموال على الناس تفرقةً واسعةً ، وكتب إلى بن الزُّبير يعلمه أنّه إنّما أخرج بن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسوم بن الزُّبير ان يكتب له ما أنفقه من بيت المال ، فأبى بنُ الزُّبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته ، وجحد بيعته »[1].

ثم يذكر أنّه قد كتب كتاباً إلى علي بن الحسين السّجّاد يزيده على أن يبايع له ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، فأنفذ إليه مالاً كثيراً ، فأبى علي أنْ يقبل ذلك منه ، أو يجيبه على كتابه ، وسبّه على رؤوس الملأ في مسجد النبي (ص) واظهر كذبه وفجوره ، ودخوله على الناس باظهار الميل الى آل أبي طالب ، فلمّا يئس المختار من علي ين الحسين ، كتب إلى عمّه محمّد بن الحنفيّة يريده على مثل ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين أنْ لا يجيبه إلى شيء من ذلك فإنّ الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم وتقرّبه إليهم بمحبتهم ، وباطنه مخالف لظاهره في الميل إليهم والتولّي لهم ، والبراءة من أعدائهم ، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه أنْ يشهر أمره ، ويظهر كذبه ، على حسب ما فعل هو . . . فأتى ابن الحنفيّة بن عبّاس فأخبره بذلك ، فقال له ابن عبّاس : لا تفعل فإنّك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزُّبير ، فأطاع ابن عبّاس ، وسكت عن عيب المختار »[2] .

فعلى هذه الرّواية يكون المختار قد لجأ الى محمّد بن الحنفية لجوء المضطر ، فهو لا يؤمن به ، و إنّما لجأ إليه لمّا يئس من علي بن الحسين وإنّي لأتساءل كيف يرسل الكتب والمال تارةً لعلي بن الحسين ، وتارةً لعمّه محمّد بن علي ، ثم يرسل رأس عُبيد اللّه بن زياد وقواد اهل الشّام بعد أنْ ظفر بهم ابن الأشتر إلى عبد الله بن الزُّبير على رواية المسعودي ؟[3] .

ولعل أغرب ما ورد في هذا السّياق حادثة ذكرها البغدادي وهي « رُفِعَ خبرُ المختار إلى ابن الحنفيةِ ، وخاف من جهته الفتنة في الدين ، فأراد القدوم إلى

(1) مروج الذهب ، ج 3 ، ص 21.
(2) نفسه ، ج 3 ، ص21-22.
(3) المرجع السابق ، ج 3 ، ص41-42.

العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته ، وسمع المختار ذلك ، فخاف من قدومه العراق ذهاب رياسته وولايته ، فقال لجنده : أنا على بَيْعَةِ المهدي ، ولكن للمهدي علامة وهو أنْ يُضْرَبَ بالسيف ضربةً فإنْ لم يقطع جلده فهو المهدي ، وانتهى قوله الى ابن الحنفيّة فأقام بمكّة خوفاً من أنْ يقتله المختار بالكوفة »[1] . وكأنّي بواضع هذا الخبر أراد أنْ يعلّل سبب عدم قدوم ابن الحنفيّة إلى الكوفة ، وسها عن باله أنّ المختار لم يدعْ لابن الحنفيّة بالذّات ، وإنّما دعا للرّضا من آل الرسول . ثم هل يدعو المختار لابن الحنفيّةِ في قوم يجهلون العربيّة ويجهلون علياً وأبناءه ، إنّ أهل الكوفة أعرف النّاس بعلي وبأبناء علي ، فابن الحنفيّة ليس نكرةً بالكوفة فلا يعرفه أحد حتّى يقيم عليه المختار الحجّة بضربةٍ بالسيف .

ويقول البغدادي أيضاً : « إنّ أهل الكوفة خرجوا على المختار لمّا تكهّن واجتمعت عليه السبابية مع عبيد أهل الكوفة »[2] ، فمن هم أهل الكوفة هؤلاء ؟ إنّهم بقايا الحزب اليزيدي الذي تكلّم عنه البغداي قبل ذلك .

وحاول المختار أنْ يَمْكُر بابن الزُّبير فأرسل جنداً إلى المدينة بحجّة معاونة ابن الزُّبير على جنود أهل الشّام ، وغايته محاصرة ابن الزبير بمكّة ، ففطن ابن الزبير لذلك وفشلت الخطّة[3] .

« ثم وقع بين ابن الزبير وابن الحنفية وابن عبّاس ما وقع ، لكونهما امتنعا عن المبايعة له فحصرها ومن كان من جهتهما في الشعب ، فبلغ المختار ذلك ، فأرسل عسكراً كثيفاً وأمّر عليهم أبا عبد الله الجدلي ، فهاجموا مكّة وأخرجوهما من الشعب فلحقا بالطّائف ، فشكر النّاس للمختار ذلك »[4] .

وروى المسعودي عن أحد المشاركين في إنقاذ ابن الحنفية فقال : وكان ابن الزُّبير قد عمد الى بني هاشم بمكّة فحصرهم في الشعب وجمع لهم حطباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد ، وفي القوم محمّد بن الحنفية ،

---

(1) الفرق بين الفرق ، ص 33-34.

(2) نفسه ، ص35.

(3) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص121-122.

(4)الاصابة في تمييز الصحابة ، ج 3 ، ص 492-493.

واستنفر أبو عبد الله الجدلي الرجال من قبـل المختار ، فنفـروا معه في أربعـة آلاف فارس ، فقال أبو عبد الله : هـذه خيل عـظيمة ، وأخـاف أنْ يبلغ ابن الزبيـر الخبر فيعجل على بني هاشم فيأتي عليهم ، فانتدب معه ثمـان مئة فـارس جريـدة خيل ، فما شعر ابن الزبير إلاّ والرّيات تخفق فوق رأسه ، فـأنقذوا بني هـاشم وقال لهم ابن الحنفيّة : لا تقتلوا إلاّ مَنْ قاتلكم ، فلمّا رأى ابن الزبير (تنمّرهم) لـه (وإقدامهم) عليه لاذ بأستار الكعبة وقال : أنا عـائذ بـالله »[1] ، وسار إبـراهيم بن مالـك الأشتر لقتال ابن زياد ، وذلك بعد وقعة السبيع ، وأوصى المختار إبراهيم بن مالك فقـال له : خذ عنّي ثلاثاً : خف الله في السـرّ والعلن ، وعجّل السيـر ، وإنْ لقيت العدوّ فناجزهم ساعة تلقاهم ، وفي سنة سبع وسبعين وقعت المعركة بين إبراهيم بن الأشتر وعُبيد الله بن زياد الذي كان قد سار في عساكر الشّام يؤمّ العراق ، فلمّـا انتهى إلى المـوصل التقى بـابن الأشتر على خيـل العراق من قبـل المختـار بـالخـازر . واتفق عُمَيْـرُ بن الحُبَاب مـع ابن الأشتر على الفـرار عن ميسرة ابن زيـاد ، ولم يكن لجنـد الشام كلام إلاّ ياشيعة المختـار الكذّاب ، يـا شيعة أبي تـراب ، وانتصر ابن الأشتـر وقتل ابنَ مرجانة عُبيدَ الله بن زياد والحصين بن نميـر وشرحبيـل بن ذي الكلاع وابن حوشب وعبد الله بن إياس السلمي وأشراف أهل الشّام ، ومَنْ غـرق بالنهـر من أهل الشّام كان أكثر مِمّنْ قُتِلَ بالسيف[2] .

وعاد مصعب بن الزّبير الى البصرة أميـراً بعد ابن القبـاع ، وخطب بـالنّاس ، فلقب نفسه بالجزّار[3] ، وبدأ من هرب من المختار من أشـراف الكوفـة يوم السبيـع يحرّضون مصعباً على قتال المختـار ، فأرسـل للمهلّب بالقـدوم عليه ، وأرسـل عبد الـرحمن بن مخنّث يثبّط النّـاس عن المختـار ، ويـدعـوهم في السـرّ إلى بَيْعَـةِ ابن الـزُّبيـر ، ودسّ إلى ابن أبي شُمَيط عبـد الله بن وهب الجشمي ، فقـال لـه : « إنّ المـوالي والعبيـد أولـو جـور عنيـد ، وإنّ معهم رجـالاً كثيـراً على الخيـل ، وأنت تمشي ، فمرهم ، فليمشوا معك ، فإنّي أتخوف أنْ يطيـروا عليها ويسلمـوك »[4] ،

(1) مروج الذهب ، ج 3 ، ص 23-24.
(2) نفسه ، ج 3 ، ص41-42.
(3)التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص130-131.
(4) نفسه ، ج 4 ، ص131.

فأمرهم أن يسيروا معه بعد أنّ ظنّ النصيحة من الجشمي ـ. فلمّا تدانى العسكران ، قال أحمد بن شُمَيط للعبّاد بن الحُصَين : «.إنّا ندعوكم إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله ، وإلى بَيْعَة المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرّسول ، فرجع عبّاد فأخبر مصعباً ، فقال له : ارجع فاحمل عليهم »[1] .

التقى الجيشان في حروراء ، فكانت بينهم حروب عظيمة ، فانهزم المختار وتحصّن بقصر الإمارة ، وكان يخرج كلّ يوم لمقاتلة مصعب ، فخرج ذات يوم ، فقتله رجل من بني حنفية، وأبى مصعب أنْ يعطى الأمان لِمَنْ بقي في القصر من أصحاب المختار ، فاستسلموا . فقتلهم جميعاً ، وكانوا نحو سبعة آلاف رجل ، يقول عنهم المسعودي : « كلّ هؤلاء طالبوا بدم الحسين ، وقتلوا أعداءه ، فقتلهم مصعب ، وسمّاهم الحسينيّة ، وتتبع مصعب الشّيعة بالقتل في الكوفة وغيرها ، وأتى بحرم المختار فدعاهنّ إلى البراءة منه ، ففعلْنَ إلاّ حرمتين له ، إحداهنّ بنت سمرة بن جندب الفزاري ، والثّانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري ، وقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربي اللّه ، كان صائماً نهاره ، قائماً ليله ، قد بذل دمه للّه ورسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول اللّه (ص) ، وأخبر مصعب اخاه بذلك ، فكتب إليه : إنْ رجعتا عمّا هما عليه ، وتبرأتا منه وإلاّ فاقتلهما ، فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سمرة ، ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لو دعوتني الى الكفر مع السيف لكفرت ، أشهد أنّ المختار كافر ، وأبت ابنة النعمان بن بشير وقالت : شهادة أُرْزَقُها فأتركها ، كلاّ ، إنّها موتة ثم الجنّة ، والقدوم على الرسول وأهل بيته ، واللّه لا يكون ، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب ؟ اللّهم اشهد ، أنّي متبعة لنبيّك ، وابن بنته وأهل بيته وشيعته ، ثم قدّمها فقُتِلَتْ صبراً »[2] ، ويَروى ابنُ الأثير أنّه بعث إلى أخيه « أنّها تقول : إنه نبيّ فأمره بقتلها »[3] .

(1) نفسه ، ج 4 ، ص132.

(2) مروج يالذهب ، ج 3 ، ص43-44.

(3) التاريخ الكامل ، ج 4 ، ص135.

الفصل الخامس
الخوارج

- نشأة الخوارج
- الازراقة
- النجدات العاذرية
- الصالحيّة

الخوارج

لقد عرّف الشهرستاني الخوارج بقوله : « كلّ من خرج على الإمام الحقّ الذي اتفقت عليه الجماعة يُسَمّى خارجيّاً ، سواء كان الخروج في أيّام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كلّ زمان »[1] .

وهذا التعريف على إطلاقه يدرج تحت اسم الخوارج جماعات كثيرة ، لم تتفق الكلمة على أنّهم من الخوارج . فالخوارج المعروفون بهذا الإسم في التاريخ : هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) في صفّين ، وأطلقوا كلمتهم المشهورة : لا حكم إلاّ اللّه . وكان لهم عليه مآخذ بعينها ، (سيأتي الحديث عنها فيما بعد) كذلك تطلق هذه الكلمة على كلّ الأفراد والجماعات الذين قالوا بقولهم في العصور اللاحقة .

نشأة الخوارج

لمّا كانت الحرب بصفين بين علي بن أبي طالب (ع) ومعاوية بن أبي سفيان ، ورُفِعَتْ المصاحف على أسنّة الرّماح ، خرج جماعة من أصحاب علي عليه وكان « أشدّهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين : الأشعث بن قيس الكندي ، ومسعّر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حُصَين الطّائي حين قالوا : القوم يدعوننا إلى كتاب اللّه ، وأنت تدعونا إلى السيف ، حتّى قال (ع) : أنا أعلم بما في كتاب اللّه ، انفروا إلى

---

(1) الملل والنحل : ج 1 ، ص 114

بقيّة الأحزاب ، انفروا الى من يقول : كـذب اللّه ورسولـه ، وانتم تقولـون : صدق الله ورسوله . قالوا : لتُـرْجِعَنّ الأشتر عن قتـال المسلمين ، وإلاّ فعلنا بـك مثل مـا فعلنا بعثمان . فاضطر إلى ردّ الأشتـر بعد أنْ هَـزَمَ الجمع وولـوا مدبـرين ، وما بقي منهم إلاّ شرذمة قليلة فيهم حشاشة قوّة ، فأمتثل الأشتر أمره »[1] .

وكان (رضي) يريد أنْ يبعث عبد الله بن عبّاس ، فلم يرضَ الخـوارج بذلـك وقالوا هو منك ، واضطروه إلى أنْ يبعث أبا موسى الأشعري « على أن يحكم بكتاب اللّه تعالى . فجرى الأمر على خلاف مـا رضي به . فلمّـا لم يرض بـذلك خـرجت الخوارج عليه ، وقالوا : لِمَ حكّمت الرجال ؟ لا حكم إلاّ اللّه »[2] .

ثم إنّ الخـوارج بعـد رجـوع علي (رضي) الى الكـوفـة ، « انحـازوا إلى حروراء ، وهـم يومئذ اثنا عشر ألفاً ، ولـذلك سميت الخـوارج حروريّـة ، وزعيمهـم يـومئـذ عبـد الله بن الكـوّا وشبث بن ربعي ، وخـرج اليهم علي (رض)ونـاظـرهـم وضحت حجّتـه عليهم ، فاستـأمن إليه ابن الكـوّا مع عشـرة من الفرسـان ، وانحـاز البـاقون منهم الى النهـروان ، وأمّـروا على أنفسهـم رجلين : أحـدهمـا عبـد الله بن وهب الراسبي والأخر حرقوص بن زُهَير البجلي ، المعروف بذي الثّدية »[3] .

وقتل الخوارج عبد اللّه بن حبّاب الأرث وولـده وجاريتـه أمّ ولده ، وعلم علي (رضي) بخبرهم ، فسار إليهم في أربعة آلاف من أصحابه ، فلمّا دنا منهم أنذرهم بتسليم قاتل عبد الله بن حبّاب ، فقالوا : « إنّا كلّنا قتله ، ولَئِن ظفرنا بك قتلنـاك ، فأتاهم علي في جيشه وبرزوا إليه بجمعهم ، فقال لهم قبل القتال : ماذا نقمتم منى ؟ فقالوا له : أول ما نقمنا منك أنّا قاتلنا بين يديك يوم الجمـل ، فلما انهـزم أصحاب الجمـل ، أبحت لنا مـا وجـدنـا في عسكـرهم من المـال ، ومنعت سبـي نسـائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مـالهم دون النساء والـذريّة ؟ فقـال : إنمـا أبحت لكم أموالهم بدلاً عمّا كانـوا أغاروا عليـه من بيـت مـال البصـرة ، قبل قـدومي عليهم . والنّساء والذريّـة لم يقاتلونـا وكان لهم حكم الإسـلام بحكم دار الإسلام ، ولم يكن

---

(1) نفسه : ج 1 ، ص114-115.

(2) نفسه ، ج 1 ، ص115.

(3) الفرق بين الفرق : ص 56 وما بعدها / انظر : الملل والنحل : ج 1 ، ص 115

منهم ردّة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق مَنْ لم يكفر ، ولو أبحت لكم النّساء ، أيّكم يأخذ عائشة في سهمه ؟فخجل القوم من هذا ، ثم قالوا له : نقمنا عليك محو امرة أمير المؤمنين على اسمك في الكتاب بينك وبين معاوية ، لما نازعك معاوية في ذلك ، فقال : فعلت مثل ما فعل رسول اللّه (ص) يوم الحُدَيْبِيّة حين قال سُهَيل بن عمرو : لو علمت أنّك رسولُ اللّه لَمَا نازعتك ولكن اكتب باسمك وباسم أبيك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد اللّه وسُهَيل بن عمرو ، واخبرني رسول الله (ص) أنّ لي منهم مثل ذلك ، فكانت قصّتي في هذا مع الأبناء قصّة رسول اللّه مع الآباء . فقالوا له : فلِمَ قلت للحكمين : إنْ كنت أهلاً للخلافة فأثبتاني ، فإنْ كنتَ في شكّ من خلافتك ، فغيرك بالشكّ فيك أولى ، فقال : إنّما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكمين : احكما لي بالخلافة ، لم يرضَ بذلك معاوية . وقد دعا رسول اللّه نصارى نجران إلى المباهلة ، وقال لهم تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنةَ اللّه على الكاذبين ، فأنصفهم بذلك من نفسه ، ولو قال : ابتهل ، فاجعل لعنة اللّه عليكم ، لم يرض النصارى بذلك . لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسي ولم أدرِ غدرَ عمرو بن العاص . . . قالوا : فلِمَ حكّمت الحكمين في حقّ كان لك ؟ فقال : وجدْتُ رسولَ اللّه قد حكّم سعد بن مُعاذ في بني قريضة ، ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضاً حكماً ، ؛ ولكنّ حكم رسول اللّه (ص) حكم بالعدل ، وحكمي خُدِعَ حتّى كان الأمر ما كان »[1] .

وإنّما أَوْرَدْتُ هذا النّصّ لأثبت ان الخوارج نقموا على عليّ أموراً بعينها ، بعضها قبل صفّين ، وهذه المناظرة التي كانت بين عليّ والخوارج ، أخرجت من صفوفهم نحو ثمانية آلاف ، وبقي أربعة آلاف ، أمّروا عليهم عبد اللّه بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير البجلي ، وكانت المعركة فلم ينجُ من الخوارج إلاّ تسعة أنفس ، منهم تَفَرَّقتْ فرق الخوارج[2] .

وكانت عقيدتهم تكفير عليّ وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومعاوية

(1) الفرق بين الفرق : ص 57-59.

(2) المرجع السابق : ص 57-59

وأصحابه ، وكلّ مَنْ رضي بالتحكم ، وكَفَّروا كذلك كلّ ذي ذنب ومعصية[1] ، وانقسم الخوارج على أنفسهم بعد ذلك وتفرقوا فرقاً عديدة سنتكلم عن ثلاث منها ، عملت على إشعال نار الثّورات على عبد اللّه بن الزُبَيْر ، ثُمّ على عبد الملك بن مروان ، الذي جاهدهم بولاته وجنوده بضع عشرة سنةً . وهذه الفرق هي : الأزارقة والنجدات والصالحيّة والشبيبيّة .

الأزارقة

والأزارقة نسبة إلى زعيمهم نافع بن الأزرق ، الذي خرج بأصحابه من البصرة الى الأهواز ، فغلبوا على نواحيها حتّى كرمان ، وقتلوا ولاة ابن الزُّبير وجبوا خراجها ، « كان مع ابن الأزرق من أمراء الخوارج : عطيّة بن الأسود الحنفي وعبد الله بن الماحوز ، وأخواه عثمان والزُّبير ، وعمرو بن عُمَير العنبري ، وقطرى بن الفجاءة المازني ، وعبيدة بن هلال اليشكري وأخوه محرز بن هلال ، وصخر بن حبيب التميمي ، وصالح بن مخراط العبدي ، وعبد ربّه الكبير ، وعبد ربّه الصغير ، في زهاء ثلاثين ألف فارس مِمَّنْ يرى رأيهم وينخرط في سلكهم »[2] .

فأرسل عامل ابن الزُّبير على البصرة عبد الله بن الحارث جيشاً لقتالهم بقيادة مسلم بن عبيس بن كريز ، فقتله الخوارج وهزموا أصحابه ، فأرسل لهم عثمان بن عبد اللّه بن معمّر ، فكان حظّه كسلفه ، ثم أرسل لهم حارثة بن بدر العتابي فلم يكن أسعد حظّاً من سابقيه . وخاف أهل البصرة على مصرهم من غارات الخوارج ، فكتب عبد اللّه بن الزُبير الى المهلّب بن ابي صفرة وكان على خراسان يأمره بحرب الأزارقة[3] .

رجع المهلّب الى البصرة ، فاختار منها عشرة آلاف دعمهم بعشرة آلاف من الأزد ، وواقع بهم الأزراقة ، فهزمهم بدولاب الأهواز وردّهم إلى الأهواز ، ومات نافع في أثناء ذلك فبايع أصحابه عبد اللّه بن الماحوز ، فأوقعه بهم المهلّب بالأهواز ، وقتل عبد اللّه بن الماحوز وأخاه عثمان في ثلاثمائة من أشدّ الأزراقة ،

---

(1) نفسه : ص61

(2) الملل والنحل : ج 1 ، ص118-119

(3) نفسه ، ج 1 ، ص119-120

واندحر الباقون الى أيدج ، فبايعوا قطريّ بن الفجاءة وسمّوه أمير المؤمنين ، ودامت الحروب بين المهلّب وبينهم زمناً انسحبوا بعدها إلى سابور من أرض فارس ، وجعلوها مقراً لهم ، واستمرّ المهلّب وأبناؤه في قتالهم ، فصمد لهم وصمدوا له ، حتّى وقع الشقاق بينهم ، فانفرد عبد ربّه الكبير في سبعة آلاف منهم وسار بهم حتّى جيرفت ، وانفرد عبد ربّه الصغير بأربعة آلاف وسار بهم الى ناحية أخرى من كرمان ، فنازل المهلّب قطريّاً فهزمه إلى كرمان ثم إلري ، وهاجم بعده عبد ربّه الكبير فقتله ، ونازل ابنه يزيد بن المهلّب عبد ربّه الصغير فقضى عليه ، وسيّر الحجّاج سفين بن الأبرد الكلبي الى قطريّ ، وكان قد انحاز الى طبرستان ، فقتله وفرّق أصحابه ، وكان عبيدة بن هلال اليشكري قد نزل حصن قوس وتحصّن فيها ، فحاصره ابن الأبرد وقتله وأصحابه(1) .

وتميّزت هذه الفرقة من الخوارج بأمور منها : تكفير عليّ وتصويب ابن ملجم (لعنة الله) ، وتكفير القعدة من الخوارج ومَنْ لم يهاجر منهم إليهم ، وإباحتهم قتل مخالفيهم بما في ذلك النّساء والأطفال ، وإسقاط بعض الحدود كحدّ الزّنى ، وحدّ القذف بالمحصنين من الرّجال مع إبقائه على قاذف المحصنات من النّساء . وإبطال القول بالتقيّة قولاً وعملاً ، وجوّزوا أنْ يرسل اللّه نبياً مع علمه بأنّه سوف يكفر بعد نبّوته ، أو كافراً قبل بعثته ، واجتمعوا على القول أنّ مرتكب الكبيرة كافر شأنه شأن الكّفار ولا يعدّ من المسلمين . ثم إنّهم عمدوا الى امتحان من قصدهم ، وذلك بدفع أحد الأسرى إليه ، فإنْ قتله كان منهم ، وإلاّ فهو كافر وجاز قتله(2) .

النجدات العاذريّة

هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي الذي خرج باليمامة ، وذُكِرَ أنّ افتراقه عن نافع كان بعد اجتماعه معه على عبد اللّه بن الزُّبير في مكّة ، فحرّم نافع التقيّة ، وكفّر القعدة من الخوارج . أمّا نجدة ، فإنّه جوّز التقيّة والقعود عن الجهاد ، وفضّل الجهاد على القعود ، فاتّجه نافع الى البصرة ونجدة الى اليمامة(3) .

---

(1) الفرق بين الفرق : ص 65-66/ انظر : الملل والنحل : ج 1 ، ص118-120

(2) الفرق بين الفرق : ص62 وما بعدها/ الملل والنحل : ج 1 ، ص120-122

(3) الملل والنحل : ج 1 ، ص125

وفي رواية أخرى أنّ نجدة خرج باليمامة وفي نيّته اللحاق بنافع ، فالتقاه أبو فديك وعطيّة بن الأسود في جماعة من أصحابهما ، فأعلماه بما أحدثه نافع من الأحداث وبايعوه وسمّوه أمير المؤمنين ، ثم انقلبوا عليه لأمور نقموها منها : العذر بالجهل ، إذ قال : « الدّين أمران ، أحدهما معرفة اللّه تعالى ومعرفة رسله (ص) ، وتحريم دماء المسلمين (يعني موافقيهم) والإقرار بما جاء من عند اللّه جملة ، فهذا واجب على الجميع والجهل به لا يعذر فيه ، والثّاني : ما سوى ذلك ، فالناس معذورون فيه إلى أنْ تقوم عليهم الحجّة في الحلال والحرام[1] » وتبعاً لهذا ، قال : إنّ مَنْ جوّز العذاب على المجتهد المخطيء في الأحكام قبل قيام الحجّة عليه ، هو كافر . واستحل نجدة بن عامر دماء وأموال أهل العهد والذّمّة في حال التقيّة ، وحكم بالبراءة مِمّنْ حكم بتحريمها ، وبعدم جواز البراءة من أصحاب الحدود من موافقيه ، وظنّ أنّ اللّه يعذبهم في غير جهنم ثم يدخلهم الجنّة ، وبالغ فاعتبر صاحب النظرة أو الكذبة الصغيرة كافراً إنْ أصرّ عليها ، وأنّ مَنْ زنى او شرب أو سرق غير مصرّ ، فهو غير كافر ، وأغلظ للنّاس في حدّ الخمر[2] .

وكان أصحاب نجدة قد أسروا امرأة من نسل عثما بن عفان (رض) فكتب له عبد الملك بن مروان بشأنها ، فاشتراها وردها عليه .

وأجمع النجدات على أنْ لا حاجة للنّاس بإمام قط ، وعلى النّاس أنْ يتناصفوا فإنْ رأوا حاجة للإمام جازت إقامته لهم . هٰذه الأمور دفعت أصحابه للنقمة عليه ، فاستتابوه ، فاظهر التّوبة ، لكنّ طائفة منهم اعتبرت أن لا حقّ لها في استتابة الإمام ولا حقّ له بالتّوبة ، وطلبت منه التّوبة من توبته ، فتاب منها ، عندئذ فارقه أبو فديك وعطيّة بن الأسود الحنفي ، واغتنم أبو فديك فرصة سنحت له وهي أنّ أصحاب نجدة بن عامر ذهبوا للغزو فوثب عليه فقتله ، ثم وقع الشّقاق بين عطيّة وأبي فديك ، فبرىء كلّ منهما من الآخر[3] .

وَوُفِّقَ قائد عبد الملك عبد الله بن عمر التميمي في حروبه مع أبي فديك ،

---

(1) المرجع السابق : ج 1 ، ص122-123 / الفرق بين الفرق : 166 وما بعدها .

(2) الملم والنحل : ج 1 ، ص124

(3) الفرق بين الفرق : ص 66 وما بعدها

فقتله ، وهزم أصحابه ، وتبع عطيّة بن الأسود الى سجستان فقضى عليه[1] .

الصالحية

نسبة الى صالح بن مسرح التميمي ، « وكان رجلاً ناسكاً . . . مصفّر الوجه ، صاحب عبادة . . . وكان له بدارا وارض الموصل والجزيرة أصحاب يقرئهم القرآن ويقصّ عليهم »[2] .

وكان شبيب بن يزيد الشيباني من أتباعه ، وصادف أن رأى عبد الملك بن مروان بالحجّ لسنة خمس وسبعين ، فهَمّ بالفتك به ، وبلغ عبد الملك ذلك فكتب الى الحجّاج بعد انصرافه من الحج ، فأمره بطلبهم[3] .

الدّعوة للخروج

وبينما « أصحاب صالح يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أدري ما تنظرون ؟ حتّى متى أنتم مقيمون ؟ هذا الحور قد فشا ، وهذا العدل قد عفا ، ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلاّ غلّواً وعتّواً وتباعداً عن الحقّ ، وجرأة على الربّ ، فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحقّ مثل الذي تريدون ، فيأتوكم فنلتقي ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفي أيّ وقت إنْ خرجنا نحن خارجون ، فتراسل أصحاب صالح ، وتلافوا في ذلك ، فبينا هم في ذلك إذ قدم عليهم المحلّل بن وائل اليشكري بكتاب شبيب (بن يزيد الشيباني). إلى صالح بن مسرّح يبايعه ، وينتظر إشارته ، ويحرّضه على الخروج فبعث اليه صالح أنّ أقبل علينا ، فلمّا قدم على شبيب كتابه بعث إلى نفر من أصحابه ، فجمعهم إليه ، ثمّ خرج حتّى قدم على صالح بن مسرّح بدارا ، فلمّا لقيه قال : اخرج بنا رحمك اللّه ، فواللّه ما تزداد السّنّة إلاّ دروساً . . . ووعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وسبعين ، واجتمعوا جميعاً عنده في تلك الليلة لميعاده »[4] .

---

(1) الملم والنحل : ج 1 ، ص 124

(2) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص215-216

(3) نفسه : ج 6 ، ص215

(4) نفسه ، ص 218-219

خرج صالح بن مسرّح بأصحابه ، وواقع قواد الحجّاج في معارك عدة أصيب في إحداها بجراحة مميتة ، وذلك في قصر جلولاء ، فاستخلف على أصحابه شبيب بن يزيد الشيباني المكنّي بأبي الصحارى[1] ، وذكر البغدادي : « أنّ شبيباً في ابتداء أمره قصد الشام ، ونزل على روح بن زنباع ، وقال له : سل أمير المؤمنين أن يفرض لي في أهل الشرف ، فإنّ لي في بني شيبان تبعاً كثيراً ، فسأل روح بن زنباع عبد الملك بن مروان ذلك ، فقال : هذا رجل لا أعرفه ، أخشى أنْ يكون حرّورياً ، فذكر روح لشبيب أنّ عبد الملك بن مروان ذكر أنّه لا يعرفه ، فقال : سيعرفني بعد هذا ، ورجع إلى شيبان ، وجمع من الخوارج الصالحيّة مقدار الف رجل ، استوى بهم على ما بين كسكر والمدائن ، فبعث الحجاج إليه بعبيد اللّه بن أبي المخارق المتنبيّ في ألف فارس ، فهزمه شبيب ، فوجّه إليه عبد الرحمٰن بن محمّد ابن الاشعث ، فهزمه شبيب . وبعث إليه بعتّاب بن ورقاء التميمي ، فقتله شبيب ، وما زال كذلك حتّى هزم للحجّاج عشرين جيشاً في مدّة سنتين »[2] .

ثم إن شبيباً أغار على الكوفة ليلاً في ألف من أصحابه ورافقته زوجته غزالة وأمّه جُهَيرة في مئتين من نساء الخوارج ، قد اعتقلن الرماح وتقلدن السيوف ، ودخل جامع الكوفة ، وخطبت غزالة على منبره وهرع الحجاج إلى قصره فتحصّن فيه . وصلى شبيب بأصحابه في المسجد ، وقرأ في ركعتي الصبح سورتي البقرة وآل عمران .

وصلت الإمدادات للحجّاج ، ودارت رحى المعركة في سوق الكوفة ، فانهزم شبيب إلى الأنبار ، ثمّ إلى الأهواز ، ولاحقه سفين ابن الأبرد الكلبي ، فنزل على شطّ الدجيل ، وركب شبيب ليعبر الجسر إليه ، فأمر سفين أصحابه فقطعوا حبال الجسر ، فسقط شبيب وفرسه في النهر ، فقال له أحد أصحابه : أغرقاً يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذلك تقدير العزيز العليم[3] ، فبايع أصحابه غزالة ، وعبر بن الأبرد الجسر إليهم ، فقُتِلَتْ غزالة وهُزِمَ أتباعها .

---

(1) الململ والنحل : ج 1 ، ص127-128

(2) الفرق بين الفرق : ص 89-90

(3) نفسه ، ص 90-91

الباب الثاني

- نسب عبد الملك ونشأته في المدينة قبل توليه الخلافة.
- سيرة عبد الملك في خلافته.

الفصل الاول
عبد الملك بن مروان

- نسبه
- القابه
- مولده

نسبه

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم[1] بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس ، وكنيته أبو الوليد[2] وهو أول من سميّ في الإسلام بعبد الملك[3] . وأمّه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن جبي العاص بن أميّة[4] ، وله يقول بن قيس الرّقيّات[5] .

أنتَ ابنُ عائشةَ التي فَضُلَتْ أروم نسائِهَا
لم تَلْتَفِتْ لِلَذّاتِها وَمَضَتْ على غلوائِهَا

ألقابه

كان يُلَقّب بأبي الأملاك ، لأنّه أبو أربعة من خلفاء بني أميّة ، تعاقبوا على

(1) أسْلم الحكم ابن أبي العاص عام الفتح ، ونفاه الرسول (ص) إلى الطّائف لأنّه كان يتجسّس عليه ، ورآه النبي (ص) بوماً يمسني وينلحلج في مشيه كأنه يحكيه ، فقال له : كن كذلك ، فما زال حتى توفي النبي (ص) . كلّم عتمان في رده أبا بكر ، لأنه عمه ، فلم يفعل . فلما توفي ابو بكر (رض) وولى عمر (رض) كلّمه أيضاً في ردّه فلم يفعل ، فلمّا ولي عثمان ، ردّه ، وقال : « إنّ رسول الله وعدني أنْ يردّه الى المدينة . وقد رُوِيْت أحاديت كثرة في لعنة ولعن من في صلبه « التاريخ الكامل : ج 4 ، ص94

(2) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص 390

(3) تاريخ بغداد : ج 10 ، ص 390

(4) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 223 ، تاريخ اليعقوبي : ح 2 ، ص320

(5) الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص399-400/ العقد ؛ ج 5 ، ص 138-139

الخلافة ، هم : الوليد وسليمان ويزيد وهشام[1] . وكان يُلَقَّب أبا الذّباب ، ويقال الذبان لانه كان أبخر الفم دامى اللثة ، فيقع الذّباب عليها[2] .

، له يقول ابن حزابة :

أمسى أبو ذبّان مخلوع الرّسن خلع عنان قارح من الحصن

وقد صفت بيعتنا لابن حسن[3]

وكان يُقال له ولأبناء أبيه « بنو الزّرقاء ، يقول ذلك مَنْ يريد ذمّهم وعيبهم ، وهي الزّرقاء بنت موهب ، جدّة مروان بن الحكم لأبيه ، وكانت من الروايات التي يُسْتَدَلّ بها ـ متّهمة بالبغاء ـ ولهذا كانوا يُذَمّون بها ، ولعلّ هذا كان منها قبل أن يتزوّجها أبو العاص بن أميّة والد الحكم ، فإنّه من أشراف قريش »[4] .

مولده

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة وقد اضطربت المصادر في تأريخ مولده اضطراباً كبيراً .

فابن سعد في طبقاته الكبرى يذكر أنّ مولده كان سنة ست وعشرين[5] وابن عبد ربّه يذكر في مولده أنّه ولد سنة ثلاث وعشرين ، ثم يقول ويقال : سنة ست وعشرين ، ثم يذكر أنّه مات وله من العمر ثلاث وستون عاماً[6] .

ويذكر البغدادي أنّه ولد ويزيد بن معاوية سنة وست وعشرين ويتّفق مع أبي الفداء في نقل هذه الرواية ، وينقل ثلاث روايات في تقدير عمره حين مات ، الرواية الاولى : أنّ عمره يوم مات سبع وخمسون سنة والثّانية واحدة وستون سنة ، والثالثة : أربع وستون سنة[7] .

(١) في العقد طبعة احمد امين وزملائه : ج 398,4 a وما بعدها : ومشت على غلوائها

(2) العقد : ج 5 ، ص 138-139

(3) العقد : ج 7 ، ص 93

(4) الحيوان : ج 5 ، ص 381-382 / فوات الوفيات : ج 2 ، ص 31

(5) الطبقات الكبرى : ج 5 ، ص 224

(6) العقد : ج 5 ، ص 138-139

(7) تاريخ بغداد : ج 10 ، ص388-389 البداية والنهاية ج 9 ، ص 61 ـ 69

أمّا أبو الفدا إسماعيل صاحب كتاب المختصر في تاريخ البشر فقد قال : بلغ عمره ستين سنةً[1] ويقرن محمّد الكتبي ولادته بجلوس عثمان بن عفّان (رض) للخلافة[2] ، ويورد ابن الأثير في عمره روايتين : في الأولى أنّ عمره ستون سنة وفي الأخرى ثلاث وستون سنة[3] .

وروى المسعودي أنّ عمره بلغ ستاً وستين سنةً ، قال : وقيل أكثر[4] وذكر الطبري أنّ مولده كان سنة ست وعشرين ، ثم ذكر في تقديره عمره ثلاث روايات ، الأولى : ستين سنةً ، والثّانية : ثمان وخمسين سنةً ، والثّالثة : ثلاث وستين سنةً[5]

ونجد عدّة من هذه المصادر تتفق على أنّه شهد الدّار مع أبيه وهو ابن عشر سنين[6] ، ويوم الدّار كان سنة ست وثلاثين[7] .

فإذا حذفنا عشر سنوات لوافق سنة ست وعشرين هجرية سنة ست مئة وست وخمسين ميلادية .

وإذا أنعمنا النّظر في هذه المصادر لوجدنا أنّ ابن الأثير لم يرجّح رواية على أخرى . وأبو الفداء مع أنّه يذكر أنّ ولادته كانت مع يزيد في سنة ست وعشرين ، نجده عندما يقرّر عمره ، ينقل الرواية التي يجدها ، وإنْ لم تتفق مع ما أعلنه عن يوم ميلاده[8]. ويرجّح الطبري مولده لسنة ست وعشرين . والبغدادي كذلك لأنه رجّح أنّ عمره كان إحدى وستين سنةً ، بينما العِقد يرجّح أنّ ولادته كانت سنة ثلاث وعشرين لأنّه يقدّمها ، ثم يذكر أنّه مات وله ثلاث وستون سنة .

---

(1) المختصر في تاريخ البشر : ج 2 ، ص111-116
(2) فوات الوفيات : ج 2 ، ص31
(3) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص249
(4) مروج الذهب : ج 3 ، ص36
(5) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص419
(6) ابو الفداء والطبري والكتبي في المراجع السابقة وابن سعد في طبقاته .
(7) تاريخ العرب : ج 1 ، ص236
(8) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

وإذا سلّمنا مع الكتبي أنّه ولد يوم جلوس عثمان للخلافة ، فتكون ولادته سنة أربع وعشرين هجرّية[1] إلا أنّه يعود عن هذه الرواية عندما يذكر : أنّه شهد الدار مع أبيه وله عشر سنين ، فيرجّح بذلك سنة ست وعشرين . وابن سعد يقطع بأنّ مولده ، كان سنة ست وعشرين وهو أقرب هذه المصادر لعهد عبد الملك والزركلي يجعلها سنة ست وعشرين ، وبهذا يمكننا أنْ نرجّح أنّ ولادته كانت سنة ست وعشرين في شهر رمضان[2] ، ويقال : إنّه ولد لسبعة أشهر[3] ونشأ بالمدينة[4] .

نشأة عبد الملك بن مروان

نشأ عبد الملك بن مروان بالمدينة المنوّرة ، وكان أبوه على الخاتم لعهد عثما بن عفان (رض) وشهد يوم الدّار مع أبيه وله عشر سنين[5] ، وكان والياً للمدينة لعهد معاوية بن أبي سفيان وله ست عشر سنةً[6] ، وعمل كاتباً على ديوان المدينة لعهد معاوية أيضاً[7] .

وإذاً ، فقد عاصر الفتنة الأولى في الإسلام ، وعاصر حرب علي (رض) ومعاوية ومأساة كربلاء ، وفتنة بن الزُّبير وهو الذي قضى عليها ، وقد نشأ متعبّداً ، « وسمع من عثمان بن عفّان ، وهو مِمَّنْ سار بالنّاس في بلاد الرّوم سنة اثنتين وأربعين ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والصلحاء والعبّد ، وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأمّ سلمة وبربرة مولاة عائشة ، وروى عنه جماعة منهم : خالدبن معدان ، وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ، ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان »[8] .

---

(1) تاريخ العرب : ج 1 ، ص235

(2) الاعلام : ج 4 ، ص312

(3) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص249

(4) عيون الاخبار : ج 3 ، ص258/ الكامل في اللغة والادب : ج 2 ، ص147-148
العقد : ج 5 ، ص 138-139/ تاريخ بغداد : ج 10 ، ص390
فوات الوفيات : ج 2 ، ص31/ البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

(5) هامش الكامل لابن الاثير : ج 1 ، ص285

(6) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 224-225/ فوات الوفيات : ج 2 ، ص31

(7) المحبر : ص 377/ طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص234/ تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص 180

(8) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

وعنه قال الحافظ الدمشقي صاحب ميزان الإعتدال : « أنّى له العدالة وقد سفك الدّماء وفعل الأفاعيل »[1] .

« كان عبد الملك قبل الخلافة ، من الزّهّاد والفقهاء والملازمين للمسجد التّالين للقرآن »[2] وقال نافع : « ولقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشدّ تشميراً ولا أفقه ، ولا أقرأ لكتاب اللّه من عبد الملك بن مروان . وقال الأعشى عن أبي الزّناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيّب ، وعروة بن الزُّبير ، وقُبَيْصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان ، قبل أن يدخل الإمارة »[3] .

وعن ابن عمر ، قال : ولد الناس أبناء ، وولد مروان أبا ـ يعني عبد الملك ـ ورآه يوماً ، وقد ذكر إختلاف النّاس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع النّاس عليه وقال عبد الملك : كنت أجالس بريد بن الخصيب ، فقال لي يوماً : يا عبد الملك ، إنّ فيك خصالاً ، وإنّك لجدير أن تلي أمر هذه الأمّة ، فاحذر الدّماء ، فإني سمعت رسول الله(ص) يقول : إنّ الرجل ليدفع عن باب الجنّة بعد أنْ ينظر اليها على محجمة من دم مسلم يريقه بغير حقّ »[4] .

وقد أثنى عليه معاوية وعمر بن العاص « إذ قال معاوية : ما أكمل مرؤة هذا الفتى (يعني عبد الملك) فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إنّه آخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقاً ثلاثة : إنّه أخذ بأحسن البشر إذا لقي ، وبأحسن الحديث إذا حدّث وبأحسن الإستماع إذا حُدّث ، وبأيسر المؤونة إذا خولف ، وترك من الكلام كلّ ما يعتذر منه »[5] .

« وقيل لابن عمر : إنّكم معشر أشياخ قريش توشكون أن تنقرضوا ، فَمَنْ نسأل بعدكم ؟ فقال : إنّ لمروان ابناً فقهياً فسلوه »[6] . « وسأل سعيدُ بن السميّب ابنَ ذمّل العذري ، قال : بلغني أنّك مدحت هذا ، وأشار بيده نحو الشّام ، يريد

(1) ميزان الاعتدال : ج 2 ، ص 153

(2) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69

(3) تاريخ بغداد: ج 10 ، ص 389/ تاريخ الكامل : ج 4 ، ص250-251

(4) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69

(5) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 422/522 /تاريخ بغداد : ج 10 ، ص389

(6) تاريخ بغداد : ج 10 ، ص 389

عبد الملك ، قال : نعم يا أبا محمّد قد مدحته ، أفتحب أنْ تسمع القصيدة ؟ قال : نعم أجلس ، فأنشده ، حتى بلغ قوله :

فمــا عــابتــك في خلق قُــرَيْش   بيثــربَ حــين أنــت بهــا غــلام

فقال سعيد : صدقت ولكنّه لمّا صار الى الشام بدّل »[1] .

« وقال سعيد بن داود الـزُّبيري عن مـالك عن يحيى بن سعيـد ، قال : كـان أول مَنْ صلّى ما بين الظّهر والعصر عبـد الملك بن مروان وفتيـان معه ، فقـال سعيد ابن المسيّب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصّوم ، وإنّما العبادة التفكّر في أمر اللّه والورع عن محارم اللّه »[2] وقال الشّعبي : « ما جالست أحداً إلاّ وجدت لي الفضل عليه إلاّ عبد الملك بن مروان ، ما ذاكـرته حـديثاً إلاّ زادني منـه ولا شعراً إلا زادني فيه »[3] .

« وكتب معـاوية الى مـروان وهو نـائبه على المـدينة سنـة خمسين : أنْ ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة الى بلاد المغرب مع معاويـة بن خديـج ، فذكـر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً »[4] .

« وقـال عبد الملك : « لقـد كنت أمشي في الزّرع فـأتقي الجندب أن أقتله ، وإنّ الحجّاج ليكتب إليّ في فئام من النّاس فما أحفـل بذلـك ، وقيل لـه : وقد أمر بضرب اعناق الاسراء- أقستك الخلافة يـا أمير المؤمنين ، وقـد كنت رؤوفاً ، قـال ، كلاّ ، ما أقستني ولكن أقساني احتمال الضّغن على الضّغن »[5] .

وكـان من أكثر النّـاس علماً وأبـرعهم أدباً وأحسنهم في شبيبتـه ديانـة ، فقتـل عمـرو بن سعيـد وتسمّى بـالخلافـة ، فَسُلّم عليـه اول تسليمـة والمصحف في يـده فأطبقه ، « وقال : هذا فراق بيني وبينك »[6]

(1) نفسه : ج 10 ، ص 93 .
(2) انظر طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 232-233 / فوات الوفيات : ج 2 ، ص31
(3) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص250-251/ البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69
(4) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69
(5) الحيوان : ج 5 ، ص 591
(6) الكامل في اللغة والادب : ج 3 ، ص 147-148/ تاريخ بغداد : ج 10 ، ص 390

« ونُسِبَ حـديث للرّسـول عليـه السّـلام ، قـال : إذا بلغ بنـو الحكم ثـلاثين اتّخذوا مال اللّه بينهم دولاً ، وعباد اللّه حولاً ، وكتـاب اللّه دغلاً ، فـإذا بلغوا ستـةً وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة ، وأنّ رسول اللّه (ص) ذكر عبد الملك بن مـروان ، فقـال : أبـو الجبـابـرة الأربعـة »(1) وقـد ضعّف العلمـاء هــذه الأحاديث وطرق إسنادها . وأظنّ أنّها حيكت لخدمة فرض سياسي واضح .

« وذكر رجل عبد الملك ، فقال : إنّه لآخذ بأربع ، تارك لأربع ، آخذ بأحسن الحـديث إذا حـدّث ، وبـأحسن الإستمـاع إذا حُـدّث ، وبـأحسن البشـر إذا لقي ، وبأيسر المؤونة إذا خولف ، وكان تاركاً لمحادثة اللئيم ، ومنـازعة اللجـوج ، ومماراة السّفيه ، ومصاحبة المأفون[1] »(2) .

« واجتمع عبد اللّه بن عمر وعروة بن الزُّبير ومصعب بن الزُّبير وعبد الملك بن مـروان ، بفناء الكعبـة ، فقال لهم مصعب : تمنـوا ، فقالـوا : ابدأ أنت ، فقـال : ولاية العراق وتزوّج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، فنال ذلك وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم وجهزّها بمثلها . وتمنّى عروة بن الزُّبير الفقه وأنْ يُحْمَـل عنه الحديث فنال ذلك ، وتمنّى عبد الملك الخلافة فنالها . وتمنّى عبد اللّه بن عمر الجنّة »(3) .

ونستطيع من خلال هذا الخبر ، أن ندرك همّة عبد الملك وطموحه ، وما كان يصبو إليه في شبابه . وكان يقدّر أقـرانه حقّ قـدرهم لا يبخسهم حقوقهم ، فعنـدما دخل عبد الملك وعروة بن الزُّبيـر بستانـاً لعبد الملك ، قـال عروة : مـا أحسن هذا البستان ، فقال لـه عبد الملك : أنت واللّه أحسن منـه ، إنّ هذا يؤتي أكله كـلّ عام وأنت تؤتي أكلك كلّ يوم »(4) تنويهاً بعلم عروة وتقديراً منه لهذا العلم .

« وذكر عند معاوية ، فقال : هو آخذ بثلاث ، تارك لثلاث : آخذ بقلب النّاس

(1) البداية والنهاية : ج 8 ، ص 259
(2) عيون الاخبار : ج 4 ، ص 8
(3) نفسه : ج 3 ، ص 258
(4) العقد الفريد : ج 2 ، ص82

[1] المأفون : صعيف الرأي .

إذا حدّث ، ومحب الإستماع إذا حُدّث ، وآخذ بأيسر المؤنة إذا خولف . تارك للممارة ، تارك للغيبة ، تارك لما يعتذر منه »[1] .

« وكان يُسَمّى حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة ، فلمّا أفضت إليه شرب الطّلا[2] ، وقال له سعيد بن المسيّب : بلغني يا أمير المؤمنين أنّك شربت الطلا ، قال : أي واللّه ، وقتلت النّفس »[2] .

ولعلّنا نسترشد بقول عبد الملك لمؤدّب ولده على الثّقافة التي كانت سائدة والتي يمكن ان يكون عبد الملك نفسه قد نهلها في مستهلّ حياته ، وإنْ لاحظنا أنّ تحصيله للمعرفة ودأبه على تغذية ثقافته لم ينقطع حتّى بعد أنْ حصل على الخلافة ، قال « علّمهم الصّدق كما تعلّمهم القرآن، وجنّبهم السّفلة ، فإنّهم أسوأ الناس رعة[3] وأقلهم أدباً وجنّبهم الحَشَم فإنّهم مَفْسَدة ،وأحفَ[4] شعورهم تغلُظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقورا ، وعلّمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ومرهم أن يستاكوا عرضاً ، ويمصّوا الماء مصّاً ولا يعبّوه عباً ، وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب ، فيكن ذلك في سِتر ولا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليه »[3] .

ويخبرنا ابن كثير عن انتقاله إلى الشّام ، فيقول : « ولم يزل عبد الملك مقيماً بالمدينة ، حتّى كانت وقعة الحرّة ، واستيلاء ابن الزُّبير على بلاد الحجاز ، فأجْلِيَ بنو أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه الشّام ، ثم صارت إليه الإمارة مع أبيه ، وبايعه أهل الشّام ، فاستقلّ عبد الملك بالخلافة ، في مستهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع النّاس عليه بعد مقتل ابن الزُّبير سنة ثلاث وسبعين ، في جمادى الأول إلى سنة ست وثمانين »[4] وهي سنة وفاته .

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص 60
(2) العقد الفريد : ج 8 ، ص57
(3) عيون الاخبار : ج 5 ، ص 167/ البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69
(4) نفسه : ج 9 ، ص 61-69

---

[2] الطلا : الخمر
[3] رعة : يقال : فلان كسيء الرعة إذا كان قليل الورع .
[4] أحفى الرجل رأسه أو شاربه . بالغ في قصّه

الفصل الثاني

- عبد الملك في سدّة الخلافة الأموية

عبد الملك في سدة الخلافة الأموية

بعد وقعة الحرّة ، واستيلاء ابن الزُّبير على الحجاز ، أُجْلِيَ بنو أميّة عن المدينة إلى الشّام ، وكان فيمن أُجْلِيَ مروان بن الحكم وبنوه ، واتفقت كلمة الأمويين وأشياعهم عليه ، فبايعوه في الجابيّة ، وقد خلص له الأمر في الشّام ومصر بعد جهود مضنية[1] .

وفي سنة خمس وستين أخذ مروان البَيْعَة لولديه عبد الملك وعبد العزيز وذلك بعد عودة عمرو بن سعيد من فلسطين ، وطرده ابن الزُّبير عنها . وقد تمّت البَيْعَة بتدبير حسّان بن بجدل الكلبي ومباركة منه[2] .

وتوفي مروان في رمضان من السّنة نفسها ، فجدّدت البَيْعة لعبد الملك بن مروان بدمشق ومصر وأعمالها ، وبذلك تمّت له البَيْعَةُ في البلاد التي كانت تحت سيطرة أبيه[3] . فلمّا سُلّم عليه بالخلافة ، كان يقرأ القرآن ، فألقاه ، وقال : « هذا آخر العهد بك »[4] . وشمّر للأمر ، فكان أهله ، وامتاز بصفات لم تكن عند مناوئيه ، ممّا سهّل له السبل لبسط سلطانه في كافّة أرجاء العالم الإسلامي . فأبناء الزُّبير لم يكونوا بدهائه ولا في حكمته ، وإنْ كان مصعب باذلاً للمال ، فأخوه عبد

---

(1) الاغاني : ج 1 ، ص13-14/ وانظر القيسية واليمنية في هذه الرسالة .

(2) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص 93/ البداية والنهاية : ج 8 ، ص 259

(3) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 226/ اليعقوبي : ج 2 ، ص 320

(4) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69 ، وفي بعض الروايات : هذا فراق ما بيني وبينك .

اللّه كان شحيحاً بخيلاً لا حيلة ولا دهاء لديه[1] .

ولكن إنْ يكنْ العالم الإسلامي ، قد أصبح عالماً مترامي الأطراف ، واسع الأرجاء ، وعبد الملك لا يحكم إلاّ الشّام ومصر ، كيف استطاع اقتلاع الصّخور من طريقه ، وتذليل العقبات التي اعترضته ؟

إنّ حزم عبد الملك وعلوّ همّته ، ورباطة جأشه ومعرفته في استعمال المال والسّيف قد أسهمت في حسم الصراع لمصلحته ، ناهيك عن اعتماده على رجال أشدّاء في الحرب أوفياء له مثل حسّان بن بجدل الكلبي وقبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع والحجّاج بن يوسف الثقفي عامل العراق الشهير[2] .

ولعلّ ما أورده المسعودي يصوّر شخصيّة عبد الملك السياسيّة ورباطة جأشه وتجرده وصبره وقال : « كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشّام فنزل بطنان ، ينتظر ما يكون من ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله وقتل من كان معه ، وهزيمة الجيش بالليل ، وأتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة ، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزُّبير ، ثم جاء خبر دخول نائل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزُّبير ، وسير مصعب بن الزُّبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الرّوم لاوى بن فلقط ، ونزوله المصيصة يريد الشّام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وأنّ عبيدها وأوباشها ودعّارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أنّ مَنْ في السّجن بدمشق ، فتحوا السّجن وخرجوا منه مكابرة ، وأنّ خيل الأعراب ، أغارت على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك من المفظعات في تلك الليلة ، فلم يُرَ عبد الملك في ليلة قبلها أشدّ ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ولا أثبت جناناً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسةً للملوك ، فترك إظهار الفشل وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الرّوم[3] . وسار إلى فلسطين ، فقتل نائل بن قيس ، ورجع إلى دمشق فنزلها »آ[4] .

---

(1) راجع فصل الحزب الزبيري من هذه الرسالة .

(2) انظر اليعقوبي : ج 3 ، ص25

(3)اليعقوبي : ج 2 ، ص321 ، لمّا أراد عبد الملك النهوض لنائل ابن قيس جاءه خبر بأنّ ملك الرّوم قد أناخ على المصيصة ، فكره قتاله ، وصالحه وحمل إليه أموالاً كثيرة حتى انصرف .

(4) مروج الذهب : 3 ، ص 42

ولما رأى عمرو بن سعيد ينافسه على السّلطة ، قتله غيلةً وغدراً(1) ، وهادن ملك الرّوم ، وصانع المردة في جبل لبنان ، ثم انقضّ عليهم ، فقتل أميرهم وبدّد جماعتهم(2) .

واستتبّ أمره في الشّام ، فأعدّ عدّة حربه ، وسار لمحاربة مصعب بن الزُّبير في العراق ، وبذل المغريات لأهل العراق ، فانفضّوا من حوله وأسلموه لقمةً سائغةً لعبد الملك ، فأستولى على العراق ، وبسط نفوذه على فارس ، ثم أرسل الحجّاج إلى مكّة ، فقضى على عبد اللّه بن الزُّبير ، وبذلك أعاد الوحدة السياسيّة للدولة الاسلامية سنة ثلاث وسبعين هجريّة(3) .

ويرى بثاقب بصره أنّ الخوارج لن يهدؤا ، ولا بدّ من قائد مجرّب محنّك يخضد[1] شوكتهم ولا خبرة لأحد في ذلك مثل المهلّب ، فولاه حربهم(4) .

واستأنف غزواته لأرض الرّوم ، وكان كثير التعهّد لولاته وقواده ، كثير المكاتبات لهم ، ومدّهم بالنّصح والتّوجيه ، وقد أوصى أميراً سيّره إلى أرض الرّوم ، فقال : « أنت تاجر اللّه لعباده ، فكن كالمضارب الكيّس[2] الذي إنْ وجد ربحاً تَجَرَ ، وإلّا تحفّظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتّى تحرز السّلامة ، وكن من احتيالك على عدّوك أشدّ حذراً من احتيال عدّوك »(5) .

وبلغه أنّ عاملاً من عماله قبل هديّة ، فأمر بإشخاصه ، وقال له : « أقبلت هديّة منذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيّتك على أفضل حل ، قال : أحب فيما سألتك عنه ، أقبلت هديّة منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال : لَئنْ كنت قبلت هديّة ولم تعوّض إنّك لئيم ، ولَئِنْ أنلت مهديك لا من مالك ، أو استكفيته ما لم يكن يُسْتَكْفَاه ، إنّك لجائر خائن ، ولَئِنْ كان مذهبك

(1) ولم يغدر عبد الملك بعمرو بن سعيد فحسب ، وإنّما غدر بأهل أرمينيا لما غزا الرّوم وأمّن أهلها ، فجمعهم بالكنائس وأحرقهم بالنّار . اليقوبي : ج 3 ، ص17

(2) انظر الصراع على الزعامة الأموية من هذه الرسالة .

(3) انظر الحزب الزبيري من هذه الرسالة .

(4) الكامل في اللغة والادب : ج 2 ، ص128-219

(5) العقد الفريد : ج 1 ، ص94

[1] يخضد : يكسر

[2] الكيّس . الفطنة والظرف ، ضد الحمق . حسن الثاني في الأمور واستنباط ما هو انفع .

أنْ تعوّض المهدي إليك من مالك وقبلت ما اتّهمك به عند من استكفاك وبسط لسان عائبك ، وأطمع أهل عملك ، إنّك لجاهل ، وفيمن أتى أمراً لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، نحّيناه عن عمله »(1) .

وكان عبد الملك حسن السياسةّ ، يقرّب النّاس إليه حتّى لو كانوا من غير شيعته ، كتقريبه لكثّير بن أبي جمعة(2) ، وقد حدّد بعد قتله لعمرو بن سعيد سياسته اذ قال : « إنّا نحتمل كلّ شيء إلاّ وثوب على منبر أو نصب راية »(3) .

وهذا الرّاعي ، عبيد بن حصين يقف بين يديه وينشد :

إنّي حَلَفْتُ على يَمِينٍ بـرّةٍ ... لا أكـذب اليومَ الخَليفـةَ قيـلا
مـا إنْ أتيتُ أبـا خُبَيْـبٍ وافـداً ... يـومـاً أرَدْتُ لبَيْعَتي تبـديـلا[1]
ولمـا أتيت نُجَيـدة بـن عـويمـر ... أبغي الهدى فيزيـدني تضليلا[2]
أزمـان قومي والجمـاعـة كـالـذي ... لَـزِمَ الـرّحـالـة أنْ تميـل مميـلا
كهـداهـد كسـر الـرمـاة جنـاحـه ... يـدعو بقـارعـة الشـريف هـديـلا
فـادفـع مـظالم عيّلت أبنـاءنـا ... عنّـا وأنقـذ شلونـا المـأكـولا
ولَئِنْ بقِيتُ لأدعَـونّ بـطعنـةٍ ... تدع الفرائص بالشريف قليـلا(4)

وينصرف عنه سالماً ، ويُـؤْتَى برجـال من الخوارج ، فينـاقشهم ويُجَاورهم ، ويعجب بجرأتهم وبمنطقهم ، ويردّ لهم حياتهم(5) .

ورغم جبروته وشدّته على مَنْ خالفه وكثرة مَنْ سفك دماءهم ، فقد كان يظهر إيماناً عميقاً في بعض الأحيان ، إذ أنفق ثلاثة عشرَ ديناراً لقـاء استخراج درهم وقـع في مـاء آسن ، ولمّا حُدَثَ في ذلك ، قـال : إنْ اسم اللّه عليه ، وكـاتبـه أنس بن

(1) البيان والتبيين، مختارات : ص 166/ مروج الذهب : ج 3 ، ص60
(2) زهر الاداب : ج 1 ، ص 353-354/ نفسه : ج 1 ، ص355-356
(3) طبقـات الشعراء : ص 123/الاغـاني : ج 8 ، ص30-31 ، ج 10 ، ص158 الامالي : ج 1 ، ص46-47/ اللالي : ص 190
(4) راجع خطبته في الصراع على الزعامة الاموية من هذه الرسالة .
(5) طبقات الشعراء ، ص 118-4,119 عيـون الاخبار : ج 4 ، ص 115-116

[1] أبو خبيب : عبد الله ابن الزبير .
[2] نجيدة بن عويمر: هو مجدة بن عامر صاحب النجدات من الخوارج وقد استعمل الشاعر التصغير للتحقير .

مالك ، فَرَقَّ رقّةً شديدةً وبعث بكلامٍ قارصٍ وقاسٍ للحجّاج وهدّده وتوعّده (1).

وكثيراً ما كان يقول لصحبه إذا سار الى بعض الأماكن سبّحوا بنا حتّى نصل مكان كذا ، وكبّروا بنا حتّى نصل مكان كذا . (2)

ويصفه الجاحظ في وقتٍ من أوقات صفائه : فيقول : « كان عبد الملك بن مروان سِنانَ قُرَيْشٍ وسَيْفَها رأياً وحزماً ، وعابدَها قبل أنْ يستخلف ورعاً وزهداً ، فجلس يوماً في خاصّته ، فقبض على لحيته فشمّها مليّاً ، ثمّ اجترّ نفسه ، ونفخ نفخةً أطالها ، ثم نظر في وجوه القوم ، فقال : ما أقول يوم ذي المسألة عن ابن أمّ الحجّاج ، وادحض المحتجّ على العليم بما طوته الحُجُب ؟ أمّا إنّ تمليكي له قَرَنَ بي لوعةً يحشها[1] الذكار ، كيف ، وقد علمت فتعاميت وسمعت فتصاميت ، وحمله الكرام الكاتبون ، واللّه لكأنّي إلْف ذي الظُّغن على نفسي ، وقد نَعَتِ الأيّام بتصرّفها أنفساً حُقّ لها الوعيد بتصرّم الدّول وما أبقت الشبهة للباقي متعلّقاً ، وما هو إلّا الغِلّ الكامن من النفس بحوبائها[2] والغيظ المندمل ؟ اللّهم أنت أوسع ، غير منتصر ولا معتذر . (3).

وكان إذا جلس للقضاء تمثّل ، أو أمر أحداً أن ينشد :

إنّا إذا مَالَتْ دَوَاعِي الهوى	وأنْصَتَ السّامِعُ للقائِلِ
واصْطَرَعَ النّاسُ بالبابِهِم[3]	نَقْضي بحِكْم عادلٍ فاصلٍ
لا نجعلُ الباطلَ حقّاً ولا	نَلْفُظُ دونَ الحقِّ بالبّاطِلِ (4)

وكتب للحجّاج في زمن ابن الأشعث : « إنّك أعزّ ما تكون باللّه أحوج ما تكون إليه ، وأذلّ ما تكون للنّاس أحوج ما تكون إليهم ، وإذا عزت باللّه فاعفُ له ، فإنّك به تعزّ ، وإليه ترجع »(5) .

(1) العقد الفريد : ج 5 ، ص272-274

(2) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

(3) العقد الفريد : ج 5 ، ص 260

(4) الاغاني : ج 19 ، ص 101

(5) العقد الفريد : ج 2 ، ص 38 (وفيه ان رجلا قالها لعبد الملك وقد امر بقتله)

[1] يحشها : يضرمها ويهيجها

[2] الحوب : الإثم .

[3] ألباب : مفردها لُب يعني العقل

وسأله أحدهم الخلوة ، فقال لأصحابه : « إذا شئتم تنحوا ، فلمّا تهيأ الرّجل للكلام ، قال له : إيّاك وأنْ تمدحني ، فأنا أعرف بنفسي منك ، أوتكذبني فإنّه لا رأي لكذوب أو تسعى لأحد إليّ ، وإنْ شئت أنْ أقيلك أقلتك[1] ، قال : أقلني فأقاله(1) .

وكان يقول للرّسول إذا قدم من الآفاق : « أعفني من أربع ، وقل ما شئت لا تطرني[2] ولا تجبني فيما لا أسألك عنه ، ولا تكذبني ولا تحملني على الرعية ، إنّهم إلى رأفتي ومعدلتي أحوج »(2) .

ولكن إنْ تأسّف لما يصنعه الحجّاج ، هل كفّ يده ؟ هل عاقبه على ما يفعله في عباد اللّه ؟ لا ، وإنّما سنر عمّا قريب يوصي أبناءه بالحجّاج ، لأنّه هو الذي قهر لهم الأعداء ومهّد لهم الملك ، إذ لم يعد الإسلام ولا المسلمون هم الغاية وإنّما الغاية الملك والسّلطان ، وكفّه عن دماء بني عبد المطّلب لم يكن لمكانهم من الرّسول (ص) وإنّما لما رآه بأمّ العين من مصير يزيد وملك يزيد ، فكتب الى الحجّاج : « جنّبني دماء بني عبد المطلّب ، فليس فيها شفاء من الحرب وإنّي رأيت بني حرب سُلِبوا ملكهم ، لما فتكوا بالحسين بن علي »(3) .

وعلى الرّغم من أنّه كان أوّل من غدر في الإسلام ، وأوّل من نهى عن الأمر بالمعروف ، وأوّل من نهى عن الحديث بحضرة الخلفاء . كان يظهر ميلاً شديداً للتقيّد بالمثل التي كانت في عصره ، فقد روى المبرد أنّ صاحب اليمن كتب إليه في زمن ابن الأشعث « إنّي قد وجهت إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ، ولم يُرَ مثلها قط ، فلما دخل بها عليه ، رأى وجهاً جميلاً وخلقاً نبيلاً ، فألقى إليها قضيباً كان في يده ، فنكست لتأخذه ، فرأى منها جسماً بهره ، فلمّا همّ بها ، أعلمه الآذن أنّ رسول الحجّاج بالباب ، فأذن له ، ونحىّ الجارية ، فأعطاه

(1) عيون الاخبار : ج 4 ، ص23
(2) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69
(3) العقد الفريد : ج 5 ، ص140-141

[1] أقاله من الأمر : اعفاه منه .
[2] من الإطراء

كتاباً من عبد الرّحمٰن بن الأشعث . . . ثم بات يقلّب كفّ الجارية ويقول : ما أفدت فائدة أحبّ اليّ منك . فتقول : ما بالك يا أمير المؤمنين ، وما يمنعك ؟ فقال : يمنعني ما قاله الأخطل ، لأنّي إنْ خرجت منه كنت الأم العرب :

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بإطهار

فما إليك سبيل أو يحكم اللّه بيني وبين عدو الرحمٰن ابن الأشعث[1] .

ودخل أرطأة بن سهيّة عليه ، فقال له : « كيف حالك يا أرطأة ، قال : ـ وقد كان أسنّ ـ ضعفت أوصالي ، وقلّ مالي ، وقلّ مني ما كنت أحبّ كثرته ، وكثر مني ما كنت أحبّ قلّته . قال : فكيف أنت في شعرك ؟ فقال : واللّه يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب ، وما يكون الشّعر إلاّ من نتائج هذه الأربع ، وعلى أنّي القائل :

رَأيْتُ المرءَ تَأكُلُهُ الليالي ... كَأكَلِ الأرضِ ساقِطَةِ الحديدِ
وما تبغي المنيّةُ حين تأتي ... على نفسِ ابنِ آدمِ من مزيدِ
وأعلمُ أنّها ستكرّ حتّى ... توفّي نذرها بأبي الوليدِ

فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل توفي نذرها بك ، ويلك مالي ولك ، فقال : لا تُرَعْ ، يا أمير المؤمنين ، فإنّما عنيت نفسي ـ وكان أرطأة يكنّى بأبي الوليد فسكن عبد المك ، ثم استعبر باكياً ، وقال : أمَا واللّه على ذلك لتلمنّ بي »[2] .

وقد أمر بهدم دار الإمارة بالكوفة لِمَا ذُكِرَ من استقبال الرؤوس فيها[3] .

وألقى رجل صحيفة بين يديه وخرج ـ وكان قد أذن للنّاس إذناً خاصاً ففتحها فإذا فيها : « بسم اللّه الرّحمن الرحيم ، يا أيّها الإنسان إنّ اللّه جعلك بينه وبين عباده ، فاحكم بينهم (بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل اللّه ، إنّ الذين يضلّون عن سبيل اللّه لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (ألا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين) (ذلك يوم مجموع له

---

(1)الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص160-161
(2) الاغاني : ج 11 ، ص140-141
(3) مروج الذهب : ج 3 ، ص53

النّاس وذلك يوم مشهود) (وما نؤخّره إلاّ لأجل محدود) إنّ اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ، (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وإنّي أحذرك يوم ينادي المنادى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) (ألا لعنة اللّه على الظالمين) . . . فتغيّر وجه عبد الملك ، فدخل دار حرمه ، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أيّاما »[1] .

وكتب زر بن حبيش لعبد الملك كتاباً في آخره « ولا يُطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك ، وأذكر ما تكلّم به الأوّلون :

إذا الرجال ولدت ولادها وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك ، قال : صدق زر ، لو كتب إلينا بغيرها كان أرفق »[2] . وكان يقول : « أنهى عن ذكر عمر ، فإنه مرارة للأمراء ، مفسدة للرّعيّة[3] وكان يجلس في حلقة أمّ الدرداء في مؤخرة المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغني أنّك شربت الطّلاء بعد العبادة والنسك ، فقال : أيْ واللّه والدّما أيضاً فقد شربتها[4]

وقيل لسعيد بن المسيّب : إنّ عبد الملك يقول إنّه يأتي السيئة أو الحسنة ، فلا يشعر بها فقال : « الآن تكامل موت قلبه »[5] .

وقال عبد الملك لثابت بن عبد اللّه بن الزُّبير لمّا دخل عليه : « أبوك ما كان أعلم بك حيث كان يشتمك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنّما كان يشتمني أنّي كنت أنهاه أنْ يقاتل بأهل المدينة وأهل مكّة ، فإنّ اللّه لا ينصر بهما ، وأمّا أهل مكّة ، أخرجوا النبي (ص) وأخافوه ، ثم جاءوا الى المدينة فآذوه حتّى سيّرهم - يعرّض بالحكم بن أبي العاص طريد رسول اللّه (ص) - وأمّا أهل المدينة فخذلوا عثمان

(1) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69
(2) نفسه : ج 9 ، ص61-69
(3) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69
(4) نفسه : ج 9 ، ص61-69
(5) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص250-251

حتّى قُتِلَ بين أظهرهم ولم يدفعوا عنه . قال له : عليك لعنة اللّه »[1] .

ولمّا وافت سنة خمس وثمانين ، هَمّ عبد الملك بخلع عبد العزيزبن مروان من ولاية العهد ، فامتنع عبد العزيز[2] ، وجرت بينهما مكاتبات في ذلك ، أمّا ما يذكر عن ذلك أنّ الحجّاج كان يتخوّف من عبد العزيز وتوسل عمران بن عصام العنزي ليذكر الوليد والولاية أمام عبد الملك ، فإنّنا وإنْ لم ننكر الرواية ، فإنّ أثرها لا بدّ أنْ يكون ضحلاً لولا مصادفة هوى في نفس عبد الملك[3] ، ومهما يكن من أمر ، فإنّ عبد الملك استشار أصحابه في ذلك ، فنهاه قبيصة بن ذؤيب عنه قائلاً : « إنّك باعث على نفسك صوت نعار » وحرّضه عليه روح بن زنباع قائلاً : « لو خلعته لما انتطح فيه عنزان » . وبات على نيّة خلعه ، فأتاه البريد بنعيه في الليل ، فاعترف لقبيصة ـ وكان هو الذي حمل إليه البريد ـ بما كان نوى ، واسترجع ، فقال قبيصة : « إن الرأي كلّه في الأناة ، والعجلة فيها ما فيها . فقال عبد الملك : ربّما كان في العجلة خير كثير ، رأيت أمر عمرو بن سعيد ، ألم تكن العجلة فيه خير من التأنّي ؟[4] ثم تمثّل بأبيات أحد الخوارج وجعل يرددها ويبكي :

يـا ايهـا المتمنّي أن يكـون فتـى ... مثـل ابن ليلى لقـد خلّى لك السبـلا

ان ترحل العيس كي تسعى مساعيه ... يشفق عليك وتعمل دون مـا عمـلا

لو سرت في النّاس أقصاهم وأقربهم ... في شقّـة الأرض حتّى تحسر الإبـلا

تبغي فتى فوق ظهر الأرض ما وجدوا ... مثـل الذي غيبـوا في بـطنهـا رجـلا

اعـددت ثلاث خـلال قد عـرفن لـه ... هل سُبّ من أحد أو سبّ أو بخلا[5]

ثمّ بعد وفاة عبد العزيز ، قال عبد الملك : « إنّ عبد العزيز رحمه اللّه قد مضى لسبيله ، ولا بدّ للنّاس من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدي ، قلت ـ والكلام لمحمّد بن يزيد ـ يا أمير المؤمنين ، سيّد النّاس ، وأرضاهم ، وأفضلهم الوليد بن عبد

(1) العقد الفريد : ج 4 ، ص103

(2) في تاريخ اليعقوبي : ج 2 ، ص334 . «ان عبد الملك طلب من الشعبي ان يزين لعبد العزيز خلع نفسه .

(3) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص 413-414

(4) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 233-234

(5) الاغاني : ج 14 ، ص153

الملك قال : صدقت وفّقك اللّه ، فَمَنْ ترى بعده ، قلت يا أمير المؤمنين ، اين تعدلها عن سليمان فتى العرب ؟ قال : وفّقت أما إنّا لو تركنا الوليد وإيّاها لجعلها في بنيه ، اكتب عهداً للوليد وسليمان من بعده » . فكتب العهد للوليد وسليمان ، وبايعهما وجعلهما وليي عهد المسلمين ، وكتب بَيْعَته لهما إلى البلدان ، فبايع الناس ، وامتنع سعيد بن المسيّب بالمدينة ، فجلد ستين سوطاً وطيف به وحبس[1]

ولمّا شارف عبد الملك على نهايته ، وُضع سماط بين يديه يوماً ، فقال لحاجبه « ائذن لخالد بن عبد اللّه بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين قال : فلأبيه عبد اللّه بن خالد بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين ، قال : فلخالد بن يزيد بن معاوية ، قال : مات . قال : لفلان وفلان حتّى عدّ أقواماً قد ماتوا ، وهو يعلم ذلك . . . فأمر برفع السّماط ، وأنشأ يقول :

ذهبت لداتي وانقضت أيّامهم وغبرت بعدهم ولست بخالد[2]

واستأذن قوم على عبد الملك بن مروان ، وهو شديد المرض ، فدخلوا عليه وقد استند الى صدر أحد الخصيان ، فقال لهم : « إنّكم دخلتم عليّ عند إقبال آخرتي وإدبار دنياي وإنّي تذكّرت أَرْجَى عمل لي ، فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل اللّه ، وأنا خِلْو من هذه الأشياء ، فإيّاكم وإيّا أبوابنا هذه الخبيثة أنْ تُطِيفُوا بها »[3] .

ولا أظنّه إلاّ بقي مشغوفاً بالخلافة حتّى وهو على سرير الموت وإلاّ لصنع صنيع معاوية بن يزيد ، فإنّه أبى أنْ يستخلف أحداً . أمّا أنْ يَنْهَى وينصح النّاس بعدم الطّواف على أبواب الملك ، ويعتقدها لولديه ، فهنا تبدو الحنكة والسياسة حتى في آخر لحظات حياته .

« وقِيَل لعبد الملك في مرضه : كيف تجدك ؟ قال أجدني كما قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أوّلَ مَرّةٍ وَتَرَكْتُم ما خَوّلْنَاكُمْ وراءَ ظُهُورِكُمْ)[4]

---

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص415-416

(2) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69

(3) التاريخ الكامل . ج 4 ، ص250-251

(4) نفسه : ج 4 ، ص250-5,251

« ولمّا احتضر سمع غسالاً يغسل الثّياب ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : غسّال فقال : يا ليتني كنت غسّالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ولم ألِ الخلافة ، ثم تمثّل :

لعمري لقد عمّرتُ في الملك برهةً ... ودانت لي الدّنيا بوقع البواتر
وأُعْطِيتُ حمر المال والحكم والنهى ... ولي سلّمت كلّ الملوك الجبابر
فأضحى الذي قد كان ممّا يسرّني ... كحكم مضى في المزمنات الغواير
فيا ليتني لم أُعْنَ بالملك ليلةً ... ولم أسعَ في لذّات عيش نواضر

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية عند موته[1] .

وقيل « لمّا احتضر عبد الملك ؛ أمر بفتح الأبواب من قصره،فلمّا فُتِحَتْ ، سمع قصّاراً بالوادي فقال: ما هذا؟ قالوا: قصّار. فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلمّا بلغ سعيد بن المسيّب قوله، قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرّون إلينا ولا نفرّ إليهم»[2].

وقيل « لمّا حضره الموت ، جعل يندب ويندم ، ويضرب بيده على رأسه ، ويقول : وددت أنّي كسبت قوتي بيوم واشتغلت بعبادة ربّيَ عزّ وجلّ وطاعته ، ثم دعا بنيه فأوصاهم ، ثم قال : الحمدُ للّه الذي لا يسأل أحداً من خلقه كبيراً أو صغيراً ، ثم أنشد :

فهل من خالد إمّا هلكنا ... وهل بالموت للباقين غار

وقال : ارفعوني ، فرفعوه حتى شَمّ الهواء ، وقال : يا دنيا ما أطيبك ، إنّ طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقير ، وإنّا كنّا بك لفي غرور ، ثم تمثّل :

إنْ تُناقِشْ يكنْ عذابك يا ربّ ... عذاباً لا طَوقَ لي بالعذابِ
أو تجاوز فانت ربّ صفوحٌ ... عن مسيءٍ ذنوبه كالتّرابِ

ويُرْوَى أنّ معاوية تمثّل بهذين البيتين أيضاً[3] .

---

(1) البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

(2) المصدر السابق : ج 9 ، ص61-69

(3) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص250-251

ويحقّ لعبد الملك أنْ يخشى الموت ، فقد قال عنه الحسن البصري « ماذا أقول في رجل الحجّاج سيّئةٌ من سيّئاته »[1] .

ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عند رأسخ تبكي ، فقال : كيف أمير المؤمنين ؟ قال : هو أصلح ، فلمّا خرج ، قال عبد الملك :

ومستخبرٌ عنّا يريد لنا الرّدى ومستخبرات والدّموعُ سواجمُ[2]

وذُكِرَ أنّ عبد الملك لمّا سأله الوليد خبره ، أنشأ يقول :

كم عائد رجلاً وليس يعوده إلّا لينظر هل يراه يموتُ[3]

وقيل إنّ عبد الملك نظر الى الوليد يبكي عليه عند رأسه ، فقال : يا هذا أتحنّ حنين الحمامة ؟[4] إذا أنا متّ فضعني في قبري ، وشمّر وائتزر والبس للنّاس جلد النّمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قُرَيْشاً ، وضع سيفك على عاتقك ، فَمَنْ أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومَنْ سكت مات بدائه ، ثم أقبل عبد الملك على جميع ولده ، فقال : يا وليد اتقِ اللّه فيما استخلفك فيه ، واحفظ وصيّتي ، وانظر إلى أخي معاوية ، فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمّد ، فأمّره على الجزيرة ، ولا تعزله عنها ، وانظر الى ابن عمّنا علي بن عبّاس ، فإنّه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحقّ فصل رحمه ، واعرف حقّه وانظر الى الحجّاج بن يوسف فأكرمه فإنّه هو الذي مهّد لك البلاد ، وقهر الأعداء ، وخلّص لكم الملك ، وشتّت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أمّ واحدة ، وكونوا في الحرب احراراً وللمعروف مناراً ، فإنّ الحرب لم تدنِ منيّة قبل وقتها ، وإنّ المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب للمحبّة ويذلّل الألسنة بالذّكر الجميل ، وللّه دَرّ القائل :

إنّ الأمور إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنقٍ وبطش مفندِ

---

(1) المختصر في اخبار البشر : ج 2 ، ص249

(2) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص249/وانظر مروج الذهب : ج 3 ، ص99-100 وفيه « ومشتغل عنا . . ومستعبرات والعيون سواجح »

(3) مروج الذهب : ج 3 ، ص99-100

(4) في بعض الروايات أتحن حنين الامة ، والاخرى : تعصر عينيك عصر الامة » .

عزّت ولم تُكْسَرْ وإنْ هي بُـدّدَتْ   فـالكَسْـرُ والتّـوهينُ للمتبـدّدِ

ثم قال : إذا أنا متّ ، فادعُ النّاس إلى بَيْعَتِـكَ ، فَمِنْ أبى فالسّيف ، وعليـك بالاحسان إلى أخواتك ، فأحبّهنّ وأكرمهنّ إليّ فاطمة ، وكان قد أعطاها قرطي مارية والدّرّة اليتيمة ، ثم قال : اللّهم احفظني فيها »[1] .

وكان عبد الملك يقول : « إنّي أخاف الموت في شهر رمضان فيه ولـدت وفيه فطمت وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع النّاس لي ، فمات في شوّال حين أمن الموت في نفسـه » وكان قـد مرض واشتـدّ مرضـه ، فقال بعض الأطبـاء : إن شـرب المـاء هلك ، فاشتدّ عطشه ، فقال : « يا وليد ، اسقني ماء » فـامتنع الـوليد ، فقـال لابنته فاطمة لتسقيه ، فمنعها الوليد ، فقال له : « لتـدعنّها أو لأخلعنّـك فقال الـوليد : لم يبقَ بعد هذا شيء ، فسقته ، فمات »[2] .

وكانت وفاته في النّصف من شوّال سنة ست وثمانين[3]، وقد نعته سعيـد بن المسيّب بأنّه فرعون زمانه[4] .

ولمّا توفي دُفن خارج باب الجابيّة ، وصلّى عليه الوليد فتمثّل سليمان :

فمـا كان قيس هلكـه هلك واحد   ولـكنّـه بنيـان قـوم تـهـدمـا

فقال الوليد : اسكت ، فإنّك تتكلّم بلسان الشيطان ، ألا قلت كما قـال أوس بن حجر :

إذا مقرمٌ[1] منّا ذَرَى[2] حَدّ نابه   تخمّط منّـا نـابٌ آخـر مفـرم[5]

توقيعات عبد الملك بن مروان :

وقّع في كتاب أتاه من الحجّاج ـ يشكـو إليه نفـراً من بني هاشم ويغـريه بهـم ـ

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص100

(2) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص249

(3) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص 235 وما بعدها .

(4) تاريخ اليعقوبي : ج 3 ، ص26

(5) التاريخ الكامل . ج 4 ، ص249-250

---

[1]المقرم : من القرْم الفحل اد تُرِك عن الركوب والعمل ، السيد العظيم .

[2] ذرا وذرى : يقال ذرت الريح التراب إذا بددته .

« جنّبني دماء بني عبد المطّلب ، فليس فيها شفاء من الطّلب » . « وكتب إليه الحجّاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل أشرافهم ، فوقّع له : « إنّ من يُمن السّائس أنْ يأتلف به المختلفون ، ومن شؤمه أنْ يختلف به المؤتلفون » ووقّع في كتاب الحجّاج يخبره بقوّة ابن الأشعث : « بضعفك قوي ، وبخرقك طلع » ، ووقّع في كتاب ابن الأشعث »

فما بالُ مَنْ أسعى لأجْبُرَ عَظْمَهُ حِفاظاً وينوى من سفاهتِهِ كسري

ووقّع في كتاب :

« كيف يرجون سِقاطي بعدَما شَمِل الرأسَ مَشيب وصَلعْ [1]

وقد نقش خاتمه « آمنت باللّه مخلصاً » [2] .

ووصفه اليعقوبي بأنّه كان مبخّلاً [3] ، ومع أنه كان يلقّب برشح الحجر لبخله [4] فإنّي لم أجد من الشواهد ما يؤيّد صفة البخل عنده إلاّ شاهداً واحداً لم يصمه بالبخل وإنّما عرّض بالبخل أمامه ، والشواهد التي تؤيّد كرمه وأعطياته الكثيرة مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ .

صفات عبد الملك الجسديّة

كان عبد الملك ربعة ، أبيض ليس بالبادن ، ولا النحيف مقرون الحاجبين ، كبير العينين ، مشرف الأنف ، كثير الشعر ، حسن الجسم مفتوح الفم ، مشبّك الأسنان بالذّهب ، وكانت له سنّ سوداء يسترها ، [5] ، أبخر تدمى لثّته ، فيقع الذّباب عليها ، لهذا سمي أبا الذّباب ، وكان أبيض الرأس واللحيةّ [6] . وكان إذا

---

(1) العقد الفريد : ج 4 ، ص258 (2) الاعلام : ج 2 ، ص312
(3) تاريخ اليعقوبي : ج 3 ، ص3,35 (4) فوات الوفيات : ج 2 ، ص 31
(5) انظر الاغاني : ج 7 ، ص93/ ج 8 ، ص 38/ج 10 ، ص8 الامالي ج 2 ، ص 104/زهر الاداب ج 1 ، ص 246
(6) البداية والنهاية : ج 9 ، ص62 ، « وكان ربعة يميل الى القصر »
في فوات الوفيات : ج 2 ، ص31 ، « كان ربعة » .
في تاريخ بغداد : ج 1 ، ص391 ، « كان عبد الملك طويلا »
في الاعلام : ج 4 ، ص312 ، « كان طويلا ، وأرّجح انه اعتمد تاريخ بغداد »
وانظر الحيوان : ج 3 ، ص381-382

جلس يحمل بيده قضيب خيزران[1] ، وكان يقول : « لو ألقيت الخيزرانة من يدي ، لذهب شطر كلامي »[2] .

أولاد عبد الملك وأزواجه

الوليد وسليمان ومروان الأكبر (مات صغيراً) وعائشة ، وأمّهم ولّادة بنت العبّاس العبسية .

ويزيد ومروان ومعاوية (مات صغيراً) وأمّ كلثوم وأمّهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وهشام ، وأمّه أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي ، واسمها عائشة . وأبو بكر واسمه بكّار ، وأمّه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله . والحكم (مات صغيراً) وأمّه أمّ أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفّان . وفاطمة بنت عبد الملك ، وأمّها أمّ المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص . وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمّد وسعيد الخير والحجّاج لأمّهات أولاد شتّى[3] .

وكانت أحبّ أزواجه إليه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فقد كان يؤثرها عَلَيْهن جميعاً ، ويروي المسعودي حكاية تصور شغف عبد الملك بعاتكة ، يقول : « كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان فغضب عليه ، فطلب رضاها بكلّ شيء ، فأبت عليه ، وكانت أحبّ النّاس إليه ، فشكا ذلك إلى خاصّته ، فقال عمرو بن بلال ـ رجل من بني أسد ـ ما لي عليك إنْ أرضيتها ؟ قال : أحكّمك ، فخرج وجلس ببابها يبكي ، فقال خاصّتها ، مالك ابا حفص ؟ قال : فزعت إلى ابنة عمي ، فاستأذنوا لي عليها ، فأذنت له ، وبينهما ستر ، فقال : فقد عرفت حالى من أمراء المؤمنين ، معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ولم يكن لي غير ابنين ، فعدا أحدهما على الآخر ، فقتله ، فقال أمير المؤمنين أنا قاتل المعتدي ، قلت له : أنا وليّ الدّم ، وقد عفوت ، فأبى عليّ

(1) الاغاني : ج 9 ، ص169
(2) البيان والتبيين ، مختارات : ص 62
(3) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص224-224
العقد الفريد : ج 5 ، ص158/ تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص419
التاريخ الكامل : ج 4 ، ص 250
البداية والنهاية : ج 9 ، ص 61-69

وقال : ما أحبّ أنْ أعوّد رعيّتي هذا ، وهـو قاتله بـالغداة ، فـانشد اللّه الا مـا طلبته منه ، فقالت لا أكلّمـه ، قال : مـا أظنّك تكسبين شيئاً هو أفضـل من إحياء نفس ، ولم يزل خواصها وخدمها وحاشيتها ، حتّى قالت : عليّ بثيابي ، فلبست وكان بينها وبين عبد الملك باب وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثمّ دخلت ، فأقبل الخصيّ يشتدّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة ، قال : ويلك ورأيتهـا ؟ قال : نعم ، إذ طلعت وعبـد الملك على سريـره ، فسلّمت ، فسكت ، فقالت : أمّـا واللّه لـولا مكان عمرو بن بـلال ما أتيتـك ، آللّهِ إنْ عدا أحـد بنيه على الآخـر ، فقتله وهو وليّ الدّم وقد عفا ، أعزمْتَ لتقتلنّه ؟ قال أي واللّهِ وهو راغـم ، فأخـذت بيده ، فـأعرض عنهـا ، فأخـذت برجله فقبلتهـا ، فقال هـو لك ، وتـراضيـا . . . وراح عبـد الملك فجلس مجلسه للخاصّة ، وقد دخل عمرو بن بلال ، فقال له : يا أبـا حفص ألطفت العيلة في القيادة ولك الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والعبيد ، قال : هي لـك ، قال : وفـرائض لولـدي وأهل بيتي ، قـال : وذلك كلّه ، وبلغ الخبر عاتكة ، فقالت : ويلي على القوّاد ، إنّما خدعني »[1] .

ولمّـا أراد الخروج لقتـال مصعب بن الـزُّبيـر في العـراق ، لاذت بـه عـاتكـة وقالت : « يا أمير المؤمنين ، لا تخرج السّنة لحرب مصعب ، فـإنّ آل الزُّبيـر ذكروا خروجك ، وابعث إليـه الجيوش ، وبكت وبكى جـواريها معهـا ، وجلس ، وقال ، قاتل اللّه ابن أبي جمعة ، فأين قوله :

إذا مـا أراد الغـزو لم تثنِ همّـه ... حصـان عليهـا عقـد د ر يزينها
نهتـه ، فلما لم تَـرَ النهى عـاقـة ... بكت فبكى ممـا شجاهـا قطينهـا

. . . لكأنّه يراني ويراك يا عاتكة ، ثم خرج »[2] .

مآثر عبد الملك بن مروان

ضرب النقود

اختلف العلمـاء واصحاب السّيـر في السّنة التي ضُـرِبَتْ فيها النقـود بالعـربيّة

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص61-62

(2) الأغاني : ج 8 ، ص35 وانظر العقد : ج 5 ، ص 146

وفيمَنْ ضربها ، فقد أورد ابن كثير في ذلك روايات عدّة : الأولى عن ابن جرير وفيها أنّ عبد الملك ين مروان أوّل من ضربها في سنة ست وسبعين ثم يذكر عن الماوردي ، أنّه « اختُلِفَ في أوّل من ضربها بالعربيّة في الإسلام ، وأورد رواية عن سعيد بن المسيّب ، أنّ أوّل من ضربها . . عبد الملك بن مروان ، وكانت الدّراهم والدّنانير روميّة وكسرويّة » . ويورد في تأريخ نقشها عن أبي الزّناد : سنة أربع وسبعين ، وأنه كان على أحد جوانبها (اللّه أحد) وعلى الآخر (اللّه الصّمد) ثم يورد عن يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه ، أنّ أوّل مَن ضربها مصعب بن الزّبير في العراق عن أمر أخيه عبد اللّه سنة ست وسبعين على ضرب الأكاسرة ، وعليها (الملك) من جانب و(اللّه) من الجانب الآخر[1] .

وأما الطبري ، فقد أورد أنّ نقش الدّراهم والدّنانير ، كان بأمر من عبد الملك ،وهو أوّل من ضربها على مثاقيل الجاهليّة ، وهي اثنان وعشرون قيراطاً إلاّ حبّة[2] .

وأما ابن الأثير ، فيقول : « كان ضربها سنة ست وسبعين ، وإنّ عبد الملك هو أوّل مَنْ أحدث ضربها ، وقد أورد رواية لتعليل ذلك وهي أنّ عبد الملك كتب في صدور الكتب الى الروم : « قل هو اللّه أحد وذكر النبيّ (ص) مع التاريخ » ، فكتب إليه الرّوم : إنّكم قد أحدثتم حدثاً كذا وكذا ، فاتركوه ، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيّكم ما تكرهون ، فعظم ذلك عليه ، فأحضر خالد بن يزيد فاستشاره فيه ، فقال : حرّم دنانيرهم ، واضرب للنّاس سكّة فيها ذكر اللّه تعالى فضرب الدّنانير والدراهم » وضرب عامله في العراق الحجاج « الدنانير والدّراهم ونقش عليها قل هو اللّه أحد »[3] .

وذكر اليعقوبي في تاريخه ، أنّ الدّراهم والدّنانير ضُرِبَتْ في أيّام عبد الملك وأنّ الذي ضربها هو الحجّاج بن يوسف[4] .

---

(1) البداية والنهاية : ج 9 ، ص14-15

(2) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص256

(3) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص202

(4) تراريخ اليعقوبي : ج 2 ، ص336

ويورد ابن عبد ربّه أنّ عبد الملك هو أوّل مَنْ ضربها دون ذكر التاريخ لذلك ، ويذكر محمّد الكتبي أنّ عبد الملك نقش الدّراهم والدّنانير سنة ست وسبعين[1]

والحقيقة أنّ عبد الملك أوّل مَنْ ضربها لتواتر الرّوايات من جهة ، ولأنّ الرواية التي فيها ذكر مصعب بعيدة عن الحقيقة من جهة أخرى ، فمصعب كان في شغل شاغل عن ضرب النقود ، لأنّه كان يحارب الخوارج والمختار وعبد الملك وانهماكه في هذه الحروب يعتبر سبباً وجيهاً لردّ الرواية التي تجعله أوّل مَنْ ضرب النقود . والرواية التي أوردها ابن الأثير في السّبب الذي جعل عبد الملك يفكّر في ضرب النّقود ، هو أقرب للحكاية منه إلى السّبب الحقيقي ، وإذا قرنّاه ، بالمحاولة التعليلية لتعريب الدواوين ، أنّ رجلاً من كتّاب الرّوم احتاج أنْ يكتب فلم يجد ماء في الدواة فبال فيها[2] . عرفنا أنّ الدولة العربيّة آنئذ بدأت بالتعريب وفق خطّة مرسومة ، وتَمّ تعريب الدواوين وكانت قبل ذلك ، تُكْتَبُ بالفارسيّة بالعراق والنواحي الشرقيّة، وبالروميّة في الشّام ، والقبطية في مصر ، وحولها من الرّوميّة سليمان بن سعيد مولى خشين ، ومن الفارسيّة صالح بن عبد الرحمٰن مولى عتبة ـ امرأة من بني مرّة[3] .

والظاهرة أنّ هذا الإنتقال كان بطيئاً ، فاستمرّ في زمن الوليد ، مِمّا حدا البعض أنْ ينسبه إليه[4] .

وقد أنشأ عبد الملك مصلحة البريد ، وجعلها « منتظمة واستعمل لها الخيل تجري أشواطاً لنقل المسافرين والرسائل بين دمشق وعواصم الأمصار . وقد أنشئت هذه المصلحة في الأساس لسدّ حاجات موظفي الدّولة ، وحمل مراسلاتهم ، وكان على مديري البريد فوق هذا أنْ يواصلوا الخليفة بالأنباء عن جميع الحوادث

---

(1) العقد الفريد : ج 5 ، ص138-139
فوات ا لوفيات : ج 2 ، ص31
(2) تاريخ العرب : ج1 ، ص283
(3) العقد الفريد : ج5 ، ص138-139
(4) نفسه ، ج 5 ، ص138-139

الخطيرة الي تجري في مناطقهم »[1] .

وفي أيّام عبد الملك تَمّ وضع علامات الإعجام في الخط العربي ، وضُبِطَتْ الحروف بالحركات المقتبسة عن السّريانيّة[2] .

وفي سنة ست وستين بدأ عبد الملك بناء قبّة الصخرة والجامع الأقصى في القدس ، وانتهى منه سنة ثلاث وسبعين ، وقد أراد بذلك صرف النّاس عن الحجّ إلى مكّة التي كانت بيد ابن الزُّبير . فصار الناس يحجّون العمرة إليها ، وينحرون ويحلقون عند الصخرة ، ويطوفون بها ، وكان ابن الزُّبير يشهّر بعبد الملك بسبب هذا[3] .

ومنع عبد الملك أهل الشّام من الحجّ إلى مكّة ، لأنّ ابن الزُّبير كان يجبرهم على بَيْعَتِهِ إذا حجّوا ، فضجّ النّاس ، واحتجّوا على ذلك ، وقالوا : « تمنعنا من حجّ بيت اللّه الحرام ، وهو فرض من اللّه علينا ، فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم : أنّ رسول اللّه ، قال : لا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس ، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يُرْوَى أنّ رسول اللّه وضع قدمه عليها لمّا صعد إلى السّماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصّخرة قبّة ، وعلّق عليها ستور الديباج ، وأقام لها السّدنة »[4] .

وكانت الكعبة المشرّفة قد تصدّعت في زمن زيد بن معاوية ، وبعد موته رمّمها عبد الله بن الزُّبير بمقتضى الحديث الشريف : « لولا أنّ قومك ـ والحديث موجّه إلى عائشة ـ حديث عهدهم بكفر ـ وفي رواية بجاهلية ـ لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر ، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، ولألصقتها بالأرض فإنّ قومك قصرت بهم النفقة ، فلم يدخلوا فيها الحجر ، ولم يتمّموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها ، ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا « فلمّا تمكن ابن الزُّبير بناها كذلك ،

(1) تاريخ العرب : ج 1 ، ص284
(2) الاعلام : ج 4 ، ص312
(3) البداية والنهاية : ج 8 ، ص280
(4) تاريخ اليعقوبي : ج 3 ، ص7

ولمّا قضى الحجّاج على ابن الزُّبير ، استأذن عبد الملك بإعادة البناء كما كان في الجاهليّة ، فسّد الغربي ، وردم أسفل الشرقي حتى جعله مرتفعاً كما كان في الجاهلية ، ولمّا بلغ عبد الملك الحديث النبوي عنها ، قال : « وددنا لو تركناه وما تولّى من ذلك »[1] .

(1) العقد الفريد : ج 7 ، ص247/مروج الذهب : ج 3 ، ص30

الباب الثالث

الفصل الأول : عبد الملك بن مروان ونزعته الأدبيّة.
الفصل الثاني : تطور النقد الأدبي.
الفصل الثّالث: عبد الملك بن مروان والنقد الأدبي.

الفصل الأول

عبد الملك ونزعته الأدبيّة
طلبة المعرفة
تمثّله بالشّعر

عبد الملك بن مروان ونزعته الادبية

إنّ سجلّ عبد الملك بن مروان الحافل بالحروب والثورات والمؤامرات التي رأينا شيئاً من فصولها في مستهلّ هذه الرّسالة ، لم يستطع طمس النزعة الأدبيّة التي كانت قد تغلغلت في نفسه حتّى الأعماق ، فبقيت روح الأديب جيّاشة في صدره ، تشرئبّ شامخة كلّما وجدت السّبيل إلى ذلك .

ولنا أنْ نتساءل ، ألَمْ تشغلِ الهموم السياسيّة عبد الملك عن الإهتمام بالأدب ، لقد كابد الحرب ضد ابن الزّبير والشيعة والخوارج وعبد الرحمٰن بن الأشعث، والرّوم والمردة ، وقاد هذه الحروب إمّا مباشرة وإمّا غير مباشرة ، وكان لا يكلُ أمر دنياه إلى غيره ، دائم التعهد لولاته ، يكافىء المحسن ويعاقب السيء . ويتابع الحرب في الشرق والغرب في سبيل توسيع رقعة ملكه ويرده البريد من جميع انحاد المملكة ، فيطّلع عليه ، ويشرف بنفسه على الأحداث المهمّة ، ويبقى لديه الوقت الكافي للإهتمام بالأدب ورواية الأشعار والأخبار .

إنّ الإهتمام بالأدب ، كالأدب نفسه في كلّ زمان ومكان مرتبط بالسياسة والإجتماع ، وإذا كان للدّولة اليوم أجهزة إعلام متطوّرة كمحطات الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف والملصقات ، وإذا كان لكلّ حزب أجهزته الإعلامية التي تتولّى الدعاية له ونشر أفكاره ومبادئه ، فإنّ الشعراء ورجال الأدب هم مَنْ تحملوا هذه المسؤوليّة في الماضي ، فلكل حركة أو حزب شاعر بل شعراء ينافحون الخصوم ، ويروّجون الأفكار ، ويشيعون الأخبار .

لهذا كان عبد الملك حريصاً على لقاء الشعراء ، فهم أبواق دعايته المسموعة بين النّاس ، بحمده يسبّحون ، وبخصومه ينهشون ، ويتعهّدهم بالمال والأعطيات . فيبالغون بالقول على قدر مبالغته بالعطاء .

فاهتمامه بالشعر والشعراء ، لم يكن اهتماماً بالأدب للأدب ، وإنّما لأنّه ديوان العرب الذي إليه يرجعون ، وعنه يصدرون ، وبه يتأثّرون .

ولأنّه رأس السّلطة والأحداث تتعاقب ، فلا بدّ للخليفة من الخطابة والخطابة تفرض فيمَنْ يتصدىٰ لها سرعة في البديهة وقوّة في الإرتجال مع حسن اختيار الألفاظ وتلطّف المعاني لمشاكلة الكلام لمقتضى الحال . وهذا يلزمه اطّلاع واسع على اللغة وجوامع الكلم ، ويتطلّب حفظ آيات من القرآن الكريم لتزيين الخطب بآياته الحكيمة ، ورواية الأشعار ، للتمثّل بها لما تشيعه من إيحاء يغمر قلب اجمهور ، فيغدوا أكثر انقياداً للخطيب ، وخطبة الحجّاج في أهل العراق وتأثيرها على من كان بالمسجد مشهور .

هذه الظروف ساعدت الرّوح الأدبيّة عند عبد الملك على الإستمرار ونحن الآن سنحاول إبراز هذه الرّوح التي كان عبد الملك يغذيها باستمار لمحبته للمعرفة وإدراكه لأهميّتها .

مجالس عبد الملك الأدبية

طلبه المعرفة

كتب عبد الملك الى الحجّاج « ليس شيء من لذّة الدنيا إلّا وقد أصبحت منه ، ولم يكن عندي شيء ألذّه إلّا مناقلة الإخوان للحديث ، وقبلك عامر الشّعبي فابعث به إلي يحدّثني »[1] .

« فلمّا حُمِلَ اليه ، ونادمه ، قال له : يا شعبي ، لا تساعدني على ما قبح ولا تردّ علي الخطأ في مجلسي ، ولا تكلّفني التشميت والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى ، وكلّمني بقدر ما أستطعمك

(1) الاعاني : ج 9 ، ص169/ شرح النهج : ج 4 ، ص500

واجعل بدل المدح لي صواب الإستماع مني ، واعلم أنّ صواب الإستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعتني أتحدّث فلا يفوتنّك منه شيء ، وأرني فهمك من طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في تطرية صوابي ، ولا تستدع بذلك الزّيادة في كلامي ، فإنّ أسوأ النّاس حالاً من استكدَّ الملوك بالباطل ، وإنّ أسوأ النّاس حالاً منهم من استخفّ بحقهم ، واعلم يا شعبي ، أنّ أقلّ من هذا يذهب بسالف الإحسان ويسقط الحرمة ، فإن الصمت في موضعه ربّما كان أبلغ من المنطق في موضعه ، وعند إصابته وفرصته »[1] .

لم يجد عبد الملك لذّة تفوق مجالسة العلماء ومحادثتهم ، ورغب الشعبي أنْ يكون له نديماً ، وزوّده بالنصح والإرشاد بهذه الوصيّة الموجزة بألفاظها الوافية بمعانيها ، البالغة هدفها ، فقد طلب منه أنْ لا يساعده على قبح ، ونهاه أنْ يقول له أخطأت في ملأ ، ودعاه الى رفع الشكليات فلا دعاء إذا عطس ولا تهنئة من كلّ مناسبة ، ودعاه الى حديثه ما أحسّ أنّ الخليفة مقبل عليه ، فإنْ بدرت من الخليفة بادرة أو علامة على قلّة إقباله ، أمسك عن الحديث ، وأنْ لا يمدحه ويطريه ، إنّما يستمع منه ويحسن الإستماع ، ويعلمه أنّ الإستماع فن كفن الكلام ، وإذا سمعه يتحدّث ، فليقبل عليه بسمعه وبصره ، فلا يقول له : أحسنت وأجدت ، إنّما يريده أنْ يظهر فهمه ببصره وسمعه ، دون إجهاد نفسه في تطرية صوابه ، وينهاه عن التملّق إليه طمعاً في عطيّة ، ولكن إنْ دعاه الى رفع الشكليات فلا تحدّثنه نفسه بالإستخفاف بحقّه ، فبادرة من هذا النوع أو أقلّ منها تذهب ما سبق من الإحسان والحرمة ، ويحضّه على الصمت عندما يكون مناسباً لأنّ الصمت في موضعه أبلغ من الكلام في موضعه .

ولكن بأي أسلوب قال عبد الملك ذلك ؟ لقد قال ذلك في بلاغة نادرة وعبارة شاعرة ، بدأ كلامه بالنهي وختمه بالتقرير والتأكيد ، وقصد لِمَا يريد قصداً ، فلا تشبيه ولا كناية ولا محسّنات لفظيّة أو معنويّة إلّا ما جاء عفو الخاطر (طباق في بعض المواضيع ، مثل : السؤال والتعزية ، وأصبح وأمسى ، والإستماع والقول ، والصمت والمنطق) ولا تعقيد في الألفاظ ، إنما انسجام وتكامل وتناغم بين

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص37

الحروف وتشاكل بينها وبين المعاني ، فلا لفظ مستقبح ولا معنى مستهجن[1] .

وعندما كتب ملك الرّوم إلى عبد الملك « أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة . لأغزينّك جنوداً مئة ألف ومئة ألف ، فكتب عبد الملك الى الحجّاج أنْ يبعث الى عبد الله بن الحسن ويتوعّده ، ويكتب إليه بما يقول : ففعل ، فقال عبد اللّه بن الحسن : إنّ للّه عزّ وجلّ لوحاً محفوظاً يلحظه كلّ يوم ثلاث مئة لحظة ، ليس منها لحظة إلا يُحْي ويُمِيت ويعزّ ويذلّ ، ويفعل ما يشاء ، وإنّي لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة . فكتب به الحجّاج إلى عبد الملك وكتب عبد الملك به إلى ملك الرّوم ، فلمّا قرأه قال : ما خرج هذا إلاّ من كلام النبوّة »[2] .

لماذا اختار عبد الملك عبد اللّه بن الحسن دون غيره ؟ ولماذا استعمل أسلوب التهديد دون المشورة ؟ لقد اختار عبد اللّه بن الحسن لعلمه وأناته وتقديره لعقله ، ولجأ لأسلوب التهديد ليستخرج الجواب المناسب من صدره دون ان يعلم عبد اللّه بحاجة عبد الملك لهذا الجواب ، وقال مرّة لعروةبن الزُّبير وكان عروة قد أبدى إعجابه في بستان « أنت واللّه أحسن منه . إنّ هذا يؤتي أكله كلّ عام ، وأنت تؤتي أكلك كلّ يوم »[3] .

وكان عبد الملك نهماً في طلب المعرفة وإقباله عليها ، فقد روى الشّعبي قال : « ربّما حدّثت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . . وقد هيّأ اللقمة ، فيمسكها في يده مقبلاِ علي، فأقول : أحرها يا أمير المؤمنين ، فإنّ الحديث بعدها فيقول : الحديث أشهى إليّ منها »[4] .

وكان يتجنّب في مجالسته غير الأدباء[5] . وقد اجتمع جماعة منهم عند عبد الملك في سمره « فذكروا بيوتات العرب ، فاتفقوا على خمسة أبيات : بيت بني

---

(1) سنعود للكلام عن نثر عبد الملك في الفصول اللاحقة .

(2) العقد الفريد : ج 2 ، ص16

(3) نفسه : ج 2 ، ص82

(4) ذيل الأمالي : ص 81

(5) الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص327

معاوية الأكرمين في كندة ، وبيت بني جشم بن بكر في تغلب ، وبيت بن ذي الجدين في بكر ، وبيت زرّارة بن عدس في تميم ، وبيت بني بدر في قيس ، وفيهم الأحرز بن مجاهد التغلبي ، وكان أعلم القوم ، فجعل لا يخوض معهم فيما يخوضون فيه ، فقال له عبد الملك : ما لك يا أحيرز ساكتاً منذ الليلة ؟ قال وما أقول ؟ سبق أهل الفضل في فضلهم أهل النقص في نقصانهم ، والله لو أنّ للناس كلهم فرساً سابقاً غرته ، لكان بنو شيبان ففيما الإكثار ، وقد قال المسيّب بن عَلَس :

تَبيت الملوكُ على عَتْبها ... وشيْبان إنْ عَتَبَتْ تَعْتِبُ
فالشُّهد بالرّاحِ أخلاقُهم ... وأحلامُهُم منهما أعذَبُ
وكالمسك تُرْبُ مقاماتهم ... وتُرْبُ قبورهم أطيَبُ[1]

ولكن ، هل كان عبد الملك بن مروان يقف دوماً موقف الآخذ المنفعل ؟ لا ، لقد كان يدلي بآرائه ويكون له القول الفصل في معظم الأحيان ، ويقف في بعضها موقف الممتحن لجلسائه ، ليعلم مقدار علمهم وأيّهم أعلم من غيره . فقد قال يوماً لجلسائه « خبِّروني عن حي من أحياء العرب فيهم أشدّ النّاس ، وأسخى النّاس ، وأخطب النّاس ، وأطوع النّاس في قومه ، وأحلم النّاس ، وأحضرهم جواباً . قالوا : يا أمير المؤمنين ، ما نعرف هذه القبيلة ، ولكن ينبغي لها أنْ تكون في قُرْيش ، قال : لا ، قالوا : ففي حمير وملوكها ، قال : لا ، قالوا : ففي مضر ، قال : لا ، قال مصقلة بن رقيّة العبدي : فهي إذاً في ربيعة ونحن هم ، قال : نعم ، قال جلساؤه : ما نعرف هذا في عبد القيس إلاّ أنْ تخبرنا به يا أمير المؤمنين ، قال : نعم ، أمّا أشد النّاس فحكيم بن جبل ، وكان مع علي بن أبي طالب ، فقُطِعَتْ ساقه ، فضمّها إليه حتّى مرّ به الذي قطعها ، فرماه بها ، فَجَنَّدَ لَهُ عن دابته ، ثم جثا إليه فقتله ، واتكأ عليه ، فمرّ به النّاس فقالوا له : يا حكيم ، مَنْ قطع ساقَكَ ؟ قال : وسادي هذا وأنشأ يقول :

يا ساقي لا تُراعي ... إنّ معي ذراعي ... أحمي بها كُراعي .

---

(1) العقد الفريد : ج 3 ، ص252

وأمّا أسخى النّاس ، فعبد اللّه بن سوّار ، استعمله معاوية على السّنـد ، فسار إليها في أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقد معه نار حيثما سار ، فيطعم النّاس ، فبينما هو ذات يوم إذ أبصر ناراً : فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصلح اللّه الأمير اعتلَّ بعضُ أصحابنا ، فاشتهى خبيصاً ، فعملنا له ، فأمر خبّازه أنْ لا يطعم النّاس إلاّ الخبيص . حتى صاحوا وقالوا : أصلح اللّه الأمير ، ردّنا إلى الخبز واللحم فسُمّيَ مطعم الخبيص .

وأمّـا أطوع النّـاس في قومـه ، فالجـارود بن بشر بن العـلاء ، إنّه لمّـا قُبِضَ رسـول اللّه (ص) وارتدّت العـرب ، خطب قـومه ، فقـال : أيّها النّـاس ، إنْ كان محمّد قد مات ، فإنّ اللّه حيّ لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، فَمَنْ ذهب في هـذه الرّدّة دينار أودرهم أو بعير أو شاة فله عليّ مثلاه . فما خالفه رجل .

أمّا أحضر النّاس جواباً ، فصعصعة بن صوحان ، دخـل على معاويـة في وفد أهـل العراق ، فقـال معـاويـة : مـرحبـاً بكم يـا أهـل العـراق ، قـد متم أرض اللّه المقدّسة ، منها المنشر وإليها المحشر ، قدمِتم على خير أميـر ، يبرّ كَبيـرَكُمْ ويرحم صغيرَكم ، ولو أنّ النّاس كلهم ولد أبي سفيان ، لكانوا حلماء عقلاء ، فأشـار النّاس إلى صعصعة ، فقام ، فحمد اللّه وصلّى على النبي (ص) ، ثم قال : أمّـا قولـك يا معاوية إنا قدمنا الأرض المقدسـة . فلعمري مـا الأرض تقدّس النّـاس ، ولا يقّدس النّاس إلاّ أعمالهم ، وأمّا قولك منها المنشر وإليها المحشر ، فلعمري ما ينفع قـربُها ولا يضّر بُعدُها مؤمناً ، وأمّـا قولك لـو أنّ النّاس كلّهم ولـد أبي سفيان لكـانوا حلمـاء عقـلاء ، فقد ولـد مَن هم خيـر من أبي سفيـان : آدم عليـه السّـلام ، فمنهم الحكيمَ والسّفيه ، والجاهل والعالم » .

« وأمّا احلم الناس ، فالأشبّح العبديّ ، فإنّ وفد عبد القيس قـدموا على النبي (ص) بصدقاتهم وفيهم الأشبّح ففرّقـه رسول الله (ص) وهـو أوّل عطاء فـرضه في أصحابه ، ثم قـال يا أشبّـح ، ادنُ مني ، فدنـا منه ، فقـال : إن فيك خلتين يحبهـا اللّه : الأنـاة والحلم ، وكفى بـرسـول الله (ص) شـاهـداً ، ويقـال إنّ الأشبّـح لم يغضب قط »[1]

[1] العقد الفريد : ج 3 ، ص282-284

وسأل يوماً جلساءه « أيُّ المناديل أشرف ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كـأنها غِرْقيء[1] البَيْض ، وقال آخر : مناديل اليمن ، كأنها أنوار الربيع ، فقال عبد الملك ما صنعتما شيئاً ، أفضل المناديل ما قاله أخو تميم ، يعني عَبْدَة بن الطيب :

لمّـا نـزلنـا نَصَبْنا ظـلّ أخبيـةٍ　　وفار للقوم بـاللحم المراجيـلُ[2]

وَرْدٌ وأشقـر مـا يُـونيـه طـابخِـهُ　　ما غَيَّرَ الغَلْيُ منـه فهو مـأكولُ[3]

ثُمّتَ قُمْنـا إلى جُـرْدٍ مُسـوّمـةٍ　　أعرافُهُنّ لأيدينا مَناديـلُ »(1)[4]

ونصب عبد المك « الموائد يطعم النّاس ، فجلس رجل من أهل العـراق على بعض تلك المـوائد ، فنـظر إليه خـادم لعبد الملك ، فـأنكره ، فقـال لـه : أعـراقي أنت ؟ قـال نعم قال أنت جـاسوس ، قـال : لا ، قال : بلى ، قـال : ويحك دعني أتهنّأ بزاد امير المؤمنين ولا تنغّصني به ، ثم إنّ عبـد الملك وقف على تلك الموائـد فقال : مَنْ القائل :

إذا الأرطـى تـوسّـد أبـرديـه　　خـدود جـوازيء بـالـرمـل عين

وما معناه ، ومَنْ أجاب فيه أجزناه ، والخادم يسمع ، فقال العراقي للخـادم : أتحبّ أن أشرح لك قائله ، وفيما قاله ؟ قال : نعمض، قال : يقوله عدي بن زيد في صفة البـطيح الـرمسي ، فقال ذلـك الخادم ، فضحـك عبد الملك حتى سقط ، فقـال لـه الخـادم : أخطأت أم أصبت ؟ فقـال : بل أخـطأت ، فقال : يـا أمير المؤمنين هـذا العـراقي ، فعل اللّه بـه وفعل لقنيـه . . فعاد إليـه عبـد الملك ، وقـال : أنت لقنتـه هذه ؟ قال : نعـم ، قال أخطأ لقنته أم صواباً ؟ قال : بل خطأ ، قـال : ولِمَ ؟ قال : لأنّي كنت متحـرمـاً بمـائـدتـك ، فقـال لي : كيت وكيت ، فـأردت أنْ أكفّـه عني وأضحـك ، قال : وكيف الصـواب ؟ قال : يقـوله الشّمـاخ بن ضرّار الغـطفاني في صفة البقر الوحشية ، وقد جزئت بالرطب عن الماء ، قال صدقت »(2) .

---

(1) الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص327/العقد الفريد : ج 1 ، ص113

(2) الاغاني : ج 8 ، ص107-108

---

[1]غرقيء البيض: يعني القشرة الرقيقة التي تركب البيضة دون قشرهـا الاعلى

[2] المراجيل : الاصل : مراجل واحدها مرجل : القدر الكبيرة .

[3] يؤنيه : ينضجه

[4] مسوّمة : معلمة .

وقال عبد الملك لأحد جلسائه : « ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب في الجاهلية ؟ فأنشده :

منعَ البقاءَ تقلّب الشّمس وطلوعُها من حيثُ لا تُمْسي
وطلوعُها بيضاء صافية وغروبُها صفراء كالورس[1]
تجري على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس
اليوم تعلم ما يجيء به ومضى بفضل قضائه أمس

قال : احسنت ، فأخبرني بأمدح بيت قالته العرب في الشّجاعة ؟ قال : قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا قدماً ونلحقها إذا لم تلحق

قال : فأخبرني بأفضل بيت قيل في الجود ؟ فأنشد لحاتم طي :

أماوى ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر[2]
ترى أنّ ما أبقيتُ لم أكُ ربّه وأنْ يدي ممّا بخلت به صفرُ

الى آخر الأبيات . قال : فأخبرني عن أحسن النّاس وصفاً ؟ قال : الذي يقول :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي[3]

والذي يقول :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن زيد ومن حجر

يريد امرأ القيس »(1) .

وقال عبد الملك للشّعبي : « من أين تهبّ الريح ؟ قال : لا علم لي يا أمير المؤمنين قال : . . . أمّا مهبّ الشّمال ، فمن مطلع بنات نعش[4] ، وأمّا مهبّ

(1) ذيل الامالي : ص30

[1] الورس : صباغ اصفر ، ويصبغ به
[2] حشرج : الرجل غرغر عند الموت وتردّد نفسه .
[3] الحشف : أصول الزرع تبقى بعد الحصاد
[4] بنات نعش: الكبرى سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي ومثل الصغرى .

الصّبـا ، فمن مطلع الشمس إلى سُهَيْـل ، واما الجنوب ، فمن مـطلع سُهيـل الى مغـرب الشّمس ، وأمّـا مـطلع الـدّبـور[1] ، فمن مغـرب الشّمس الى مطْلع بنـات نعش »[1] .

« فـمعــارف عبـد الملك متشعّبـة ، فهي تعـدّت الآداب والأنســاب إلى علم الفلك .

« وكتب الحَجّاج إلى عبد الملك بن مروان ، يعظم أمر قطريّ بن الفجـاءة المـازني ، فكتب إليه عبـد الملك : أوصيك بما أوصى بـه البكـريّ زيـداً ، فقـال الحجّاج لحاجبه : نادي في النّاس ، مَنْ أخبر الأمير بما أوصى به البكريّ زيداً فله عشرة آلاف درهم ، فقال رجل للحاجب : أنا أخبره ، فأدخله عليه ، فقـال له : مـا قال البكري لزيد ؟ قال : قال لابن عمّه زيد ، والشعر لموسى بن جابر الحنفي :

أقــول لــزيـد لا تـرتـدّ فـإنّـهم ... يـرون المنايـا دون قتلك أو قتلي
فإنْ وصفـوا حرباً فضعهـا وإنْ أبوا ... فشبّ وقودَ الحرب بالحطب الجزل
فإنْ عضّت الحرب الضّروس بنابها ... فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلي

فقال الحجّاج : صدق أمير المؤمنين ، عرضة نار الحرب مثلي أو مثله »[2] .

وكتب إليه عبد الملك : « أنت عنـدي كسالم ، فلم يـدرِ ما هـو ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يسأله ، وكان قتيبة قد روى الشعر ، فكتب إليه : إن الشاعر يقول :

يُـدِيـرُونني عن ســالمٍ وأديـرهم ... وجلدة بين الأنفِ والعينِ سالمُ[3]

ثمّ كتب إليـه مرّة أخـرى : « أنت عندي قـدحُ بن مقبل ، فلم يـدرِ مـا هـو ، فكتب الى قتيبة يسأله فكتب إليه : إنّ ابن مقبل نعت قدحاً له ، فقال :

غدا ، وهو مجدول ، وراح كأنّـه ... من المشّ والتقليب بالكفّ أفطحُ[2]

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص37
(2) ذيل الامالي : ص 72
(3) مروج الذهب : ج 3 ، ص62

[1] الصبا . ريح مهبها جهة الشرق ويقابلها الدّبور.
[2] المش : يقال مش العظم مصه ومش يديه إذا مسحهما بمنديل لإزالة الدسم. الافطح : العريض .

خروج من الغَميّ إذا صكّ صكّه بدا والعيون المستكّفة تلمحُ[1] (1)

فرسائلُ عبد الملك السياسيّة طَغْت على بعضها روحُهُ الأبيّة ، حتّى رأيناه يرسل مثل هذه الرسائل للحجّاج ، وهو بذلك يعرّض مصالحه السياسيّة وخططه في القضاء على خصومه للإبهام أو على الأقلّ للإبطاء بتنفيذها ، فثقته بالحجّاج وفهمه لم تنفع الحجّاج بشيء في هذا المجال ، حتّى اضطّر إلى أن يرصد الجوائز ، ويرسل المراسلات ، ليفهم ما يعنيه عبد الملك بهذه العبارات .

ودخل الفرزدق على عبد الملك بن مروان وبعض بنيه ، فقال للفرزدق أتعرف أحداً أشعر منك ؟ قال : لا ، إلاّ أنّ غلاماً من بني عُقَيل يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات فيجيد ، ثم جاءه جرير ، فسأله عن مثل ما سأل الفرزدق ، فأجابه بجوابه ، فلم يلبث أن جاءه ذو الرّمة ، فقال له : أنت أشعر النّاس ؟ قال : لا ، ولكن غلام يقال له مزاحم من بني عُقَيل ، يسكن الروضات ، يقول وحشيّاً من الشعر لا يقدر على مثله أحد ، فقال أنشدني بعض ما تحفظ من ذلك ، فأنشده قوله :

خليليّ عوجاً بي على الدار نسأل متى عهدها بالظّاعن المتحمّل[2]
فعجت وعاجوا فوق بيداء صفّقت بها الريح جولان التراب المنخّلِ [3]

حتى اتى على آخرها ، ثم قال : ما أعرف أحداً يقول قولاً يواصل هذا »(2)

وعن مذاكراته الشّعر والشّعراء ، قال يوماً لولده وأهله : « أي بيت ضربته العرب ووصفته ، أشرف حواءً وأصلاً وبناءً ؟ فقالوا ، فأكثروا ، وتكلّم مَنْ حضر فاطالوا فقال عبد الملك : أكرم بيت وصفته العرب ، بيت طُفَيل الذي يقول فيه :

وبيت تهبّ الريح في حجراته بأرض فضاء بابه لم يحجّبِ
سماوته أسمال برد محبّر وصهوته من ألحميّ مصعّب[4]

(1) نفسه : ج 3 ، ص62
(2) الاغاني : ج 17 ، ص153

[1]الغمّى : الشدة ، صك صكه : اضطرب اضطراباً شديداً
[2] عاج على الدار : عطف عليها زمام بعيره . الظاعن الراحل بالظعنية وهو الهودج يوضع على ظهر البعير .
[3] البيداء : الصحراء
[4] سماوة : رواق البيت وسماوة كل شيء شخصه أسمال : جمع سمل : الثوب الخلق ، البرد : الثوب المحطط والبرد

وأطنـابـه أرسـان جـرد كـأنها صـدور القنـا من بـادىء ومعقّب[1]
نُصِبَتْ على قـومٍ تدورُ رماحُهم عروقَ الأعادي من عرينٍ وأشْيَب(1) [2]

« وقـال عبد الملك ـ وكـان أوّلَ خليفة ظهـر منه بخـل ـ أيّ الشّعراء أفضـل ؟ فقـال له حُميـد بن هرّاسـة ـ يعرّض ببخـل عبد الملك ـ : أفضلهم المقنّع الكِنْديّ حيث يقول :

إنّي أحـرّض أهـل البخـل كلّهـم لـو كان ينفـع أهل البخـل تحريضي
مـا قـلّ مـالـي إلا زادني كـرمـاً حتّى يكـون بـرزق اللّه تعـويضي
والمـال ينفـع مَنْ لـولا دراهـمـه أمسى يقلّب فينا طرف مخفـوضِ
لن تخـرج البيضُ عفـوّا من أكفّهم إلّا عـلى وجـع منهم وتـمـريضِ
كـأنّمـا من جلود البـاخلين بـهـا عنـد النـوائب تُحْـذَى بـالمقـارضِ

فقـال عبد الملك ـ وعـرف مـا أراد ـ اللّه أصـدق من المقنّع حيث يقـول : والذين إذا أنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُقَتّروا »(2) .

ولم أجد ما يتّهمه بالبخل غير هذا الخبر ، والأخبار التي تؤيّد كـرمه أكثر من أنْ تُحْصَى ، وكان يقول معرّضاً ببخل ابن الزُّبير إنّه لا يصلح للخلافة لبخله ، فهل يُعْقَلُ أن يُلَقّب عبد الملك برشح الحجر ، ويكون بخله مشهوراً ، ثم يعرّض ببخل غيره ؟

وقال يوماً عبد الملك لجلسائه : مَنْ أشدّ النّاس ؟ قالوا أمير المؤمنين قال : اسلكوا غير الطريق ، قالوا : عُمَير بن الحُباب ، قال قبّح اللّه عُمَيراً لصّ ثوب ينازع عليه أعزّ عنـده من نفسه ودينه ، قالـوا : فشبيب ، قال : إنّ للحـرورية لـطريقـاً ؛ قـالوا : فَمَنْ ؟ قـال : مصعب ، كـان عنـده عقيلتـا قُـرَيْشٍ ، سُكَينـة بنت الحسين

(1) نفسه : ج 14 ، ص90
(2) الاغاني : ج 5 ، ص158

ايضاً ثوب من الشعر أسود محبر : مزيّن الصهوة . مقعد الفارس من الفرس .
الحمي : كثير اللحم ، المصعب : الفحل الذي لم يركب .
[1] اطناب : جمع طنب : الحبل الطويل تشد به الخيمة .
أرسان : جمع رسن وهو مقود الدابة . الجرد : الخيل
[2] عروق : ج : عرق : الاصل ومن البدن أحد أوردته التي يجري فيها الدم

وعائشة بنت طلحة ، ثم هو أكثر النّاس مـالاً ، جعلت له الأمـان ، والولايـة ، وعلم أنّي سـأفي له للمـودة التي كانت بيننـا ، فحمى أنفاً وأبى وقـاتل حتّى قُتِـلَ ، فقـال رجل: كان مصعب يشرب النبيذ ، قال : كان ذلك قبل أنْ يطلب المروءة ، فأمّـا مذ طلبها ، فلو علم أنّ الماء ينقص مرؤته ما ذاقه ، قال الأُقَيْشَر الأسدي :

حمًى أنفَـه أنْ يَقْبَـلَ الضّيْمَ مصعبٌ   فمـاتَ كـريمـاً لم تُـذَمَّ خـلائِقُـه
ولو شاء أعطى الضّم مُذْ رام هضَمه   فعـاش ملومـاً في الـرّجـال طـرائِقُـه
ولكن مضَى والبــرقُ يبـرقُ خـالُـه   يـشـاوره مَـرّاً ومَـرّاً يـعـانِـقُـه
فـولّى كـريمـاً لـم تنله مـذَمّـةٌ   ولـم يـكُ رغـداً تـطّبيـه نمـارقُـه[1]

لقد رفض عبد الملك أنْ يكون هو المقصود بسُوءَ الِهِ ، لأنّه كان يعلم أنّ مادح نفسـه كذّاب ، ورفض أنْ يكـون عميراً ، لأنّ عميـراً لم يقتله عبـد الملك من جهـة ولأنّه قيسيّ من جهة ثانية ، ورفض ان يكـون شبيباً رغم مـا أبداهُ شبيب من شجـاعة في معـاركه ، وأغلب الـظّنّ لأنّه لم يكن قاتلـه ، فقـد مات شبيب غـرقاً كمـا هـو معـروف ، إنّمـا جعله مصعب بن الـزُّبيـر ، لأنّ مصعبـاً كـان قُـرَشِيّـاً مثله ، وكـان صديقه ، ثم وهذا الأهمّ إنّه الذي قتل مصعباً ، فتعظيم مصعب تعـظيم لعبد الملك نفسه ، وبقدر ارتفاعه به كان ارتفاعه بنفسه .

« وسأل عبد الملك أبا الـزُعَيْزعـة هل أتخمت قط ؟ قـال : لا ، فقال : وكيف ذلـك ؟ قال : لأنّـا إذا طبخنا أنضجنـا ، وإذا مضغنـا دقّقنـا ، ولا نكظّ المعـدة ولا نخليّها »[2] .

وقال لاعرابي : « انك حسن لكذبة ، قال : اني ادفىء رجلي في الشتاء ، واغفل غاشية الفم ، وآكل عند الشهوة »[3].

وكان يقول لبنيـه : « عليكم بطلب الأدب ، فـإنّكم إنْ احتجتم إليه كـان لكم مـالاً ، وإنْ استغنيتم عنـه كـان لكم جمـالاً[4] . وقـال : « إنّ العلم سيُقْبَضُ قبضـاً

---

(1) التاريخ الكامل 642
(2) عيون الاخبار : ج 9 ، ص219
(3) نفسه : ج 9 ، ص271
(4) العقد الفريد : ج 2 ، ص231-232

سريعاً ، فَمَنْ كان عنده علم فليظهره ، غير غالٍ فيه ولا جافٍ عنه »[1] .

وسأل ابن جُبَير بن مطعم لمّا قدم عليه ـ وكان من حلفاء قريش ـ عن حلف الفضول ، فأخبره أنّ بني عبد شمس وبني نوفل خرجوا منه »[2] .

« وسأل عبد الملك كُثيّراً عن أعجب خبر له مع عزّة ، فقال : حججت سنة من السّنين ، وحجّ زوج عزّة بها ، ولم يعلم أحد منّا بصاحبه ، فلمّا كنّا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياع سمن تصلح به طعاماً لأهل رفقته ، فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتّى دخلت إليّ وهي لا تعلم أنّها خيمتي ، وكنت أبري أسهماً ، فلمّا رأيتها جعلت أبري وأنا أنظر اليها ولا أعلم حتّى بريت عظامي مرّات ، ولا أشعر بها ، والدّم يجري ، فلمّا تبينت ذلك ، دخلت إليّ ، فأمسكت يدي ، وجعلت تمسح الدّم عنها بثوبها ، وكان عندي نحيً من السمن ، فحلفت لتأخذنّه ، فأخَذَتْهُ وجاءت زوجها بالسّمن ، فلمّا رأى الدم ، سألها عن خبره ، فكاتمته حتّى حلف لتصدقنّه ، فصدقته ، فضربها ، وحلف لتشتمني في وجهي ، فوقفت عليّ وهو معها ، فقالت لي : يا ابن الزانية ، وهي تبكي ، ثم انصرفا ، فذلك حين أقول :

يكلّفها الخنزير شتمي وما بها ... هواني ولكن للمليك استذلّتِ[3]

« وقال عبد الملك بن مروان لعبد اللّه بن عبد الأعلى الشيباني : مَنْ أكرم العرب ومَنْ خير النّاس ؟ قال : مَنْ يحبّ النّاس أنْ يكونوا منه ، ولا يحبّ أن يكون من أحد ـ يعني بني هاشم ـ قال : مَنْ ألأم النّاس ؟ قال : مَنْ يحبّ أنْ يكون من غيره ، ولا يحبّ غيره أنْ يكونوا منه »[4] .

ودخل عمر بن أبي ربيعة على عبد المك ، فانتسب له ، فقال عبد الملك :

« لا أنعم اللّه بعين عيننا ... تحيّة السخط إذا التقينا

أأنت القائل لا أم لك ؟

(1) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها .
(2) الاغاني : ج 16 ، ص68
(3) نفسه : ج 8 ، ص39
(4) عيون الاخبار : ج 3 ، ص228

نـظرت إليهـا بـالمحصّب من منى ولي نـظر لـولا التحـرّج عـارمُ[1]

فقلت :

أشـمس أم مـصابـيـح بَيْـعَـةٍ بدت لك خلف السّجف ام أنت حالم[2]

بعيـدة مهـوى القـرط إما لنـوفـل أبـوهـا وإمّـا عبـد شمس وهـاشمُ

. . قـاتلك اللّه ، فما ألأمـك ، أما كـان في بنات العـرب مندوحـة عن بنات عمّـك ؟ فقال عمـر : بئست واللّه هـذه التحيّـة يـا أميـر المؤمنين ، لابن العمّ على شحط[3] الـدّار ، وتنائي المـزار ، فقال لـه عبد الملك : أراك مـرتدعـاً عن ذلك ؟ قال : إلى اللّه تائب ، فقال عبد الملك : إذن يتوب اللّه عليك ، ولكنْ أخبرني عن منازعتك اللهبيّ في المسجد الجامع ، فقد أتـاني نبأ ذلـك ، وكنت أحبّ أنْ أسمعه منك ، قال عمـر : نعم ، يا أميـر المؤمنين ، بينا أنـا جالس في المسجـد الحرام في جمـاعة من قُـرَيْشٍ ، إذ دخل علينـا الفضـل بن العبّـاس بن عتبـة ، فسلم وجلس ، ووافقني ، وأنا أتمثّل بهذا البيت :

وأصبـح بـطن مكّـة مقشعـرّاً كـأنّ الأرض ليس بهـا هشـام

فـأقبل عَلَيّ ، فقـال : يا أخـا بني مخـزوم ، واللّه ، إنّ بلدة تجـج بهـا عبـد المطّلب وبُعِثَ بها رسول اللّه (ص) فأسفرت ، وبها بيتَ اللّه عـزّ وجلّ ، فحقيقـة أنْ لا تقشعرّ لهشام ، وإنّ أشعر من هذا البيت وأصدق قول القائل :

إنّمـا عبـد منـاف جـوهـر زيّن الجـوهـر عبـد المـطّلب

فـأقبلت عليه : فقلت : يـا أخـا بني هـاشم ، إنّ أشعـر من صـاحبـك الـذي يقول :

إنّ الـدليـل على الخيـرات أجمعهـا أبنـاء مخـزوم للخيـرات مخـزوم[4]

فقال لي : أشعر واللّه ، من صاحبك الذي يقول :

أبنـاء مـخـزوم الـحـريـق إذا حـرّكـتـه تـارة تـرى ضـرمـا

---

[1] التحرج : تجنب الاثم . عارم : اسم فاعل من عرم : شديد

[2] السجق : الستر ، الحجاب

[3] شحط الدار : بعده

[4] خزم اللآلىء : نظمها وتحرّم الشوك في رحله دخل ، وتحازم الجيشان تعارضا

يجـود منـه الشـرار مـع لهب   فَمَنْ حـاد عن حـدّه فقـد سلمـا

فوالله ما تلعثم ، ان أقبل عَلَيّ بوجهه ، فقال : يا أخا بني مخزوم ، أشعر من صاحبك وأصدق الذي يقول :

هـاشم بحـر إذا سمـا وطمـا   أخمـد حـرّ الحـريق واضـطرمـا
واعلم وخيـر المقـال أصـدقـه   بـأنّ مَنْ رام هـاشمـاً هُـشِمـا

. . . فتمنيت والله ، يـا أمير المؤمنين ، أنّ الأرض سـاخت بي ، ثم تجلّدت عليه ، فقلت يا أخا بني هاشم ، أشعر من صاحبك الذي يقول :

أبـنـاء مخـزوم أنـجم طـلعـت   للنّـاس تجلو بنـورهـا الـظلمـا
نجـود بـالنيـل قبـل تسـألـه   جـوداً هنيئـاً ونضـرب البهمـا

فأقبل علي بـأسرع من اللحظ ، ثم قـال : أشعر من صـاحبك وأصـدق الذي يقول :

هـاشم شمس بـالسّعـد مـطلعهـا   إذا بـدت أخفت النّجـوم معـا
اختـارنـا الله فـي النبـيّ فَـمَنْ   قـارعنـا بعـد أحمـد قُـرِعـا

فأسودت الدّنيا في عيني ودُبُري ، فانْقَطَعَتُ فلم أجد جواباً ، ثُمّ قلت لـه : يا أخا بني هاشم ، إنْ كنت تفخرينا برسول الله (ص) فمـا تسعنا مفـاخرتـك ، فقال كيف ، لا أمّ لك ، والله لو كان منك لفخرت به عَلَيّ ، فقلت : صدقت ، واستغفر الله ، إنّه لموضع الفخار ، وداخلني السّرور لقطعـه الكلام ، ولَئِلا ينالني خَـوَرٌ عن إجـابته فـأفْتَضَح ، ثم إنّـه ابتدأ المنـاقضة ، فقـال : فقـد قلت ، فلم أجـد بـدّاً من الاستماع ، فقلت : هات ؛ فقال :

نحن الـذين إذا سمـا بفخـارهـم   ذو الفخـر أقعـده هنـاك الـقَعْـدَدُ
أفخـر بنـا إنْ كنت يـومـاً فـاخـراً   تلقَ الأولى فخـروا بفخـرك أفـردوا
قُـلْ يا ابن مخـزوم لكـلّ مفـاخـر   منّـا المبارك ذو الـرّسـالـة أحمـدُ
مـاذا يقـول ذوو الفخـار هنـالكم   هيهـات ذلك هـل يُنَـالُ الفرقـدُ[1]

[1] الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به وبجانبه آخر أخض منه . فهما فرقدان .

فحصرت ، وتبلّدت ، وقلت له : إنّ لـك عندي جـواباً فـانظرني ، وأفكـرت ملياً ، ثم أنشأت أقول :

لا فـخـر إلاّ قـد عـلاه محـمّـد	فـإذا فـخـرتَ بـه فـإنّي أشـهـدُ
أنْ قـد فخـرت وفقت كـلّ مفـاخـر	وإليـك في الشّرف الـرفيع المقصـدُ
ولـنـا دعـائـم قـد تـنـاهـى أوّل	في المكرمات جـرى عليها المـولدُ
مـنْ ذاقـهـا حاشى الـنـبـيّ وأهـله	في الأرض غطغطة الخليج المزبـدُ
دع ذا ورح بـفـنـاء خَـوْدٍ بـضّـة	مِمّـا نـطقت بـه وغنّى معبـدُ[1]
مـع فـتـيـة تندى بطون اكفهم	جـوداً إذا هـزّ الـزمـان الانكد
يتنـاولـون سـلافـة عـاميّـة	طـابت لشـاربهـا وطـاب المقعـدُ

فوالله ، يا أمير المؤمنين ، لقد أاجابني بجواب اشدّ عَلَيّ من الشعر ، قال لي : يا أخا بني مخـزوم ، أريـك السّهـا[2] وتـريـني القـمـر . . . وتخـرج المفـاخـرة إلى شـرب الرّاح ، وهي الخمر المحرّمة ؟ فقلت له : أما علمت ؛ أصلحـك اللّه ، أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول في الشعراء وإنّهم يقولون ما لا يفعلون ؟ قال : صدقت ، ثم استثنى قـوماً منهم ، فقال إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحـات ، فإنْ كنت منهم ، فقـد دخلت في الإستثناء ، واستحققت العقوبة بدعائك إليها ، وإنْ لم تكن منهم فالشرك باللّه أشـدّ عليـك من شرب الخمر ، فقلت : أصلحك اللّه ، لا أرى للمستجـدي شيئاً أصلح من السكوت ، فضحك وقال : استغفر اللّه ، وقام عنّي ، فضحك عبد الملك حتّى استلقى ، وقـال : يـا ابن أبي ربيعـة ، أمـا علمت أنّ لبني عبـد منـاف ألسنـة لا تطاق ؟(2) .

وهـذا الخبر بين الصنعـة ، واستخراجهـا لا يحتاج كبيـر عناء ، وانمـا اوردتـه كنموذج للتزيّد في الأخبار التي شغف بها بعض الرواة .

« وكـان عبد الملك معجبـاً بشعر عبـد اللّه بن جحش ، فكتب يأمـره بالقـدوم

---

(1) في الاصل قينة .

(2) الأغاني : ج 15 ، ص7-9 / زهر الآداب : ج 1 ، ص80-81

---

[1] خود : المرأة الشابة بضة : رقيقة الجلد ناعمة .

[2] السها : كوكب خضّ من بنات نعش الصغرى .

عليه فورد كتابه وقد توفي ، فقال إخوانه لابنه : لو شخصت إلى أمير المؤمنين عن اذنه لأبيك لعلّه كان ينفعك ، ففعل ، فبينا هو في طريقه إذ ضاع منه كتاب الإذن فَهَمّ بالرجوع ، ثُمّ مضى لوجهه ، فلمّا قدم على عبد الملك ، سأله عن أبيه فأخبره بوفاته ثم سأله عن كتابه ، فأخبره بضياعه ، فقال له : أنشدني قول أبيك :

هل يُبْلغنّها السّلام أربعة	منّي وإنْ يفعلوا فقد نفعوا
على مُصكّيْن من جمالهم	وعنتريسَيْنِ فيهما سطعُ
قرّب جيرانُنا جمالهم	صبحاً فاضحوا بها قد انتجعوا
ما كنت أدري بوشك بَيْنهم	حتّى رأيت الحُداةَ قد طلعوا
قد كاد قلبي والعين تبصرهم	لما تولّى بالقوم ينصدعُ
ساروا وخُلّفْتُ بعدهم دنِفاً	أليس باللّه بئس ما صنعوا[1]

قال : لا واللّه ، يا أمير المؤمنين ما أرويه ، قال : لا عليك ، فانشدني قول أبيك :

أجد اليومَ جيرتك الغيارا	رواحاً أم أرادوه ابتكارا
بعينك كان ذاك وإن يبينوا	يزدْك البَيْنُ صدعاً مستطارا
بلى أبقت من الجيران عندي	أناساً ما أوافقهم كثارا
وماذا كثرة الجيران تغني	إذا ما بان من أهوى فسارا

قال : لا واللّه ، يا أمير المؤمنين ، ما أرويه ، قال : لا عليك ، فانشدني قول ابيك :

دار لصهباءَ التي لا ينثني	عن ذكرها قلبي ولا أنساها
صفراء يطويها الضجيج لصلبها	طيّ الحمالة لين مثناها
لو يستطيع ضجيعها لأجنّها	في القلب شهوة ريحها ونشاها

قال : لا واللّه ، يا أمير المؤمنين ، ما أرويه ، وإنّ صهباء هذه لأمّي ، قال : لا عليك قد يبغض الرّجل أنْ يُشَبّب بأمّه ، ولكن إذا نسب بها غير أبيه ، فأفٍ لك ورحم اللّه أباك ، فقد ضَيّعْتَ أدبه وعققته، إذ لم تروِ شعره ، اخرج فلا شيء لك عندنا ».

---

(1) الأغاني : ج 17 ، ص119-120

وكـان عبد اللّه بن قيس الـرّقيّات عنـد عبد الملك ، فـأقبـل غلمـان لـه معهـم عِسْـاسُ خلنج فيهـا لبن البخت ، فقال عبـد الملك : « يا ابن قيس ، أين هـذا من عِساس مصعب التي تقول فيها :

ملك يـطعم الـطّعـام ويسقـي لبنَ البُخْتِ في عِسـاس الخلنجِ

فقال : لا أيْنَ يا أمير المؤمنين ، لو طُرِحَتْ عِسَاسُكَ هذه في عِسّ من عِساس مصعب لوسعها وتغلغلت في جوفه ، فضحك عبد الملك ، ثم قال : قاتلك اللّه يـا ابن قيس ، فإنّك تأبى إلاّ كرماً ووفاءً »[1] .

وقال يوماً لعمر بن أبي ربيعة » « أنت القائل :

أأتـرك ليلى ليس بيني وبـينـهـا سـوى ليلة ؟ إنّـي إذا لصـبـور

قـال عمر : نعم ، قـال : فبئس المحبّ أنت ، تركتهـا وبينك وبينهـا غدوة ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنّها من غدوات سليمان ، غـدوها شهـر ورواحها شهر »[2]

« ودخـل العجّاج على عبـد الملك بن مروان ، فقـال له عبـد الملك : بلغني أنّك لا تحسن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قدر عهلى تشييد الأبنية أمكنه خراب الأخبية ، قـال : ما يمنعـك من ذلك ؟ قـال : إنّ لنا عـزّاً يمنعنا أنْ نُـظْلم ، وحلمـاً يمنعنا من أنْ نَـظْلِمَ ، قال : لكلمـاتك أحسن من شعـرك ، فما العـزّ الـذي يمنعـك أنْ تُظْلَم ؟ قـال : الأدب البارع والفهم النـاصع . قـال : فما الحلم الـذي يمنعـك مِن أنْ تَظْلِمَ ؟ قـال : الأدب المستطرف ، والـطّبـع اللتـالـد ، قـال : لقـد أصبحت حكيماً . قال : وما يمنعني من ذلك وأنا نجيّ أمير المؤمنين ؟[3] .

« ودخلت عـزّة على عبد الملك وقـد عجزت ، فقـال لها : أنت عـزّة كثيّـر ؟ فقالت : أنا عزّة بنت حميد ، قال : أنتِ الذي يقول لكِ كثيّر :

لعـزّة نـار مـا تبـوح كـأنّهـا إذا مـا رمقناهـا من البعد كـوكب

(1) نفسه ، ج 17 ، ص167

(2) نفسه : ج 18 ، ص 133

(3) الامالي : ج 2 ، ص45-46/زهر الآداب : ج 2 ، ص634-635

فما الذي أعجبه منك ؟ قالت : كلّا يا أمير المؤمنين ، فواللّه ، لقد كنت في عهده أحسن من النّار في الليلة القرّة ـ وفي حديث محمّد بن صالح الأسلمي ـ فقالت له : أعجبه منّي ما أعجب المسلمين منك حين صيّروك خليفة ، . . . وكانت له سنٌّ سوداء يخفيها فضحك حتى بدت ، فقالت : هذا الذي أردت أنْ أبديه ، فقالها : هل تروين قول كثيّر فيكِ :

وقد زعمت أنّي تغيّرتُ بعدها ومَنْ ذا الذي يا عزّ لا يتغيّرُ
تغيّر جسمي والخليقة كالتي عهدت لم يخبر بسرّك مخبرُ

قالت : ولكنّي أروي :

كأنّي أنادي صخرة حين أعرضت من الصمّ لو تمشي بها العصم زلّتِ
صفوحاً فما تلقاك إلّا بخيلة فَمَنْ ملّ منها ذلك الوصل ملّت »[1]

وسأل عبد الملك بُثينة وليلى الأخيلية نفس السؤال ، وتلقى نفس الجواب الذي رواه محمّد بن صالح [2] .

ولمّا جلس عبد الملك لمبايعة أهل العراق بعد أنْ قتل مصعباً « أتته عدوان ، فقدّموا بين أيديهم رجلاً وسيماً ، فقال عبد الملك :

غدير الحيّ من عدوان كانو حيّة الأرضِ
بغى بعضهم بعضاً ، فلم يرعوا على بعضِ
ومنهم كانت السّاداتُ والموفونَ بالفرضِ

ثم أقبل على ذلك الجميل ، فقال : إيه ، فقال : لا أدري ، فقال معبد بن خالد الجدلي وكان خلفه :

ومنهم حَكَمٌ يقضي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضيِ
ومنهم مَنْ يُجيزُ الحَجّ بالسنّة والفرضِ
وهم مذ وُلِدوا شَبُّوا بسرّ النّسب المحضِ

---

(1) الامالي : ج 2 ، ص104
(2) الاغاني : ج 7 ، ص93/ ج10 ، ص80

فـأقبل عبـد الملك على ذلك الجميـل ، فقال : مَنْ هـو ؟ قـال : لا أدري ، فقال سعيد من ورائه : هوذو الأصبع ، فأقبل على الجميل ، فقال : ما كان اسمه ؟ قال : لا أدري فقال معبـد : حرثـان بن الحارث ، فقـال للجميل : من أيّكم هـو ؟ قال : لا أدري ، فقال معبد : من بني ناج ، ثم قال للجميل : كم عـطاؤك ؟ قال : سبعمئة ، قال لمعبد كم عطاؤك : قال ثلاث مئة ٠ فقال لكـاتبه : اجعـل معبداً في سبعمئة وانقصْ عطاء هذا أربعمئة ، ففعل »[1] .

فعبـد الملك كان دائم المـذاكـرة لـلأدب ، يكـافىء المحسن ، ويعـاقب في بعض الأحيان منْ يتوسّم فيه المعرفة فلا يجدها ، كهذا الجميل الذي لا يروي شعر قومه ولا أخبارهم ، فقد حرمه عبد الملك أكثر من نصف عطائه ، وابن عبـد اللّه بن جحش فقد أنّبه ، لأنّه لا يروي شعر أبيه .

« وكـان عبد اللّه بن الحجّـاج الثعلبي شجاعـاً فـاتكـاً صعلوكـاً من صعـاليـك العرب ، وكان متسرّعاً إلى الفتن ، فكان مِمَّنْ خرج مع عمرو بن سعيد ، فلمّا ظفـر عبد الملك بعمرو ، هرب الى ابن الزُّبير ، فكان معه حتى قتل ، ثمّ اندسّ إلى عبد الملك ، فَكُلّمَ فيه ، فأمنّه ، هذه رواية ثعلب ، وفي رواية غيره : لمّا قُتِلَ عبدُ اللّه بن الـزُّبير ، وكـان عبد اللّه ابن الحجّـاج معه ، احتـال على عبد الملك وهـو يطعم النّـاس فدخـل حجرة ، فقـال له (عبـد الملك) مالـك يا هـذا لا تأكـل ؟ قال : لا أستحلّ أنْ آكل حتّى تأذن لي ، قال إنّي قد أذنت للنّاس جميعـاً ، قال : لا أعلم ، فآكل بأمرك ، قال : كُلْ ، فأكل ، وعبد الملك ينظر اليه ، ويعجب من فعاله ، فلمّا أكـل النّاس ، جلس عبـد الملك في مجلسـه وجلس خـواصـه بين يـديـه ، وتفـرّق النّاس ، جاء عبد الله بن الحجّاج ، فوقف بين يديه ، ثم استأذنه في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده :

أبـلغْ أميـر الـمؤمـنـين فـإنّـني ... مِمّـا لقيت من الحـوادث مُـوجَـعُ
مُنـعَ القـرار فجئت نحـوك هـاربـاً ... جـيش يـجـرّ ومـقـنـب يـتـلـمّـعُ

---

(1) الاغاني : ج 4 ، ص3 (وفيها زيادة في التفاصيل)
التاريخ الكامل : ج 4 ، ص157-161

فقال عبد الملك : وما خوفك لا امّ لك ، لولا أنّك مريب ، فقال عبد الله :

إنّ البــلاد علي وهـي عــريضــة   وعـرت مـذاهبهــا وسُـدّ المــطلعُ

وقال عبد الملك : ذلك بما كسبت يداك ، وما اللّه بظلّام للعبيد ، فقال عبد اللّه :

كنّــا تنحّلنــا البصــائـر مــرّة   وإليـك إذ عمي البصائـر نـرجعُ
إنّ الـذي يعصيـك منّـا بعـدهـا   مـن دينـه وحيـاتيـه متـودعُ
آتي رضــاك ولا أعــودُ لمثلهـا   وأطيعُ أمرَك مـا أمرْتَ وأسمـع
أعـطي نصيحتي الخليفة نـاجعـاً   وخـزامـة الأنف المقــود فـأتبـع

فقال لع عبد الملك : هذا لا نقبله منك إلّا بعد المعرفة بك ، وبذنبك ، فإذا عُرِفَتْ الحَوْبَةُ قبلنا التَّوْبَةَ ، فقال عبد اللّه :

ولـقــد وطئت بـني سـعيــد وطــأةً   وابن الــزُّبير فعـرشه متضعضـع

فقال عبد الملك : الحمد للّه والمنّة على ذلك ، فقال عبد اللّه :

مـا زلت تضـرب منكبـاً عن منكب   تعلو ويسفـل غيـركم مـا يـرفـعُ
ووطئتهم[1] في الحرب حتّى أصبحوا   حـدثــاً يؤسّ وغــابــراً يتجعجـع
فحــوى خـلافتهم ولم يــظلم بهـا   الـقــرم قــرم بني قـصي الأنــزعُ
لا يستــوى خـاوي نـجـوم آفـلٍ   والبــدر منـبلجـاً إذا مـا يــطلعُ
وُضِعَتْ أميّــةُ واســطين لـقــومهـم   وَوُضِعْتَ وسـطهم فنعمَ المـوضـعُ
بيتٌ أبــو العــاصي بنــاه بــربــوةٍ   عــالي المشارف عـزّه مـا يـدفـعُ

فقال له عبد الملك : إنّ توريتك عن نفسك ، لتريبَني ، فأيّ الفسقة أنت ؟ وماذا تريد ؟

فقال :

جـربت أُصَيْبيتي ، يـد أرسلتهـا   وإليـك بعـد معـادهـا لا تـرجـعُ
وأرى الـذي يـرجـو تـراثَ محمّـدٍ   أفلت نجومُهمو ونجمُـك يسـطعُ

---

(1) في الاصل : وطئتم .

فقال عبد الملك : هذا جزاء أعداء اللّه ، فقال له عبد اللّه بن الحجّاج :

فانعش أُصَيْبِيَتِي الألاء كأنّهم حجل تدّرج بالشرّبة جوّعُ

فقال عبد الملك : لا أنعشهم اللّه ، وأجاع أكبادهم ، ولا أبقى وليداً من نسلهم ، فإنّهم نسل كافر فاجر ، لا يبالي ما صنع ، فقال عبد اللّه :

مالٌ لهم مِمّا يضنّ جمعته يوم القليب فحِيزَ عنهم أجمعُ

فقال عبد الملك : لعلّك أخذته من غير حلّه ، وأنفقته في غير حقّه ، وأرصدت به لمشاقّة أولياء اللّه ، وأعددته لمعاونة أعدائه ، فنزعة منك إذا استظهرت به على معصية اللّه ، فقال عبد الله :

أدنو لترحَمَني وتجبرَ فاقتي فأراك تدفعُني فأين المدفع

فتبسّم عبد الملك وقال له : إلى النّار فَمَنْ أنت الآن ؟ قال : أنا عبد اللّه بن الحجّاج الثعلبي ، وقد وَطِئْتُ دارك ، وأكلت طعامك ، وأنشدتك ، فإنْ قتلتني بعد ذلك فأنت وما تراه ، وأنت بما عليك في هذا عارف ، ثم عاد إلى إنشاده ، فقال :

ضاقت ثيابُ الملبسين وفضلُهم عنّي فالبسْني فثوبك أوسع

فنبذ عبد الملك إليه رداءً كان على كتفه ، وقال : البسه لا لبست ، فالتحف به ، ثمّ قال له عبد الملك : أولى بك واللّه ، لقد طاولتك طعماً في أنْ يقوم بعض هؤلاء ، فيقتلك فأبى اللّه ذلك ، فلا تجاورني في بلد وانصرف آمنا ، قم حيث شئت »[1] .

وبلغ عبد اللّه بن الحجّاج ، أنّ الحجّاج بن يوسف أرسل إلى عبد الملك يعرّفه بما فعل عبد اللّه ويطلبه منه ، فجاء عبد اللّه ، فوقف بين يدي عبد الملك ، وأنشده :

« أعوذُ بثوبيك اللذين ارتداهما كريمُ اثنا من جيبه المسكُ ينفحُ
فإنْ كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي وإنْ كنتُ مذبوحاً فكن أنت تذبحُ

فقال عبد الملك : ما صنعت شيئاً ، فقال عبد اللّه :

(1) الأغاني : ج 12 ، ص26-27

لأنْتَ وخَيرُ الظّافرين كِرامُهم عن المُذْنِبِ الخاشي العِقَابَ صَفوحُ
وَلَوْ زَلَقَتْ مِنْ قَبْلِ عَفْوِكَ نَعْلُهُ ترامى به رحضُ المقام بَريحُ
نمى بك أنْ حانت رجالاً عقوقُهم أرومُ ودينٌ لم يجبك صحيحُ
وعرفُ سرى لم يسرِ في النّاس مثله وشأوٌ على شأوِ الرّجال مَنوحُ
تداركني عفوا بن مروانَ بعدما جرى لي من بعد الحياة سنيحُ
رفعت مريحاً ناظريَّ ولم أكد من الهمّ والكرب الشديد أريحُ»[1]

فعفا عنه عبد الملك ، وأمنّه مرّة أخرى .

وخرج عمران بن حطّان هارباً من الحجّاج ، فطلبه ، وكتب فيه إلى عمّاله وإلى عبد الملك ، وكان عمران قد نزل على روح بن زنباع بالشّام ، على أنّه من أزد الشّراة ، « وكان روح يسمر عند عبد الملك ، فقال له ليلة : يا أمير المؤمنين إنّ في أضيافك رجلاً ما سمعت منك حديثاً قط ، إلا حدّثني به وزادني ما ليس عند ، قال : مِمّنْ هو؟ قال : من الأزد ، قال : إنّي لأسمعك تصف صفة عمران بن حطّان ، لأنّي سمعتك تذكر لغةً نزاريةً وصلاةً وزهداً وروايةً وحفظاً ، وهذه صفته ، فقال روح : وما أنا وعمران ، ثم دعا بكتاب الحجّاج ، فإذا فيه : أما بعد ؛ فإنّ رجلاً من أهل الشّقاق والنّفاق ، قد كان أفسد عَليّ أهل العراق ، وخيبهم بالشّراية ، ثم إنّي طلبته ، فلمّا ضاق عليه عملي ، تحوّل إلى الشّام ، فهو ينتقل في مدائنها ، وهو رجل ضرب طوال أفوه أزرق ، قال روح : هذه واللّه صفة الرّجل الذي عندي ، ثمّ أنشد عبد الملك يوماً قول عمران يمدح عبد الرحمن بن ملجم بقتله علي بن أبي طالب صلوات اللّه عليه :

للّه درّ المواديّ الذي سفكت كفّاه مهجة شرّ الخلق إنسانا
إنّي لأفكر فيه ثمّ أحسبه أوفى البرّية عند اللّه ميزانا

ثم قال عبد الملك : من يعرف منكم قائلها : فسكت القوم جيمعاً ، فقال لروح : سل ضيفك عن قائلها ، قال : نعم أنا سائله[2] ، وما أراه يخفي على ضيفي ولا سألته عن شيء قط فلم أجده إلاّ عالماً به ، وراح روح إلى أضيافه ،

(1) المصدر السابق : ج 12 ، ص 32
(2) في الأصل : سائلهم .

فقال : إنّ أمير المؤمنين سألنا مَنْ الذي يقول : يا ضربة من كريم ما أراد بها ، ثم ذكر الشعر وسألهم عن قائله ، فلم يكن عند أحد منهم علم ، فقال له عمران : هذا قول عمران بن حطّان في ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، قال : فهل فيها غير هذين البيتين تفيدنيه ؟ قال : نعم :

يا ضربة من كريم ما أراد بها ... إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأفكر فيه ثم أحسبه ... أوفى البريّة عند اللّه ميزانا
للّه درّ المرادي الذي سفكت ... كفّاه مهجة شرّ الخلق إنسانا
أمسى عشيّة غشّاه بضربته ... مِمّا جناه من الأثام عريانا

صلوات اللّه على أمير المؤمنين ، ولعن اللّه عمران بن حطّان وابن ملجم ، فغدا روح فأخبر عبد الملك ، فقال : مَنْ أخبرك بذلك ، فقال : ضيفي ، قال : أظنّه عمران بن حطّان ، فاعلمه أنّي قد أمرتك أنْ تأتيني به ، قال : أفعل ، فراح روح إلى أضيافه فأقبل على عمران فقال له : إنّي ذكرتك لعبد الملك ، فأمرني أنْ آتيه بك ، فقال : كنت أحبّ ذلك منك وما منعني من ذكره إلا الحياء ، وأنا متّبعك ، وانطلق ، فدخل روح على عبد الملك ، فقال له : أين صاحبك ؟ فقال : قال لي أنا متّبعك ، قال : أظنّك واللّه ، سترجع فلا تجده ، فلمّا رجع روح إلى منزله ، إذا عمران قد مضى[1] .

ويظهر لنا من خلال هذا الخبر ، مدى تمرّس عبد الملك بالأدب والرّواية ، حتّى غدا يملك هذا الحسّ الرقيق في النّقد ، وإذا كان الأسلوب هو الرجل في رأي بعض أصحاب المذاهب النقديّة الحديثة ، فقد اكتشفه عبد الملك قبل أكثر من ألف سنة ، وميّز به عمران بن حطّان ، وإذا كانت سنّة التّطوّر والزّمن وقفت حائلاً دون جعله من الأسس النقديّة عند العرب الأوّلين ، فقد عرفوه بحدسهم ، وعليه ردّوا المنحول أو بعضه من شعرهم ، وخبر عبد الملك مع عمران شاهد على ذلك .

« ولمّا وصف عبد اللّه بن جعفر لعبد الملك بن مروان ابن أبي عتيق ، وحدّثه

(1) الأغاني : ج 16 ، ص152-153

عن إقلاله ، وكثرة عياله ، أمره عبد الملك ، أنّ يبعث به إليه ، فأتاه ابن جعفر ، فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك ، وبعثه إليه . فدخل بن أبي عتيق على عبد الملك فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه ، يميسان كغصني بان بيد كلّ جارية مروحة تروّح بها عليه ، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة :

أنا في الكفّ خفيفة   مسكني قصر الخليفة
أنا لا أصلح إلّا   لظريف او ظريفة
أو وصيف حسن القدّ   شبيه بالوصيفة

وفي المروحة الأخرى :

إنّني أجلب الرّيا   حَ وبي يلعب الخجل
وحجاب إذا الحبيب   ثنى الرّأسَ لِلقُبَل

قال ابن أبي عتيق : فلمّا نظرت إلى الجاريتين هونتا الدّنيا عَلَيّ ، وأنستاني سوء حالي ، قلت : إنْ كانتا من الإنس ، فما نساؤنا إلا من البهائم ، فكلّما كررتُ بصري فيهما تذكرت الجنّة ، فإذا تذكرت امرأتي ـ وكنت لها محبّاً ـ تذكرت النّار »[1] .

فالأدب في قصر عبد عبد الملك حلية جميلة من حلاه ، وصاحب القصر يعطف على أربابه ، فيساعدهم ، ويذاكرهم ، فيأنسون به ، ويأنس بهم .

فقد « أتى نُصَيبٌ عبد الملك ، فأنشده ، فاستحسن عبد الملك شعره ، وسرّ به فوصله ، ثمّ دعا بالغداء فَطُعِمَ معه ، فقال عبد الملك : يا نُصَيب ، هل لك فيما يُتَنادَمُ عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، تأمّلني ، قال : قد أراك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، جلدي أسود ، وخلقي مشوّه ، ووجهي قبيح، ولست في منصب ، وإنما بلغ بي مجالستك ، ومؤاكلتك عقلي ، وأما أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل فيه ما ينقصه ، فأعجبه كلامه وأعفاه ووصله »[2] .فتقدير عبد الملك لجلسائه نابع من تقديره لعقولهم وثقافتهم ، وبصرف النظر عن شكلهم ومراكزهم .

(1) العقد الفريد : ج 7 ، ص19-20

(2) الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص334/ ذيل الامالي : ص127

ولمّا « دخل أرطأة بن سُهيّة على عبد الملك بن مروان ، فقال له : كيف حالك يا أرطأة ؟ قال ـ وقد كان أسنّ : ضعفت أوصالي ، وضاع مالي ، وقلّ منّي ما كنت أحبّ كثرته ، وكثر منّي ما كنت أحبّ قلّته ، قال فكيف أنت في شعرك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أطرب ، ولا أغضب ، ولا أرغب ، ولا أرهب ، وما يكون الشعر إلّا من نتائج هذه الأربع ، وعلى أنّي القائل :

رأيت المرءَ تأكله الليالي ... كَأكْلِ الأرض ساقطة الحديد

وما تبغي المنيّة حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنّها ستكرّ حتّى ... توفّى نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك ، ثمّ قال : بل توفي نذرها بك ويلك ، ما لي ولك ؟ فقال : لا ترع إنّما عنيت نفسي ـ وكان أرطأة يكنّى بأبي الوليد ـ فسكن عبد الملك ، ثمّ استعبر باكياً وقال : أمَا والله ، على ذلك لتلمنّ بي »[1] .

فعبد الملك سريع التأثر بما يسمع ، ينفعل بالكلام الجميل ، حتّى يصل إلى البكاء ، ويعجب بالجواب السّديد ، فيهدأ غضبه ، ويصفح عن الذّنب وإنْ كان الذنب يستدعي القتل أحياناً ، فعندما قدم إياس بن معاوية الشّام ، كان غلاماً فقدّم أحد الخصوم الى قاضٍ لعبد الملك ، وكان خصمه شيخاً كبيراً ، « فقال له القاضي : أتقدّم شيخاً كبيراً ؟ فقال له إياس : الحقّ أكبر منه ، قال : اسكت ، قال : فَمَنْ ينطق بحجتي ؟ قال : ما أظنّك تقول حقّاً حتّى تقوم ، قال : أشهد أنْ لا إله إلّا الله . فقام القاضي ، فدخل على عبد الملك ، فأخبره بالخبر ، فقال : اقضِ حاجته واخرجه من الشّام ، لا يفسد عَلَيّ النّاس »[2] .

وأخذ عبد الملك سارقاً ، فأمر بقطع يده ، فقال :

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أنْ تلقى مكاناً يشينها

فلا خير في الدّنيا وكانت حبيبةً ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فأبى إلّا قطعها ، فدخلت عليه أمّه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، واحدي

---

(1) العقد الفريد : ج 6 ، ص151/ الاغاني : ج 11 ، ص140-141

(2) عيون الأخبار : ج 1 ، ص71

وكـاسبي ، فقال : بئس الكـاسب ، هذا حـدّ من حـدود اللّه . فقـالت : اجعله من الذنوب التي تستغفر اللّه منها ، فعفا عنه »[1] .

و« أمر عبد الملك بن مروان بقتل رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّـك أعزّ ما تكون أحوج ما تكـون إلى اللّه ، فاعفُ لـه ، فإنّـك به تُعـانُ وإليه تعـود ، فخلّى سبيله »[2] .

و« أُمْسِكَ رجل من أصحـاب شبيب (الخارجي) ، فَحُمِـلَ إلى عبد الملك ، فقال له : أنت القائل :

فـإن يـكُ منكم كـان مـروانُ وابنُـه ... وعـمـرو منكم هـاشم وحـبـيـب
فـمّنـا حُـصَيـن والبُـطَيـنُ وقنـعبٌ ... ومـنّـا أميـرُ الـمـؤمـنيـن شبـيـب

فقـال : إنّما قلت : (وأقصـد) يا أميرَ المؤمنين شبيبِ ، فأعجبـه اعتذاره ، وأطلقه »[3] .

و« حُكِيَ أنّ عبـد الملك بن مروان اتـوه بـرجـل من الخـوارج ، فـأراد قتله ، فـأُدْخِلَ على عبـد الملك ابن له صغيـر وهو يبكي ، فقـال الخارجي : دعـه يا عبـد الملك ، فإنّ ذلك أرحب لشدقه ، وأصحّ لدماغه ، وأذهب لصـوته ، وأحـرى أنْ لا تأتي عليه عينه إذا حفزته طاعة اللّه ، فاستدعى عبرتها . فأعجب عبد الملك بقوله ، وقال له متعجباً ، أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال : ما ينبغي أنْ يشغل المؤمن عن قول الحقّ شيء ، فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله »[4] .

« وقال عبد الملك لرجل دخل عليه : تكلّم بحاجتك . قال : يا أمير المؤمنين بهر الدرجة وهيبة الخـلافة يمنعـاني من ذلك ، قـال : فعلى رسلك ، فإنّـا لا نحبّ مـدح المشاهـدة ولا تزكيـة اللقاء . قـال يا اميـر المؤمنين ، لست أمدحـك ، ولكن أحمد اللّه على النعمة فيك . قال : حسبك فقد أبلغت »[5] .

---

(1) عيون الاخبار . ج 1 ، ص99/العقد الفريد : ج 2 ، ص33
(2) عيون الاخبار : ج 1 ، ص102
(3) البداية والنهاية : ج 9 ، ص20
(4) عيون الاخبار : ج 4 ، ص116
(5) العقد الفريد : ج 2 ، ص12

ويقـول يوماً لبعض جلسائه : « أيكم يـأتيني بحروف المعجم في بـدنه ؟ ولـه علي ما يتمنى ، فيقول أحـدهم : أنا لهـا يا أمير المؤمنين ، ويبدأ بـالسّرد ، فيقـول أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغرة ، حتى ينتهي إلى آخر حروف الهجـاء ، فيختم بوجـه ، يد ، ويحفز ذلك رجلاً آخر للقيام ، فيذكر على كـلّ حرف من حـروف الهجاء اسم ثلاثة أعضاء من جسم الإنسان، مبتدئا بأنف ، أذن ، أسنان ، بـطن ، بصر ، بـز ، حتّى يصـل إلى الياء ، فيقـول : يمين ، يسار ، يـافوخ ، وينهض مسـرعاً ، فيقبـل الأرض بين يدي أمير المؤمنين، فيقول : أعطوه ما تمنّى »[1] .

« ووجد عبد الملك على رجل ، فجفاه ، واطـرحـه ، ثم دعا به ليسأله عن شيء ، فوآه شاحباً ناحلاً ، فقال له : مذ متى اعتللت ؟ فقال :

مـا مسَّـني سـقَـمٌ ولـكـنّـنـي جفـوتُ نفسي إذ جفـاني الأميـرُ

وآليت ألاّ أرضى عنهـا ، حتّى يـرضى عنّي أميـر المؤمنين ، فـأعـاده إلى نفسه »[2] .

ومن المُلَح التي كانت تحصل له مع الأدباء والظرفاء ، أنّه قال لكثّير لمّا دخل عليـه في بعض المـرّات : أنت كثيـرٌ ؟ فقـال : نعم ، فـاقتحمـه ، وقـال : تسمـع بـالمعيدي لا أن تـراه ، فقال : يـا أميـر المؤمنين ، كـلّ إنسـان عنـد محلّه ، رحب الفناء ، شامخ البناء ، عالي السّناء ، وأنشد يقول :

تـرى الـرجـلَ النحيفَ فتـزدريـه وفـي أثـوابـه أسـدٌ هـصـورٌ
ويـعـجـبـك الـطّريـرُ إذا تـراه فيخلف ظنَّـك الـرّجـلُ الـطّريـرُ

فقـال : قاتله اللّه ، مـا أطول لسـانه ، وأمـدّ عنانـه ، وأوسـع جنـانـه ، وإنّي لأحسبه كما وصف نفسه »[3] .

« ودخل كثـير على عبد الملك بن مروان ، فقال : نشدتـك بحقّ علي بن أبي طـالب ، هـل رأيت أعشق منـك ؟ فقـال : يـا أميـر المؤمنين ، لـو سـألتني بحقّـك

---

(1) انظر مقالة عبد العزيز احمد في مجلة الاديب عدد نيسان 1943
(2) العقد الفريد : ج 2 ، ص26
(3) الامالي : ج1 ، ص46-47

لأخبرتك ، نعم ، بينا أنا أسير في بعض الفلوات ، إذ أنا برجل قد نصب حبائله فقلت له : ما أجلسك ها هنا ؟ قال : أهلكني وأهلي الجوع ، فنصبت حبائلي لأصيب لهم ولنفسي ما يكفينا سحابةَ يومنا ، قلت : أرأيت إنْ أقمت معك ، فأصبنا صيداً ، أتجعل لي منه نصيباً ؟ قال : نعم ، فبينما نحن كذلك ، إذ وقعت ظَبْيَةٌ فخرجنا مبتدرين ، فأسرع إليها ، فحلها ، وأطلقها ، فقلت : ما حملك على هذا ؟ قال : دخلتني لها الرقّة لشبهها بليلى ، وأنشأ يقول :

أيا شبهَ ليلى لا تراعي فإنّني ... لكِ اليومَ من وحشيّةٍ لَصديقُ
أقول وقد أطلقتُها من وثاقها ... لأنت لليلى ما حييتُ طليقُ »[1]

« وأهدى إلى عبد الملك أترسة مكلّلة بالدّرّ والياقوت ، فأعجبته ، وعنده جماعة من خاصته ، وأهل خلوته ،فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد : اغمز منها ترساً وأراد أن يمتحن صلابته ، فقام ، فغمزه ، فضرط ، فاستضحك عبد الملك ، فضحك جلساؤه ، فقال : كم دية الضرطة ، فقال بعضهم : أربعمائة درهم وقطيفة . فأمر له بذلك ، فأنشأ يقول رجل من القوم :

أيضرط خالدٌ من غمزِ ترسٍ ... ويحبوه الأميرُ بها بدورا
فيا لكِ ضرطة جلبت غناء ... ويا لكِ ضرطة أغنت فقيرا
يودّ النّاس لو ضرطوا فنالوا ... من المال الذي أعطى عشيرا
ولو نعلمْ بأنّ الضرط يُغني ... ضرطنا أصلح اللّه الأميرا

فقال عبد الملك : أعطوه اربعة آلاف درهم ، ولا حاجة لنا في ضراطك »[2]

« ودخل الأخطل على عبد الملك ، وهو مغموم وعنده رجل كان يحسده الأخطل ويعارضه ، فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ، عهدي بأبي هذا الفتى وهو سيّدنا معشر بني جشم ، وشيخنا الذي نصدر عن رأيه ، فاهتزّ لها الفتى وقال : يا أمير المؤمنين ، هو أعلم بنا قديماً وحديثاً ، قال الأخطل : إنّ أباه أمرنا ذات يوم وقد نورّت الرّياض ، أنْ نخرج إلى روضة في ظهر الحي ، فنتحدّث فيها ، فخرجنا

---

(1) زهر الاداب : ج 1 ، ص353-354
(2) مروج الذهب : ج 3 ، ص63

وابتسطنا لعباً . . . وقام الفتيان ، فاجتزروا ، واشتووا ، ودارت السّقاة علينا ، فبينما نحن كذلك رغف أبوه ، فما تركنا في الحي روثة حمار إلاّ نشقناه إيّاه فلم يرقأ دمه ، فقال لنا شيخ : شدوا خصيّ الشّيخ عصباً ، ففعلنا ذلك ، فرقأ الدم ، فواللّه ، ما دارت الكأس إلا دورة حتّى أتانا الصريخ عن أمّه أنّها رعفت ، فبادرنا إليها ، فوالله ما درينا ما نعصب منها حتّى خرجت نفسها ، وعبد الملك يفحص برجليه ضحكاً ، والفتى يقول : كذب واللّه ، فقال عبد الملك : ألم تزعنم أنّه أعلم النّاس بقديمكم وحديثكم ؟ »[1] .

ومن عبثه ومزاحه ، أنْ قال يوماً لروح بن زنباع ، وكان عنده أثيراً : « أرأيت امرأتي العبشمية ؟ قال : نعم ، قال : بماذا تشبهها ؟ قال : بمشجبٍ بالٍ قد أسيءَ صنعه ، قال : صدقت ، وما وضعت يدي عليها قط ، إلا كأنّي وضعتها على الشكاعي ، وأنا أحبّ أنْ تقول ذلك إلى ابنيها الوليد وسليمان ، فقام إليه فزعاً ، فقبّل يده ورجله وقال : أنشدك اللّه يا أمير المؤمنين ، أن لا تعرضني لهما ، قال : ما من ذلك بد ، وبعث مَنْ يدعوهما ، فاعتزل روح ، وجلس ناحية من البيت ، فقال لهما عبد الملك أتدريان لِمَ بعثتُ إليكما ؟ إنّما بعثت لتعرفا لهذا الشيخ حقّه وحرمته ، ثم سكت »[2]

« ودخلت بُثينة على عبد الملك بن مروان ، فرأى امرأة خلفاء مولّية ، فقال لها : ما الذي رأى فيك جميل ؟ قالت : الذي رأى فيك النّاس حين استخلفوك ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سنّ سوداء كان يسترها »[3] .

« ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان وهو يتأوّه ، فقال يا أمير المؤمنين ، لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب وفنون الأسمار ، قال : لست صاحب هزل ، والجدّ مع علتي أحجى بي ، قال : وما علّتك يا أمير المؤمنين ، قال : هاج بي عرق النّسا في ليلتي هذه ، فبلغ مني ، قال : فإنْ بُدَيْحاً مولاي أرقى النّاس منه فوجّه إليه عبد الملك ، فلمّا مضى الرّسول ، سقط في يدي

(1) عيون الاخبار : ج 3 ، ص319-320
(2) العقد الفريد : ج 7 ، ص107-108
(3) الاغاني : ج 7 ، ص93

بن جعفر ، وقال : كذبة قبيحة عند خليفة ، فما كان بأسرع من أن طلع بُدَيح ، فقال (عبد الملك) كيف رقيتك من عرق النّسا ؟ قال : أرقى الخلق يا أمير المؤمنين ، . . . فَسُرّي عن عبد الله ، لأن بُدَيْحاً كان صاحب فكاهة يعرف بها ، فمدّ (عبد الملك) رجله ، فتفل عليها (بُديح) ، ورقاها مراراً ، فقال عبد الملك : الله أكبر وجدت خفّاً ، يا فلان ادع فلانة حتى تكتب الرقيّة ، فإنّا لا نأمن هيجها بالليل ، فلا نذعر بُدَيْحاً ، فلمّا جاءت الجارية قال بديح : يا أمير المؤمنين ، امرأته طالق[1] ، إنْ كتبتها حتّى تعجّل حبائي ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فلمّا صار المال بين يديه : قال : وامرأته طالق ، إن كتبتها أو يصير المال الى منزلي ، فأمر به فحمل إلى منزله ، فلما أحرزه ، قال : يا أمير المؤمنين امرأته طالق ، إنْ كُنْتُ قَرَأْتُ على رجلك إلاّ أبيات نُصَيب :

ألا إنّ ليلى العامريّة أصبحت　　على النّأي منّي ذنب غيري تنقمُ

وذكر الأبيات وزاد فيها :

وما زلت استصفي لك الودّ ابتغي　　محاسنَه حتّى كأنّي مجرمُ

قال : ويلك ، ما تقول ؟ قال عبد الله بن جعفر : امرأته طالق ، إنْ كان رقاك إلاّ بما قال ، قال : فاكتمها عَلَيّ ، قال : وكيف ذلك ؟ وقد سارت بها البُرُد إلى أخيك بمصر ، فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برجليه »[2] .

« ووفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، فأقام عنده حيناً ، فبينما هو ذات ليلة في سمره ، إذ تذاكروا الغناء ، فقال عبد الملك : قبّح الله الغناء ، ما أوضعه للمروءة ، وأحرجه للعرض ، وأهدمه للشّرف ، وأذهبه للبهاء ، وعبد الله ساكت ، وإنّما عرّض بعبد الله ، وأعانه عليه ، مَنْ حضر من أصحابه ، فقال عبد الملك : ما لك يا أبا جعفر لا تتكلّم ؟ قال : ما أقول ؟ ولحمي يتمزّع وعرضي يتمزّق ، قال : أما إنّي نُبّئْتُ أنّك تغني ، قال : أجل ، يا أمير المؤمنين ، قال : أفّ لك وتف ، قال : لا أفّ ولا تفّ ، فقد تأتي أنت بما هو أعظم من

---

(1) بالاصل : الطلاق .

(2) الاغاني : ج 14 ، ص10

ذلك ، قال : وما هو ؟ قال يأتيك الأعرابي الجافي يقول الزّور ويقذف المحصنـات ، وتأمر له بألف دينار، وأشتري أنـا الجاريـة الحسناء من مـالي فاختـار لها من الشعـر أجـوده ، ومن الكلام أحسنـه ، ثم تردّده عَلَيّ بصـوت حسن ، فهل بـذلـك بـأس ؟ قـال : لا بـأس ، ولكن أخبـرني عن هـذه الأغـاني »[1] . فهنـا مقـابلة بين الشّعـر وإنشـاده على طريقـة المدح والهجـاء وبين الغناء ، ويقف عبـد الملك ضـدّ الغنـاء ويقف ابن جعفر مدافعاً عنه ، فيلين عبد الملك ، ويطلب شيئاً من هذه الأغاني .

ودخل ابن شهاب الزّهري على عبد الملك في رجال من أهلْ المدينة ، قال : فـرآني أحْدَثَهم سنـاً ، فقال لي : مَنْ أنت ؟ فـانتسبت له ، فقـال : لقد كـان أبـوك وعمّـك نعّاقين في فتنـة ابن الأشعث ، فقلت : يا أميـر المؤمنين ، إنّ مثلك إذا عفا لم يعنّف ويعدّد ، وإذا صفح لم يثرّب . فأعجبـه ذلك ، وقـال : أين نشأت ؟ قلت بـالمدينـة . قـال : عنـد مَنْ طلبت ؟ قلت : سعيـد بن المسيّب وسليمـان بن يسّـار وقُبَيْصـة بن ذُؤيب . قال : فـأين أنت من عُـروة بن الـزُّبيـر ؟ فـإنّـه بحـر لا تكـدّره الدّلاء ، فلمّا انصرفت من عنده ، لم أبـارح عروة بن الـزُّبير حتى مـات »[2] . فهو دائم التطلّع الى المعرفة يحترم أصحابها ، ويعرف أحوالهم ومراتبهم .

« ودخل رجل من أهل الشّام على عبد الملك بن مروان ، فقال : إنّي تزوجت امرأة وزوجت ابني أمّها ، ولا غنى بنا عن رفدك ، فقال له عبد الملك : إنْ أخبرتني ما قرابة ما بين أولادكما إذا أولدتما فعلت ، قال : يا أمير المؤمنين ، هـذا حُمَيْد ابن بجـدل قد قلّدتـه سيفك ، وولّيتـه ما رواء بـابك ، فسله عنهـا ، فإنْ أصـاب لـزمني الحـرمان ، وإنْ أخـطأ اتّسع لي العـذر ، فدعـا بالبجـدلي فسألـه ، فقال : يـا أميـر المؤمنين ، إنّـك ما قـدّمتني على العلم بالأنسـاب ، ولكن على الطعن بـالـرّمـاح ، أحدهما عمّ الآخر والآخر خاله »[3]. فعبد الملك يعطي ويرفد من يسأله ولكن يريد ان يعلم مدى اتساع افق من يستعطيه .

وقد استنكر من خالد بن يزيد ان يكلمه في اخيه عبد الله ، لان عبد الله كـان

---

(1) العقد الفريد : ج 7 ، ص50-51

(2) نفسه : ج 2 ، ص16-82

(3) عيون الاخبار : ج 1 ، ص65

يلحن[1]، وكان يقول : « اللحن هجنة على الشّريف[2]، والإعراب جمال للوضيع »[3] . وكان يقول أيضاً : « اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه ، وقيل له : لقد عجّل عليك الشّيب يا أمير المؤمنين ، قال : شيّبني ارتقاءُ المنابر وتوقّع اللحن »[4] . وقال الشّعبي : « ما جالست أحداً قط إلاّ وجدت لي الفضل عليه ، إلاّ عبد الملك بن مروان ، فإنّي ما ذاكرته حديثاً ، إلاّ زادني منه ولا شعراً إلاّ زادني فيه »[5] .

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه : « ألا تتعجّبون من الضّحّاك بن قيس ، يطلب الخلافة ونطح أباه كبشٌ فوُجِدَ ليس به حبض ولا نبض »[6] .

ولمّا كان الشّعبي في سفارة إلى ملك الرّوم ، سأله ملك الروم إن كان من بيت المملكة ، فأجابه الشّعبي بالنفي ، فأرسل إلى عبد الملك رسالة ومعها رقعة فلمّا فتحها عبد الملك وجد فيها « العجب لقوم فيهم مثل هذا ، كيف ولّوا امورهم غيره ؟ قال (الشعبي) ودعاني (عبد الملك) فقال لي : أفتدري ما أراد بهذا ؟ قلت : لا ، قال : حسدني عليك ، فأراد أنْ أقتلك ، . . . فقلت : إنّما حزت عنده يا أمير المؤمنين ، لأنّه لم يَرَكَ ، قال (الشعبي) فرجع الكلام إلى ملك الرّوم ، فقال : : لله ابوه ، ما عدا ما في نفسي »[7].

لعلنا : استطعنا تمثّل الصوّرة لمجالس عبد الملك الأدبيّة ، هذه المجالس التي تعطي صورة عن معارف العصر من جهة ، وتدلّ على طلب عبد الملك لها من جهة ثانية ، هو في هذا المجالس يعطي ويأخذ ، ويعلّم ويتعلّم ، يرسل للشّعبي ليناقله الحديث ، فيعلّمه أدب وقواعد المنادمة للملوك ، يعلم مقدار المعرفة عند كلّ مَنْ يجالسه أو يتتبع أخباره ، ويتجنّب مجالسة غير العلماء الأدباء ، يأخذ المعرفة

---

(1) الكامل في اللغة والادب ، ج 1 ، ص196-197
(2) البيان والتبيين : ج 2 ، ص216
(3) العقد الفريد : ج 2 ، ص479
(4) نفسه : ج 2 ، ص318,275
(5) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61-69
(6) الحيوان : ج 1 ، ص260
(7) مروج الذهب : ج 3 ، ص59-60/ الكامل في اللغة : ج 1 ، ص307

أخذ النّهم للطّعام ، ويحول موائده ومجالس سمره إلى ندوات أدبيّة ، يسأل فيها الأسئلة ، ويرصد للمجلّي فيها الجوائز ، يخوض في كلّ فن ، يروي الحديث وأخبار القبائل ، ويعلم الأنساب ويفاخربها ، ويخوض في الأدب وعلم الفلك .

ويرصّع رسائله في بعض الأحيان بالأحاجي الأدبيّة . ويتعرّف على الشّعراء من ألسنتهم ويتتبّع أخبار المجلين منهم . ورغم إحضاره الأدباء لتأديب أولاده فإنّه يجالسهم ، ويعلم على شحذ عقولهم ، وتنشيط مواهبهم ويحضّهم على تعلّم الأدب .

يسأل الشّعراء عن النّوادر المستملحة التي تحصل معهم ، ويتتبّع أخبار العشّاق من الشّعراء ، ويستمع لهم في منافراتهم ومنازعاتهم .

يكافيء صاحب العلم والرّواية ، ويردّ المكافأة عن الذين يتوسمها بهم فلا يجدها . ويعفو عن المذنب مهما كان ذنبه عظيماً ، عندما يحسن الأخير الخطاب ، ويردّ فيحسن الجواب . وهو على ذلك يملك حسّاً نقدياً رفيعاً ، يستطيع من خلاله التعرّف على الأشخاص من خلال النصوص . ويكرّم رجال الأدب ، ويرقّ لهم ، ويمدّهم بالمساعدة .

ويتحوّل الأدب في قصره إلى نوع من التّرف ، التّرف الفكري اللذيذ حتى يزّين موجوداته بالأشعار الخفيفة الرّشيقة ، وكان صاحب أحاسيس مرهفة حتّى ليبكيه بيت من الشعر ، يمثّل الأمثال ، وينشد الأشعار ، ويقابل بين مجالس الأدب ومجالس الغناء . صاحب فكاهة ، يتقبّلها من منادميه وجلسائه ، ويعلم مراتب العلماء وأهل الفضل ، يكره اللحن ويقبّحه ويستهين بِمَنْ لا يملك لساناً عربياً قوياً . وقد علم كلّ مَنْ اتّصل به أنّه كان واسع الرّواية ، كثير الدّراية ، صاحب فطنة وذكاء .

وروح عبد الملك الأدبيّة لم تقتصر على إدارة المجالس الأدبيّة ، والمشاركة فيها ، وإنّما تعدّتها للتمثّل بالأشعار حسب المناسبات وما يلائمها ، وأدلى دلوه بالنّقد ، وخطب الخطب وكتب الرّسائل ، وسنحاول الآن التعرّف على ما تمثّل به عبد الملك من الأشعار ، أو على بعضه ، ونقابل بين هذه الأشعار والمناسبات التي تمثّل عليها بها ، لنرى إنْ كانت تتلاءم وتتّحد ، أو تتنافر وتبتعد .

تمثّله بالشّعر

إنّ أوّل ما يطالعنا في معرض الحديث عن عبد الملك والشّعر سؤال ، هل كان عبد الملك شاعراً ؟ إنّ الجواب عن هذا السؤال يسير لأنّ كتب الأدب لم تروِ لنا شعراً منسوباً لعبد الملك باستثناء كتاب الأغاني الذي رَوَى أنّ بيتين من الشّعر قد نظمها عبد الملك ولكنّه نسب الرّواية لمجهول ونحن نضعّف هذه الرّواية من وجهين : الأوّل أنّ الأصبهاني قال : يُرْوَى أنّه قائل هذا الشّعر فلم ينسب الرّواية لأحد من الرّواة وفي ذلك تضعيف لها وهو على كلّ حال لم يروِ له غيرها .

والثّاني أنّ كتب الأدب التي بأيدينا لم تأتِ على ذكر عبد الملك الشّاعر إنّما أتت على ذكره خطيباً وناقداً وأديباً .

وأكبر الظّنّ أنّ مَنْ روى هذين البيتين ونسبهما لعبد الملك إنّما التبس الأمر عليه لشدّة المناسبة وقربها منهما . فقد « دخل ابن عبدل على عبد الملك ليلة ، وقال ، وكان ابن الزّبير قد ظفر بالعراق :

يا ليت شعري وليت ربّما نفعت	هل أبصرنّ بني العوام قد شُمِلوا
بالذلّ والأسر والتشريد إنّهم	على البريّة حتف حيثما نزلوا
أم هل أراك بأكتاف العراق وقد	ذلّت لعزك أقوام وقد نكلوا

فقال عبد الملك . . .

إن يمكن اللّه من قيسٍ ومن جدسٍ	ومن جذام ويقتلْ صاحب الحرمِ
نضربْ جماجمَ أقوامٍ على حنقٍ	ضرباً بنكلٍ عفا عن غابر الأممِ[1]

فقرب الشّعر الذي تمثّل به عبد الملك من المناسبة حتّى بدا وكأنّ هذا الشّعر لم يُنْظَمْ ليُقال في هذا المقام أغرى البعض بنسبته الى عبد الملك ، والحقيقة أنّ عبد الملك أنشد هذا الشعر على سبيل التمثّل . لا ننكر قدرته على نظم الشّعر ، قد ينظمه على سبيل الهواية ، ولكن مركزه كخليفة ، يستقبل الشّعراء وينقد أشعارهم ربّما دفعه إلى إخفاء شعره . وقد أعجب بعروة بين الورد وقال : « ما يسّرني أنّ أحداً من العرب مِمّنْ لم يلدني ولدني إلاّ عُروة بن الورد لقوله :

(1) الاغاني : ج 2 ، ص156

وإنّي امـرؤٌ عـافي إنـائي شِـرْكـةٌ وأنت امـرؤ عـافي إنـائـك واحـدُ
أتهـزأ مـنّي أنْ سمـنتَ وأنْ تـرى بجسمي شحوبَ الحقّ والحقُّ جاهدُ
أفـرّق جسمي في جسـوم كثيـرة وأحسـو قَـراحَ المـاءِ والمـاءُ بـاردُ

ويقـال : إنّ عبد الملك قـال : إنّ مَنْ زعم أنّ حاتمـاً أسمح النّـاس فقـد ظلم عُروة »[1]فإعجابه بكرم عُروة ، دعاه لرواية شعره الذي يمثّل هـذا الكرم حتّى تمنّى أنْ يكون بينه وبين عُروةَ نسب .

« وأصبح عبد الملك يوماً في غداة باردة فتمثّل قول الأخطل :

إذا اصـطبـح الفتى منهـا ثـلاثـاً بـغيـر الـمـاء حـاول أنْ يـطولا
مـشى قُـرَشـيّـة لا شـكّ فـيـهـا وأرخـى مـن مـآزره الـفـضـولا

ثمّ قال : كأنّي أنظر إليه السّـاعة مجلّل الإزار ، مستقبـل الشّمس في حانـوت من حوانيت دمشق ، ثمّ بعث رجلاً يـطلبه فـوجده كمـا ذكره »[2] . وظـاهر أنّ عبـد الملك اشتهى الخمر فتمثّل بما تمثّل ـ « ولمّا أراد عبد الملك الخروج لقتال مصعب لاذت به عاتكة بنت يزيـد بن معاويـة ، وقالت : يـا أمير المؤمنين ، لا تخـرج السّنة لحرب مصعب ، فإنّ آل الزُّبير ذكروا خروجك وابعث إليه الجيوش ، وبكت وبكى جواريها معها ، وجلس ، وقال : قاتل اللّه ابن أبي جمعة فأين قوله :

إذا مـا أراد الغـزو لم يثنِ هـمّـه حصـان عليهـا عقـد دريـزينهـا
نهتـه فلمّـا لم تَـرَ النّهي عـاقـه بكت ، فبكى ممّـا شجاهـا قـطينهـا

. . . لكأنّه يراني ويراكِ يا عاتكة ثمّ خرج »[3] .

فعبد الملك صمّم على قتال مصعب ، وتأثر بما قالت زوجتـه ، وهي تبكي ، وتذكّر كُثيّـر ما قـاله وانـطباقـه على هذه المنـاسبة ، فحتّى عبـد الملك ظنّ أنّ كُثيّراً يصف واقع حاله في لحظة الوداع . ولمّا دخل سلمة بن زيـد بن نباتـة الفهمي على

---

(1) العقد الفريد : ج 1 ، ص161/ الاغاني : ج 2 ، ص190-191 وبين الروايتين اختلاف في اللفظ
(2) المرجع نفسه : ج 7 ، ص173
(3) طبقات الشعراء : ص 123 ، العقد : ج 5 ، ص146 الأغاني : ج 8 ، ص35/الامالي : ج 1 ، ص13/التاريخ الكامل ج 4 ، ص157-161

عبد الملك ، فقال له : أيّ الزّمان أدركت أفضل ؟ وأيّ الملك أكمل ؟ قال : أمّا الملوك ، فلم أرَ إلّا ذامّاً حامداً ، وأمّا الزّمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ، وكلّهم يذمّ زمانه ، لأنّه يبلي جديدهم ، ويهرم صغيرهم ، وكلّ ما فيه منقطع غير الأصل ، قال : أخبرني عن فهم ، قال : هم كما قال من قال :

درج الليل والنّهار على فهـ ـم بن عمرو فأصبحوا كالرّميمِ
وخلت دارُهم فأضحت يباباً بعد عزٍّ وثروةٍ ونعيمِ
وكذاك الزّمان يذهب بالنّا سِ تبقى ديارُهم كالرسوم

قال فَمَنْ يقول منكم :

رأيت الناسَ مذ خَلِقوا وكانوا يحبّون الغنّي من الرّجالِ
وإنْ كان الغنيُّ قليلَ خيرٍ بخيلاً بالقليل من النّوالِ
فما أدري علامَ وفيمَ هذا وماذا يرتجون من البخالِ
اللدّنيا ؟ فليس هناك دنيا ولا يُرجى لحادثة الليالي

قال : أنا »[1] . فخاطبه لواحد من بني فهم ، وحديثه عن هذه القبيلة ، جعله ينشد هذه الأبيات التي كان يستحسنها .

« ووقف عبد الملك يوماً على قبر معاوية ، فقال : تالّله ، أنْ كنتَ ما علمتُ ، لينطقك العلمُ ، ويسكتك العلم ، ثمّ انشأ يقول :

وما الدهر والأيّام إلّا كما ترى رزيئةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ»[2]

« وكان إذا جلس للقضاء تمثّل :

إنّا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السّامعُ للقائلِ
واصطرع القوم بألبابهم نقضي بحكمٍ عادلٍ فاصلِ
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلفظ دون الحقّ بالباطلِ
نخاف أن تُسفهَ أحلامنا فنخمل الدّهرَ مع الخاملِ»[3]

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص420-421
(2) العقد : ج 3 ، ص174
(3) الاغاني: ج 19، ص 101، البداية والنهاية، ج9، ص 61 وما بعدها وفيها «فنجهل.. مع الجاهل».

ويجتهد عبد الملك في الحكم بين الخصمين ، وما أقرب المشاكلة بين هذه الابيات وجلوس القاضي للحكم بين الناس .

و« كان عُروة بن الزُّبير ، لحقَ بعبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد اللّه بن الزُّبير ، فكان إذا دخل إليه منفرداً ، أكرمه ، وإذا دخل إليه وعنده أهل الشّام ، استخف به ، فقال له يوماً : يا أمير المؤمنين ، بئس المزور أنْتَ ، تكرم ضيفك في الخلا ، وتهينه في الملا ، فقال : لله درّ زهير حيث يقول :

فقرّي في بلادك إنّ قوماً　　متى يدعوا بلادهم يهونوا

ثمّ استأذنه (عُروة) في الرّجوع إلى المدينة ، فقضى حوائجه وأذن له »[1] .

وواضح هنا المناسبة التي حدت عبد الملك أنْ يتمّثل بما تمثّل ، ليفهم عُروة ، بأنّ الإنسان لا يكرّم ، إلاّ في بلاده ، وقد حان له أنْ يعود الى المدينة لأنّها بلده ، وليس الشّام إلاّ مكاناً للزّيارة لا للمقام . « ودخل أميّة بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد على عبد الملك بن مروان، وبوجهه أثر . فقال(عبد الملك) ما هذا ؟ قال : قمت بالليل ، فأصاب الباب وجهي : فقال عبد الملك :

رأتني صريح الخمر ، يوماً يسؤها　　وللشّاربيها المدمنيها مصارعُ

فقال : لا آخذ اللّه أميرَ المؤمنين بسوء ظنّه ! فقال : بل أخذك اللّه بسوء مصرعك »[2] .

و« سابق عبد الملك بين سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان مسلمة ، فقال عبد الملك :

ألم أنهَكُمْ أنْ تحملوا هجناءَكم　　على خيلكم يوم الرّهان فتُدْرَكُ
وما يستوى المرء ان هذا ابن حرّة　　وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّكُ
وتضعف عضداه ويقصُرُ سوطُهُ　　وتقصرُ رجلاه فلا يتحرّك
وادركهُ خالاتُه فَنَزَعْنَهُ　　ألا إنّ عِرْقَ السّوء لا بدّ يدرك

(1) الاغاني : ج 9 ، ص154-155
(2) العقد : ج 8 ، ص48

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هُبيرة الشيباني فقال : اتدري من يقول هذا ؟ قال : لا أدري ، قال : يقوله اخوك الشّنّيّ »[1] . فسليمان ومسلمة ابنان لعبد الملك وسليمان بن العبشيمة الحرّة ومسلمة بن أمّ ولد ، وتشاء الصدف أنْ يفوز بالسّباق سليمان فينشد عبد الملك قول الشّنّيّ متمثّلا به على نتيجة السّباق .

وكان يتمثل بقول شبيب بن البرصاء في بذل النفس عند اللقاء حيث يقول :

دعاني حصن للفرار فساءني ... مواطن أنْ تثني عَلَيّ فأُشْتَما
فقلت لحصنٍ نحِّ نفسَك إنّما ... يذود الفتى عن حوضه أنْ يهدما
تأخّرتُ استبقي الحياة ولم أجد ... لنفسي حياةً مثل أنْ أتقدّما
سيكفيك أطرافَ الأسنّة فارسٌ ... إذا ريعَ نادى بالجواد وبالحمى
إذا المرء لم يغش المكارهَ أوشكت ... حبالُ الهوينا بالفتى أن تجذما[2]

ومعاني هذه الأبيات تصوّر القّصة في البسالة والإقدام في الحرب مخافة الذّلّ من الهزيمة . و« كتب عبد الملك بن مروان الى الحجّاج بن يوسف :

ولا تفشِ سرّك إلاّ إليك ... فإنّ لكلّ نصيح نصيحا
وإنّي رأيت غواة الرّجال ... لا يتركون أديماً صحيحاً »[3]

كان الحجّاج قد أرسل الى عبد الملك عمران بن عصام العنزي يحرّضه في البَيْعةِ للوليد بولاية العهد بدل أخيه عبد العزيز بن مروان ، فلمّا دخل على عبد الملك ، قال :

أمير المؤمنين إليكَ أهدي ... على الشّحط التحيّة والسّلاما
أميرٌ من بنيك يكن جوابي ... لهم أكرومةً ولنا نظاما
فلو أنّ الوليدَ أطاع فيه ... جعلت له الإمام والذّماما[4]

ثمّ انحاز عمران بن عصام إلى ابن الأشعث فظفر به الحجّاج فقتله ، فبلغ

---

(1) العقد : ج 7 ، ص123

(2) الاغاني : ج 11 ، ص97-98

(3) العقد : ج 1 ، ص49

(4) تاريخ الرسل : ج 6 ، ص413 الاغاني : ج 16 ، ص 60

ذلك عبد الملك فقال : « قطع اللّه يدي الحجّاج ، أقتله ؟ وهو الذي يقول :

وبعثت من ولـد الأغـرّ معتّب   صقراً يلوذ حمامه بالعوسجِ
وإذا طبخت بنـاره أنضجتها   وإذا طبختَ بغيرها لم تنضجِ (1)

« ولمّا مات عبد العزيز بن مروان ، ونُعِيَ إلى أخيه عبد الملك تمثّل بأبيات الخارجي هذه ، وجعل يردّدها ويبكي :

يـا أيهـا المتمنّي أنْ يكـونَ فتى   مثلَ ابنِ ليل لقد خلّى لك السّبلا
إن ترحلِ العيسُ كي تسعى مساعيه   يُشفقْ عليكَ وتعملْ دون ما عملا
لو سرتَ في النّاس أقصاهم وأقربُهم   في شقّة الأرض حتّى تحسرَ الإبلا
تبغي فتى فوق ظهر الأرض ما وجدوا   مثل الذي غيّبوا في بطنها رجلا
أعـددْ ثلاث خـلالٍ قد عرفن له   هل سُبَّ من أحدٍ أو سبّ أو بخلا »(2)

« وقال عبد الملك بن مروان لأبي العبّاس الأعمى مولى بني الدّيل ، أنشدني مديحك مصعباً فاستعفاه ، فقال صدقت ، ولكن أنشدني ما قلته ، فأنشده :

يـرحـم اللّه مـصـعـبـاً فـلقـد   مات كريماً ورام أميراً جسيما

فقال عبد الملك : أجل مات كريماً ثمّ تمثّل :

ولـكنّـه رام الـتي لا يـرومهـا   من النّاس إلاّ كلّ حرّ معمّمِ »(3)

وتمثّل عبد الملك في أميّة بن عبد اللّه بن خالد ، لما هُزِمَ وانحاز أمام أبي فُدَيْك :

إذا صـوّت العصـفـور طـار فؤاده   وليث حديد النّاب عند الثّرائد(4)

و« قال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده ، روّيتهم شعراً فلا تروّهم ، إلاّ مثل قول ابن العُجَير السلولي :

(1) تاريخ الرسل : ج 6 ، ص413 ـ الاغاني : ج 16 ، ص60
(2) الاغاني : ج 14 ، ص153
(3) المرجع نفسه : ج 15-62
(4) عيون الاخبار : ج 2 ، ص166

يَبينُ الجار حين يبين عنّي ... ولم تأنس إليّ كلابُ جاري
وتظعنْ جارتي من جنب بيتي ... ولم تستر بستر من جداري
وتأمن أنْ أطالع حين آتي ... عليها وهي واضعة الخمارِ
كذلك هديُ آبائي قديماً ... توارثه النّجارُ عن النّجارِ
فهديي هديُهم وهم افتلوني ... كما افتلي العتيق من المهارِ[1]

« وكان عبد الملك إذا رأى أخاه معاوية ـ وكان ضعيفاً ـ يتمثّل بهذين البيتين وهما للمغيرة بن حنباء في أخيه صخر :

أبوك أبي وأنت أخي ولكن ... تفاضلتِ الطبائعُ والظّروف
وأمّك حين تُنْسَبُ أمّ صدقٍ ... ولكن إبنها طبع سخيف»[2]

« ووفد عُروة بن أذينة على عبد المك بن مروان في رجال من أهل المدينة ، فقال له عبد الملك : ألست القائل يا عُروة :

أسعى له فيعنيني تطلّبه، ... فما أراك إلاّ وقد سعيت له ،

فخرج عنه عُروة ، وشخص من فوره ذلك إلى .المدنية . فافتقده عبد المك ، فقيل له : توجّه إلى المدينة . فبعث إليه بألف دينار ، فلمّا أتاه الرسول ، قال : قل لأمير المؤمنين ، الأمر على ما قلت ، قد سعيت له فعنّاني تطلّبه ، وقصدت عنه ، فأتاني لا يعنّيني »[3] .

« وقال الشعبي : دخلت على عبد الملك ، في علته التي مات فيها ، فقلت : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت كما قال عمرو بن قميئة :

كأنّي وقد جاوزت سبعين حجّةً ... حلعت بها عنّي عِذارَ لجامي
على الرّاحتين مرّة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدَهنّ قيامِ
فلو أن ما أُرْمَى بنبلٍ رميتُها ... ولكما أُرْمَى بغير سهامِ
رمتني بناتُ الدّهر من حيث لا أرى ... فما بالُ مَنْ يُرمى وليس برامِ

(1)الاغاني : ج 11 ، ص158
(2) المرجع نفسه : ج 11 ، ص170
(3) العقد : ج 3 ، ص139-140



فلو ان مـا أُرمي بنبـل رميتهـا ولـكنـما أُرمـي بـغـير سـهـام
إذا مـا رأني النّـاسُ قـالـوا ألمْ يكنْ حـديثاً جديدَ البـرى غيـرَ كهـامِ
وأهـلكنـي تـأميـلُ يـومٍ وليـلةٍ وتـأميلُ عـامٍ بعـد ذاك وعـامِ » [1]

وقد رأينا في فصل « حياة عبد الملك بن مروان كثيراً من تمثّله بالشّعر عند الوفاة ، وكذلك في فصل الصّراع على الزعامة الأمـويّة فقـد تمثّل بـالعديـد من الأبيات في قتله لعمرو بن سعيد ابن أبي العاص .

ولما قتل الحجّاج بنَ الأشعث أرسل برأسه مع عرار بن شـأس الأسدي إلى عبـد الملك ـ وكان أسود ، دميماً ـ « فلمّا ورد به عليه ، جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقيعة ، إلاّ أنبأه به عرار في أصحّ لفظ ، وأشبع قول ، وأجزأ اختصار ، فشفاه من الخبر ، وملأ أذنه صواباً ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته عينه ، حيث رآه ، فقال عبد الملك متمثّلا :

أرادت عِـراراً بـالهـون ومـن يُـردْ لعمـري ، عراراً بـالهـوان فقـد ظلم
وإنّ عــراراً إنْ يـكن غـيـرَ واضـعٍ فـإنّي أحبُّ الجَـوْنَ ذا المنكب العم

فقال له عرار : أتعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، قال : فأنا واللّه عرار ، فزاده في سروره ، وأضعف له الجائزة »[2]فعبد الملك لم يرةِ الشّعر القديم فحسب وإنّما روى الشّعرَ المعاصر ودخل عبد الملك على زوجته عاتكة ، فوجد عندها امـرأة فسأل عنهـا ، فقالت أنا ليلى الأخيلية ، قال « انت التي تقولين :

أُريقَتْ جفـان ابن الخليـع فـأصبحت حيـاض النّـدى زلّت بهنّ المـراتـبُ
فـهـي وعـفـى بـطن قـودٍ وحـولـه كمـا انقضّ عرش البئـر والورد عـاضب

قالت : أنا التي أقـول ذلك . قـال : ما أبقيتِ لنـا ، قالت : الـذي أبقاه اللّه لك ! قال : وما ذاك ؟ قالت : نسباً قِرشيّاً ، وعيشاً رخيّاً ، وامرأة مطيعة قال : أفردته بالكرم ، قالت أفردته بما أفرده اللّه به »[3] .

---

(1) الامالي : ج 16 ، ص165 . العقد ج : 1 ، ص274-275 مع اختلاف في ترتيب الايام
(2) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص160-161 ـ الاغاني : ج 10 ، ص65
(3) المرجع نفسه : ج 10 ، ص82-83

وأرسل له صاحب اليمن في زمن ثورة ابن الأشعث جارية جميلة أعجبته ، فهمّ بها ثمّ أمسك ، فسألته فقال : « يمنعني ما قاله الأخطل ، لأنّي إنْ خرجت منه ، كنت ألأم العرب :

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت فأطهار

فما إليك سبيل، أو يحكم اللّه بيني وبين عدو الرحمن بن الأشعث فلم يقربها حتى قتل عبد الرحمن »[1] .

ولكن هل كان عبد الملك يتمثّل بالاشعار في مجالسه الخاصة والعامّة فقط ؟ لا ، وإنّما بخطبه ورسائله أيضاً ، إذ لم يَرَ مثل الشعر يعبّر به عمّا يعتمل في صدره من أحاسيس وانفعالات إثر الحوادث التي غالباً ما تكون موضوعاً لهذه الخطب والرّسائل . فقد تمثّل في جوابه لابن الأشعث :

ما بالُ مَنْ أسعى لأجبر عظمَه   حِفاظاً وينوي من سفاهته كسرى
أظنُّ خطوب الدّهر بيني وبينهم   ستحملهم منّي على مَركب وعرِ
وإنّي وإياهم كمن نبّه القَطا   ولو لم تُنَبّه باتت الطيرُ لا تسرى
أناةً، وحلماً وانتظاراً بهم غداً   فما أنا بالواني ولا الضَرَعِ الغُمْرِ[2]

وعندما خطب في أهل المدينة ، تمثّل بحكاية الأخوين والحيّة وشعر النابغة فقال :

فقالت : أرى قبراً تراه مقابلي   وضربة فأس فوق رأسي فاقره[3]

وذلك أنّ أهل المدينة لم ينصروا عثمان بن عفان (رضي) وأوقع بنو أميّة بهم في وقعة الحرّة . فتمثّل بالشعر على ذلك .

« وكتب عبد الملك إلى عبد اللّه بن الزُّبير كتاباً يتوعّده فيه وكتب فيه والشّعر للعبّاس بن مرداس :

---

(1) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص160-161
(2) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص160-161 ـ الاغاني : ج 19 ، ص140
(3) مروج الذهب : ج 3 ، ص64

إنّي لعنـد الحـرب تـحمـل شـكّتي   إلى الـروع جرداء البسـالة ضـامـر»[1]

وعندما خطب بالكوفة ، بعد مقتل ابن الزّبير تمثّل بقول قيس ابن رفاعة :

«مَنْ يصـل نـاري بـلا ذنب ولا تـره   يـصـل بـنـار كـريـم غـيـر غـدارِ
أنـا الـنّـذيـر لكـم منّي مـجـاهـرة   كـي لا ألام عـلى نـهـي وإنـذارِ
فـإنْ عصيتم مقـالي اليـومَ فـاعتـرفـوا   أنْ سـوف تلقـون خـزيـاً ظـاهـر العـارِ
لـتـرجـعـنّ أحـاديـثـاً مـلعّـنـة   لَهْـوَ المقيم ولَهْـوَ المـدلـع السـاري
مَنْ كـان في نفسه حـوباء يـطلبها   عـنـدي فـإني لـه رهـن بـأصحـار
أقـيـم عـوجـتـه إنْ كـان ذا عـوج   كـمـا يقـوّم قـدح النّبْعـة البـاري
وصـاحب الـوتـر ليس الـدّهـر مـدركه   عـنـدي وإنّـي لـدرّاك بـأوتـار »[2]

وذيّل كتاباً أرسله للحجّاج :

إذا أنتَ لم تـطلبْ أمـوراً كـرهتَهـا   وتـطلب رضائي بـالـذي أنتَ طـالبُه
وتخشى الـذي يخشاه مثلي هـاربـاً   إلى اللّه منـه ضيّـع الـدرَّ حـالـبُـه
فـإنْ تَـرَ منّي غـفـلةً قُـرشـيّـةً   فيـا ربّمـا قـد غصّ بـالمـاء شـاربُـه
وإنْ تَـرَ منّي وثـبـةً أمـويّـة   فـهـذا وهـذا كـلّ ذا أنـا صـاحبـه
فـلا لا تـلمـنـي والـحـوادث جـمّـة   فـإنّـك مخـزيّ بمـا أنت كـاسبـه
ولا تعـد مـا يـأتيـك عني وإنْ تعـد   يقـوم بهـا يـومـاً عـلـيـك نـوادبـه
ولا تـدفـعَنْ لـلنّـاس حقـاً عـلمتـه   ولا تعـطيَنْ مـا ليس للّه جـانـبـه[3]
سـأملي لـذي الـذّنب العـظيم كـأنّني   أخـو غفلةٍ عنـه وقـد جبَّ غـاربـه
فـإنْ كفَّ لم أعجـل عليـه ، وإن أبى   وثـبـتُ عـلـيـه وثـبـةً لا أراقـبـه[4]

وقـد رأينـا تمثّله في رسـائله للحجّاج عنـدمـا أرسـل لـه أنت عنـدي كسالم ، وأوصيك بما أوصى به البكري زيداً ، وأنت عندي قدحُ بن مقبل .

(1) الاغاني : ج 13 ، ص68
(2) الاغاني : ج 1 ، ص11-12
(3) مروج الذهب : ج3 ، ص89
(4) مروج الذهب : ج 3 ، ص 89 فوات الوفيات : ج 2 ، ص32

وهذا التمثّل بأشعار العرب يدلّ على قـوّة حفظ وغزارة ذاكـرة ، وسعة اطـلاع وحبّ جمّ للأدب وأهله ، وسرعة بديهة في استخراج ما علق بالذاكرة . وقد ظهر لنا من خـلال هذا البـاب الرّوح الأدبيّـة التي سيطرت على نفس عبـد الملك بن مروان هذه الرّوح التي جعلته رغم اهتمامه بالسياسة ونهوضه لها في عشرين عـاما لا يبتعـد عن الأدب ولا عن أهله ، وأظنّ أنّ عبد الملك لولا انشغاله بـالخلافـة وتبعاتهـا لبرز في مجال الأدب على غير ما نرى اليوم ولظهر من مواهبه ما تشرئبُّ له الأعناق .

الفصل الثاني

تطوّر النّقد الأدبي منذ الجاهليّة حتّى عصر عبد الملك

تطور النقد الأدبي

قبل التعرّض للنّقد الأدبي عند عبد الملك بن مروان ، لا بدّ من كلمة في تاريخ النّقد الأدبي ، كيف نشأ ونما وتطوّر حتى عصر عبد الملك ؟ فنضع نقده في سياق الحركة النّقدية ، ونعلم ما فاده النقد وما استفاد منه .

١ ـ نشأة الشّعر الجاهلي :

حتّى يوجد النّقد لا بدّ من وجود الأدب ، فالأدب سابق في وجوده للنّقد أو هو بالأصح ملازم معه ، تلازم النّور للشّمس والمعلول للعلّة ، فلا بدّ من كلمة موجزة في نشأة الشّعر عند العرب .

يقول جويدي : « إنّ قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالأعجاب تنبىء بأنّها ثمرة صناعة طويلة »[1] وهذه الحقيقة لا تغيب عن الباحث الدّارس للشّعر الجاهلي حتّى في أقدم نصوصه المعروفة ، ولكن كيف ارتقت هذه الصنّاعة حتّى وصلت إلى هذا المستوى من الإتقان والجودة ؟ لا بدّ أنّها مرّت بعصور طويلة ألحّ فيها الشعراء على شعرهم بالتنقيح والتجويد حتى استوت صورة الشّعر على ما نعرفه عند امرىء القيس وغيره من الشّعراء الجاهليين . فلا شكّ أنّ الشعراء المعروفين لدينا قد احتذوا أصولاً سابقة لهم . فالقصيدة الجاهليّة كما نراها بناء متكامل الهندسة ، له معالم واضحة ، يكاد لا يشذّ عن هذه المعالم شاعر في قصائده المطوّلة . بكاء على الاطلال وشوق الأحبة وذكريات الشّاعر ومغامراته

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العبربي : ص 14

ووصف فرسه أو ناقته والرحلة الطّويلة التي قطعها ، وقد تصادفه أتان أو بقرة وحشية فيصفها ويصف كيف اصطادها ، ثمّ يخلص لموضوعه من مدح أو رثاء أو فخر أو هجاء . يصرّع المطلع ويتأنّق ويعتمد قافيةً واحدةً ووزناً واحداً وروياً واحداً .

هذه الأصول كانت قبل امرىء القيس وقبل عنترة وقبل المهلهل ، فاتبعها الشعراء قروناً طويلة . إذن فإنّ طفولة الشّعر العربي وكيف نشأ غامضة غاية الغموض قد أسدل عليها التاريخ صفحاته القاتمة فلا تكاد تبين . وإذا كنّا لا نعرف الشّعر إلاّ في صورته المتكاملة التي تطالعنا بها المعلّقات وقصائد العشرات من شعراء الجاهليّة فكتب الأدب لم ترو أخباراً نقديّة إلاّ عن هذه القصائد . وكيف لنا بنقد يسبق هذا الزمن ، والشعر قبله ضائع ، وهو أسهل حفظاً ورواية من النّقد ، لأنّ النّقد نثر والمنظوم أسهل رواية من المنثور .

النقد الجاهلي

إنّ النّقد الذي أُثِرَ عن العصر الجاهلي بدأ بصورة أحكام انطباعية سريعة على بيت أو عدّة أبيات من الشعر أو على شعر أحد الشّعراء بوجه عام . وهي أحكام غير معلّلة في معظم الأحيان ، وكانت جواباً عن السّؤال التالي : ما أشعر بيت قالته العرب ؟ او من أشعر العرب ؟ وكان المسؤول عادة يقول : أشعر بيت قالته العرب ، قول فلان كذا وكذا ، جو أشعر العرب فلان حيث يقول كذا ، وطبيعة السؤال تقضي جواباً من هذا النّوع ، إذ من المستحيل أنْ يستعرض الإنسان كلّ ما قيل من الشّعر ويوازن بين أبياته ـ على افتراض أنّ البيت الشّعري وحدة فنية يمكن أنْ تدرس وتحلّل بمعزل عن القصيدة وسياقها وبمعزل عن شعر الشّاعر الذي قاله ـ في لحظة واحدة .

ولو سئل المرء نفسه مرّة أخرى في مناسبة أخرى لأجاب إجابة تختلف عن إجابته السّابقة فالإجابة تعتمد على المناسبة وعلى ما يرويه الشخص المسؤول ويستجيده من الشّعر . قد تطالعنا بعض الأحكام النّقديّة التي ترتكز على أصول معيّنة ، ولكنّ بعض الباحثين المعاصرين يردّونها ، ويعلّلون ذلك تعليلاً مقبولاً ، إذ أنّ هذه الأخبار تحمل في طيّاتها عنصر الشكّ الذي يهدمها ويقوّض الأساس الذي بنيت عليه . وقد لا يسلم النقد من الهوى والمصلحة عند النّاقد .

فقد رُويَ أنّ النّابغة كانت تُضْرَبُ له قبّة من أدم في عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها وقد أنشده في بعض المرّات « الأعشى ثمّ حسّان بن ثابت ثمّ أنشدته الشّعراء ، ثمّ خنساء بنت عمرو بن الشّريد :

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنّه علم في رأسه نار

فقال : واللّه لولا أنّ أبا بصير أنشدني آنفا لقلت : أنّك أشعر الجنّ والإنس ، فقام حسّان ، فقال : واللّه لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال النّابغة : يا ابن أخي ، أنت لا تحسن أنْ تقول :

فإنّك كالليل الذي هو مدركي   وإنْ خلت أنّ المنتأى عنك واسع

خطا طيف حجن في حبال متينة   تمد بها أيد إليك نوازع

فخنس حسّان لقوله »[1] .

فالنّابغة مقدّم بالشّعر ، تعرف الشّعراء فضله ، وتنشده أشعارها ، فيحكم بينهم ، يقدّم هذا ويؤخرّ ذاك ، لماذا ؟ لا نعرف ، لأنّ كتب الأدب لم ترو لنا شيئاً بهذا الخصوص ، إنْ كان قيل شيء منه ، وأغلب الظّنّ أنّه لم يُقَلْ ، لأنّ هذه الصورة من النقد استمرت حتّى العصر الأموي ، فإنْ كانت الرّواية عن العصر الجاهلي تخلّصت من الجزئيات إلى ما هو اعم لصعوبة الرواية وطول الزمن والمشافهة بين الحدث وتدوينه ، فإن العصر الأموي قريب العهد من التدوين ولا يحمل شيئاً من هذا إلاّ فيما ندر ، فالنّابغة لم يقل لماذا قدّم الأعشى وثنّى بالخنساء ، وأخّر حسّان ، وعندما اعترض الأخير على الحكم بعصبيّة الشّاب المغرور ، أجابه النّابغة برويّة الشيخ وحكمته ، لم يطعن بشعر حسّان مطاعن معيّنة ، ولكنّه جاء بأبياته هو التي يعلم أنّ حسّان يطأطىء لها ، لأنها ابتكار منه واختراع لم يُسْبَقْ إليه ، فيها صورة الليل الذي يمتدّ ليدرك الموجودات جميعاً وصورة القدرة والذّراع الطّويلة التي لا يمكن للإنسان أنْ يبتعد عنها .

هل حطّ النّابغة من قيمة شاعر ينافسه في بلاط المناذرة والغساسنة ؟ سؤال قد يلقي بعض الشّكوك لولا اعتراف حسّان بتفوّق النّابغة في مواضع عديدة من

---

(1) الاغاني : ج 9 ، ص163

الأغاني . والنابغة الذي قدّم الأعشى في الخبر السّابق يقدم هنا شاعراً آخر ، يقدم لبيداً ، ويجعله أشعر بني عامر مرّةً وأشعر هوازن مرّةً أخرى وأشعر العرب مرّة ثالثة ، فقد أنشد لبيد النّابغة بباب المنذر ملك الحيرة :

ألم تلمم على الدّمن الخوالي   لسلمى بالمذائب فالقفال

فقال له النّابغة : أنت أشعر بني عامر ، زدني ، فأنشده :

طلل لخولةَ بالرّسيس قديمُ   بمعاقل فالأنعمين وشومُ

فقال له : أنت أشعر هوازن زدني ، فأنشده :

عفت الدّيار محلها فمقامها   عنّي تأبّد خولها فرجامها

فقال له النّابغة « اذهب أنت أشعر العرب »[1] .

وإذا كان إعجاب النّابغة قد دفعه فجعل لبيداً أشعر بني عامر ثم هوازن ثم أشعر العرب فقد نقض الحكم السّابق الذي قضاه للأعشى يبدو هذا لأول وهلة الحكم لأكثر من شاعر من نفس الشخص بأنّه : أشعر العرب .

الحقيقة أنّ الحكم إنّما يتّجه للمعنى الذي يأتي به الشّاعر وانفعال الحَكَم بهذا المعنى فالذّهن منصرف لمعنى البيت وتركيبه ومطابقته للحال .

ومرّ لبيد بالكوفة ـ بعد أن أسلم ـ وهو يتوّكأ على محجن ، فسئل عن أشعر العرب فقال : امرؤ القيس ثمّ طرفة بن العبد ثم صاحب المحجن يعني نفسه »[2]

فهو لم يعلّل حكمه ، ولا السّائل طلب تعليل هذا الحكم .

وأعجب عمرو بن هند بقصيدة الحارث بن حلّزة ، فرفع الستر عنه وقربه منه وأدناه على الرغم من مرض الحارث[3] .

وكانت بنو تغلب تعظّم معلّقة عمرو بن كلثوم ، ويرويها صغارهم وكبارهم

(1) الاغاني : ج 14 ، ص 101
(2) الاغاني : ج 14 ، ص 47
(3) الاغاني : ج 9 ، ص178

وحتّى هجوا بذلك ، فقال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهي بني تغلب عن كلّ مكرمة ... قصيدةُ قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أوّلهم ... يا للرّجال لشعر غير مسؤوم[1]

فتعظيم تغلب لمعلّقة عمرو بن كلثوم ، يرجع سببه إلى عمرو بن كلثوم نفسه لأنّه سيّدهم ، وقول بعض بني بكر بن وائل نوع من النّقد لهم ، وكأنّه يقول : ما شأنكم بهذه القصيدة وتعظيمكم لها ، كأنّ الشعراء ماتوا وسكتوا عن قول الشّعر فلا تروون غيرها . إنّ الكثير من القصائد يساويها ، ويبزّها .

وتنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عَبْدَة الفحل الشّعر وتحاكما إلى زوجة امرىء القيس أمّ جندب فرضيت بالتحكيم وشرطت لهما أن يقولا في موضوع واحد ورويّ واحد وقافية واحدة . فقال امرؤ القيس :

« خليليّ مرّا بي على أمّ جندب ... لنقضي لبانات الفؤاد المعذّبِ

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في كلّ مذهب ... ولم يكُ حقاً كلّ هذا التجنّبِ

فغلّبت علقمة على زوجها . . . وسألها عن السبب فاجابت : لأنك تقول :

فللسّوط ألهوب وللسّاق درّة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك . وقال علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب ... وغيْبة شؤبوب من الشّد ملهب
فأدركهن ثانياً من عنانه ... يمرّ كمرّ الرائح المتخلّبِ

فلم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يثعبه بزجر »[2] .

وهذا الخبر إنْ صحّ فقد وضع أسسا للنّقد الجاهلي فيها نوع من الأحكام والموازنة القائمة على المقابلة بين ما جاء في كلّ من الشّاعرين ، وقد أتيحت لهما

(1) الاغاني : ج 9 ، 183
(2) الاغاني : ج 7 ، ص127-128

نفس الشـروط ونفس الفرص . ولكنّ الأستـاذ طه إبـراهيم ينقضها بقـوله : « إنّ في هـذه القّصة طعنـاً إنْ لم يحمـل على رفضهـا جملة ، فهـو يحمـل على رفض كثيـر منها . ففي قصيدتي علقمة وامرىء القيس تـوافق في غير بيت ، وفيهـا مشاركـة في كثير من الألفاظ والعبارات والمعاني ، ولو جعلنا قصيدة امرىء القيس أصـلاً ـ إذ أنّه أنشد أوّلاً ـ كانت قصيدة علقمة تكراراً لها في أبيات بتهامها ، وفي شطرات والحكم بتفضيله على امرىء القيس يكون إذن غير مقبول ، لأنّ علقمة كرّر ما قاله صاحبه . فإنْ يكن هناك بيت لامرىء القيس يشمّ منه أنّه حمل فرسه على الجري حملاً ، فقد استدرك ذلك في البيت الذي يليه »[1] .

« أضف الى الريبة التي يحمل عليها التـوافق في النصّ ، والتي يحمل عليهـا الإنحراف في الحكم ، إن امرأ القيس عُرِفَ بوصف الخيل والصّيد ، وشهـر بذلـك دون الجـاهليين،وهو في المعلّقـة وفي قصيدتـه اللاميـة الأخرى لا يُجـارى في هذا الصّدد ،ولعـل ذلك ما حمل عبد اللّه بن المعتـز على أنْ ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعـر امرىء القيس ، ذلك محتمل جدا ، فهي وإنْ جرت على مذهبه الشعري خالية من طابعه الذي نحسّه في شعره الصحيح . ثمّ إنّ الموازنة على شريطة الجمع بين أشياء ثلاثـة فكرة على شيء من الـدّقة لا تتـلاءم مع الـرّوح الجاهلي في النّقـد الأدبي . هذا إلى أنّنا نرتاب في أنّ جاهلياً يدرك الفرق بين الروي والقافية ، ونرتاب في أنّ هذه الألفاظ تستعمل في العصر الجاهلي بمعناها الإصطلاحي »[2] .

وقال النّابغة في قصيدته أمن آل ميّة رائع أو مغتدي » « وبذلك خبّـرنا الغـراب الأسود » ثم ورد يثرب فغنوه به فبـان له الإقـواء فغيّره في مـواضع من شعـره . وكان بشر بن أبي حازم قد أقوى إذا قال : « أمن الأحلام إذا صحبي نيام » ثم قال بعده : « إلى البلد الشآم » فنبهه إليه أخوه سوادة ، ففطن إليه .[3]

وذمّ الإقواء بصر بالشعر ونقـد له ، والإقـواء بالشعـر دليل على السّلم الـطويل الذي سلكه الشّعر حتّى اكتمل على يدي امرىء القيس وزهير وأضرابهما .

---

(1) النقد الادبي عند العرب : ص 21

(2) النقد الادبي عند العرب : ص 2

(3) الاغاني : ج 9 ، ص164

« واجتمع الزبرقان بن بدر والمخبّل السعدي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم قبل أن يسلموا وبعد مبعث النبي (صلعم) فنحروا جنروراً واشتروا خمراً ببعير وجلسوا يشوون ويأكلون ، فقال بعضهم : لو أنّ قوماً ما طاروا من جودة الشّعر لطرنا ، فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم ، فطلع عليهم ربيعة بن حذار الأسدي وغيره في رواية . . . وقالوا له : أخبرنا أبّنا أشعر ، فقال : أمّا عمرو فشعره برود يمنية تنشر وتطوى وأمّا أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزوراً قد نحرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك أو قال : أمّا أنت يا زبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولم يترك نيئاً فينتفع به وأمّا أنت يا مخبّل ، فشعرك شهب من نار الله يلقيها على من يشاء ، وأمّا أنت يا عَبْدَة ، فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء »[1]
لا بّد لنا من ملاحظات على هذا الخبر هي : أنّ هؤلاء الشعراء يفترضون بكلّ إنسان معرفة أشعارهم وقدرته على الحكم عليها ثمّ إنّ الرّجل الذي أعطى رأيه قد أحس في شعرهم بأشياء لم يستطع التعبير عنها بلغة نقديّة ، فلم يكن المصطلح النقدي قد وجد بغد ، إنّما لجأ الى تشبيهات مادية ليعبّر عن إحساسه ورأيه في شعر كل منهم . وبعد فإنّ النقد كان يتلمّس طريقه في العصر الجاهلي . فهو لا يعدو أن يكون نقد لفظه في بيت أو معنى من المعاني او إقواء في قصيدة . وكان بسيطاً غير مبرّر يقوم به في الغالب الشعراء أنفسهم ويتعهّد الشاعر شخصاً او اكثر يقوم بتلقينه شعره فيرضعه اياه . فقد اتى زهير بشامة بن الغدير وسأله : أنْ يقسم له من ماله، فقال له: «يا ابن اختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . . شعري ورقتنية . . . وورويته عني»[2] فالشعر في أواخر العصر الجاهلي كاد يكون فنّاً يدّرس ويتلقّى فَمِنَ الشّعراء الجاهليين من له أساتذة يأخذ عنهم ويسترشد بهم في شعره . فقد كان أبو زهير بن أبي سلمى شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين واخته الخنساء شاعرة وابن ابنه المضرب بن كعب بن زهير شاعراً[3] .

فالشعر إذن كان ينتقل من الشّاعر إلى أبنائه وراويته فقد كان الحطيئة راوية

---

(1) الاغاني : ج 12 ، ص44
(2) الاغاني : ج9 ، ص158
(3) الاغاني : ج 9 ، ص158

زهير ، وقد جاء الحطيئة ابنه كعب بن زهير ، فقال : تعلم أنّ الفحول، ولّوا غيري وغيرك وأنّ النّاس لاشعارهم أروى ، فلو قلت شعراً تذكر نفسك وتثني بي بعدك فقال كعب :

«فمن للقوافي شأنها مَنْ يحوكها ... إذا ثوى كعب وفوّز جرولُ
يقول فلا يعيا لشيء يقوله ... ومن قائليها من يسيء ويعجل
كفيتُكَ لا تلقى من النّاس واحداً ... تنخّلَ منها مثلما يتنخّل
نثقّفهـا حتى تلينَ متونُها ... فيقصر عنها كلّ ما يتمثّل[1]

وكعب وجرول أي الحطيئة يجوّدان شعرهما ويحكّكانه ، ويتنخلاّنه ، ويأخذانه بالتجويد والتحبير ، ويردّ عليه مزّرد بقوله :

فإن تخشبا أخشب وإن تتنخّلا ... وإنْ كنتُ أفتى منكما أتنخّل[2]

ولعلّ هذا ما جعل الحطيئة يقول :

الشعر صعبٌ وطويلُ سلّمُه ... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمُه
زلّت الى الحضيض قدمه ... يريد أنْ يعربه فيعجمه[3]

وعن هذا التنخّل والتجويد في الشّعر يقول الجاحظ « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمناً طويلاً يردّد فيها نظرهُ ، ويحيل فيها عقله ، ويقلّب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبّعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لِمَا خوّله اللّه من نعمته . وكانوا يسمّون تلك القصائد : الحوليّات والمقلّدات والمنقّحات والمحكّمات ، ليصير قائلها فحلاً حنذيذاً وشاعراً مغلقاً »[4] ويقول : « كان زهير بن أبي سلمى والحُطَيْئة وأشباههما من عبيد الشعر »[5] فالنّقد الجاهلي كان يقوم به الشّعراء أنفسهم وهو نقد يقوم على السّليقة والفطرة ، ويعتمد الجزئيات دون النّظرة

(1) الاغاني ج 2 ، ص47

(2) الاغاني : ج 2 ، ص47 - « في ابيات كعب هذه : تنحل . . . ما نتنحل ، وفي الاصل كذلك تخشنا اخشن » .

(3) الاغاني : ج 2 ، ص60

(4) البيان والتبيين : ج 2 ، ص9

(5) البيان والتبيين : ج 2 ، ص13

الكلّيّة للنّص الأدبي فقد « وُجِدَ النّقد الأدبي في الجاهليّة ، ولكنّه وُجِدَ هيّناً يسيراً ، ملائماً لروح العصر ، ملائماً للشّعر العربي نفسه ، فالشّعر الجاهلي إحساس محض أو يكاد والنّقد كذلك ، كلاهما قائم على التأثّر والإنفعال »[1] .

ب ـ النّقد في العصر الإسلامي

لقد لقي النبيّ (صلعم) كثيراً من التّعنّت في بداية دعوته ، وهبّت قريش وأحلافها تقاوم هذه الدعوة بكلّ ما أُوتِيَتْ من قوّة ، واستعملت كلّ أسلحتها في سبيل إجهاضها بما فيها الشّعر . فدفعت شعراءها إلى هجائه وهجاء أنصاره وهبّ شعراء المهاجرين والأنصار يدافعون عن الرّسول الكريم وصحبه ويهجون المشركين ، واحتدم أوار الشّعر فالشّعراء المسلمون يمدحون الرّسول الكريم ويهجون أعداءه وشعراء المشركين يهجون الرّسول وصحبه . فكان ذلك نواة شعر النّقائض الذي ازدهر بين جرير والفرزدق فيما بعد .

« وكان يدفع عن النبيّ ثلاثة من الأنصار حسّان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد اللّه بن روّاحة ، فكان حسّان وكعب يعارضان بهم مثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد اللّه بن روّاحة يعيّرهم بالكفر ، فكان أشدّ القول عليهم قول كعب وحسّان فلمّا أسلموا كان أشدّ القول عليهم قول ابن روّاحة »[2] .

إذن هناك تطوّر وتبدّل بالقيمة الشعرية تابعة للتطوّر الذي ظهر في البيئة الإجتماعية فالإنسان غير المسلم الذي يعبد الأوثان له قيمة التي يدافع عنها وينافح ولا يبالي إنْ اتُّهِمَ بالكفر ، وهذه حقيقة يجب أنْ يفطن لها مَنْ يريش سهام الهجاء وكان النبيّ (صلعم) معجباً بشعر حسّان في ردّه على المشركين فيقول له : أجِب عني ثمّ يقول : اللّهُمّ أيّده بروح القدس »[3] .

ولتعليل قدرة حسّان في مدافعته عن الإسلام والمسلمين ، فقد رووا « أنّ

---

(1) النقد الادبي عند العرب : ص 24
(2) الاغاني : ج 4 ، ص4
(3) الاغاني : ج 4 ، ص4

جبريل أعان حسّان بن ثابت بسبعين بيتاً من الشّعر »[1] .

وقد جهل من روى هذا الحديث أنّ النبيّ (صلعم) هو آخر من نزل عليه الوحي ولا ينزل الوحي إلاّ على النبيين . وكان يقول النبيّ (صلعم) عن شعره : لَهذا أشدّ عليهم من وقع النبل » وكان يقول : أمرتُ عبد الله بن روّاحة فقال وأحسن ، وأمرتُ كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرتُ حسّان بن ثابت فشفى واشتفى »[2] فقد قدّم النبيّ (صلعم) حسّان ولم يقل بأي شيء قدّمه .

وأنشد كعب بن مالك النبي (صلعم) فلمّا بلغ قوله « مقاتلنا عن حرمنا كلّ قحمة » . فقال رسول اللّه (صلعم) لا تقل « مقاتلنا عن حرمنا . ولكن قل : مقاتلنا عن بيتنا » وعن ابن سيرين أنّه صلوات اللّه عليه وقف بباب كعب بن مالك وأنشده فقال : إيه ، حتّى أنشد ثلاث مرات ، فقال (صلعم) : « لَهذا عليهم أشدُّ من وقع النّبل »[3] .

وكانت جماعة من قريش في زمن البعثة يتحدّثون في المسجد الحرام وكان لبيد ينشدهم ـ وكان عثمان بن مظعون حاضراً وقد أسلم ـ فأنشدهم لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللّهَ باطلُ وكلّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

فصدقه عثمان في الشّطر الأوّل ، وكذّبه في الشّطر الثّاني ، لأنّ نعيم الجنّة لا يزول .

وقال عمر بن الخطّاب (رضي) يا معشر غطفان من الذي يقول :

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظنّ بي الظّنون

قالوا : النابغة قال : « ذاك أشعر شعرائكم »[4] .

وقال عمر (رضي) مَنْ أشعر النّاس ؟ قالوا أنت أعلم يا أمير المؤمنين قال : مَنْ الذي يقول :

---

(1) الاغاني : ج 4 ، ص6
(2) الاغاني : ج 4 ، ص6
(3) الاغاني : ج 15 ، ص30
(4) الاغاني : ج 9 ، ص162

إلّا سليمان إذ قال الإله له قم في البريّة فاحددْها عن الفندِ
وخبّر الجنّ إنّي قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصّفاحِ والعمد

قالوا : النّابغة ، قال : فمن الذي يقول :

أتيت عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظنّ بي الظنون

قالوا : النّابغة ، قال : فَمَن الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء اللّه للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بلّغت عني خيانةً لَمُبلغُكَ الواشي أغشُّ وأكذب
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعثٍ أيُّ الرّجالِ المهذّبُ

قالوا النّابغة يا أمير المؤمنين ، قال : فهو أشعر العرب »[1] .

وعمر بن الخطّاب شأنه شأن النابغة ، لا يثبت على حكم لشاعر واحد فإنْ كان معجباً بالنّابغة يجعله أشعر شعراء قومه مرة ، وأشعر العرب مرة أخرى ، فإنّه يجعل زهيراً شاعر الشّعراء فقد سأل عبد اللّه بن عبّاس وقد شكا له تخلّف علي (كرّم اللّه وجهه) أتروي لشاعر الشّعراء ؟ قال له : مَنْ هو يا أمير المؤمنين . قال الذي يقول :

فلو أنّ حمداً أخلد النّاش أُخْلدوا ولكنّ حمد النّاس ليس بمخلد

قال . . . وبمن كان شاعر الشّعراء ؟ قال : « لأنّه كان لا يعاضل بين الكلام ولا يتبع حوشي اللفظ ولا يمدح الرّجل إلّا بما فيه »[2] .

ولعلّ المناسبة هي التي جعلت من زهير شاعر الشّعراء ومن النابغة هناك شاعر العرب ، فوفود غطفان عليه ، ذكّره النّابغة والنّابغة مشهور بالإعتذار فاستملح عمر (رضي) الأبيات السابقة ، ورآها أشعر ما قيل في هذا الباب ، وزهير هنا شاعر الشّعراء بالمعنى الذي يوافق المناسبة ، فالحكم على إطلاقه محدود بموقف معين ، وحُكْمُ عُمَرَ (رضي) الأخيرُ معلّل وينطوي على أحكام فنيّة وخلقية ، فأمّا

(1) الاغاني : ج9 ، ص162
(2) الاغاني : ج 9 ، ص147

الأحكام الفنّية ، فقد تناولت الألفاظ والعبارات فلا لفظة حوشية وعرة ولا تركيب معقّد في العبارة الشّعرية ، والقيمة الأخلاقية أنّ زهيراً يبالغ في شعره ولا يكذب ، إنّما يمدح الإنسان بما فيه . وقال علي بن أبي طالب (كرّم اللّه وجهه) ـ وقد ارتفعت أصوات النّاس في أشعر النّاس ـ لأبي الأسود الدؤلي : قل يا أبا الأسود ، فقال« الذي يقول :

ولقد اغتدى بدافع ركني   أحوذيّ ذو ميعة اضرّيح
مخلط مزيل مكرّ مفرّ   منفح مطرح سبوح خروج
سلهب سرحب كأنّ رماحاً   حملته وفي السراة دمج[1]

وكان لأبي الأسود رأي في أبي داود الأبادي ، فأقبل علي (رضي) على النّاس فقال : « كلّ شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول ، لعلمنا أيّهم أسبق إلى ذلك ، وكلّهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه ، وإنْ يكن أحد فضلهم ، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة ، امرؤ القيس بن حجر فإنّه كان أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة »[2] وهنا نرى ملكة نقديّة فذّة عند عليّ (رض) ، فإنّه ميّز أغراض الشّعراء ومذاهبهم وظروفهم وأحوالهم ، فإنّهم لم يتشابهوا بيئة اجتماعية وظروفاً شخصيّة ليسهل القول فيهم ، فالقول يتطلّب دراسة عميقة تتطلّب جهداً ووقتاً كبيرين وهي غير ممكنة في مثل ذلك العصر وذلك الموقف ، وبعد استقراء سريع أعطى حكماً لأمرىء القيس وعلّل هذا الحكم من حيث الدافع لقول الشعر فإنّ امرأ القيس لم يدفعه إلى قول الشّعر إلاّ شاعريته ، فلا رغبة في عطاء ولا رهبة من سلطان وراء قوله الشّعر . أمّا من حيث الشعر كعمل فني ، فهو أحسنهم نادرة ، فصياغته جيّدة ، وأسبقهم إلى ابتكار المعاني وتجويدها .

وإذا استثنينا كلمة عمر بن الخطّاب (رضي) وعلي بن أبي طالب (رضي) وجدنا النّقد وإنْ كثرت أخباره ، يبقى جزئياً يتناول المعنى في البيت أو اللفظة في العبارة .

---

(1) الاغاني : ج 15 ، ص97

(2) الاغاني : ج15 ، ص97ـ العمدة : ج 1 ، ص41-42

جـ ـ النّقد في العصر الأموي

ونمضي إلى العصر الأموي فنجد المادة النّقدية أغـزر من حيث الكم ومتنوعـة أكثر من حيث الكيف ولكنها تبقى جزئية مرسلة يعمل فيهـا الذّوق أكثـر من العقل ، والسليقة أكثر من العلم ، والارتجال أكثر من التعمّق والتفكّر والروّية .

خـرج نُصيب وكُثيّر والأحـوص إلى العقيق ، فنزلـوا فيـه ، وكـان هنـاك نسـاء فحادثوهن ودخلت امـرأة على سيّدتهـا ، فاستـأذنت لهم فدخلوا عليهـا ، فسألتهم : الغناء قبل الغداء أم الغداء قبل الغناء ؟ فقال : بل الغناء فدعت الجارية فغنّت :

ألا هــل من البين الـمفـرّق مـن بـدِّ   وهــل مثـل أيّـام بمـنقــطع الـسعــدِ

ثم أمرتها فغنّت :

أرقَ الـمـحـبُّ وعـاده سـهـده   لـطوارق الـهـمّ الـتـي تـرده
فيـا لكَ من ليـلٍ تمتّعت طـولـه   وهــل طـائف من نــائم متمتّــعُ

ثم أمرتها فغنّت :

أيّهـا الـركب إنّي غيـر تـابعكم   حتّى تلمّـوا وأنتم بي ملمّـونـا[1]

فزها نصيب ، وخال نفسه من قـريش ، وأنّ الخلافـة صارت إليـه ، ثمّ دعت المرأة بالغداء ، فوثب كثيّـر والأحوص ، وقـالا : « واللّه لا نطعم لـك طعامـاً ، ولا نجلس لـك مجلساً ، فقـد أسأتِ عشـرتنا واستخففتِ بنـا ، وقدّمتِ شعـرَ هذا على أشعارنا ، وأسمعتِ الغناء فيه وإنّ في أشعارنا لما يفضل شعره ، وفيها من الغنـاء ما هو أحسن من هذا . فقالت : على معرفة كلّ ما كان منّي ، فأيّ شعر كما أفضل من شعره ؟ أقولُكَ يا أحوص :

يقــرّ بعيني مــا يقــرّ بعينـهــا   وأحسن شيء مـا به العين قـرّت

ام قولُكَ يا كثيّر عزة :

ومـا حسبت ضمـريّــة جـدويّــة   سوى التّيس ذي القرنين أنّ لها بعلا»[2]

---

(1) الاغاني : ج 1 ، ص142-144

(2) الاغاني : ج1 ، ص142-144

فهذه المرأة قد أعجبها شعرَ نُصَيب لِمَا فيه من سموّ في المعـاني وقد انتقـدت المعاني المبتذلـة في شعر كثير ، وأوّلت بيت الأحوص تـأويلاً شنيعـاً عليه . وعِيب على ابن قيس الرّقيّات قوله :

تعـدت بي الشهباء نحـو ابن جعفـر   سـواء عـليهـا لـيلهـا ونـهـارهـا

لأنّه نقض صدره بعجزه ، فقال في أوّلـه : سار سيـراً بغير عجـل ، ثم قال : سواء عليها ليلها ونهارها » وهذه غاية الأأب في السّير فناقض معناه في بيت واحد[1] وكـان ابن أبي عتيق يقـول : كـانت هـذه عميـاء[2] لأنـه قـال : سـواء عليهـا ليلهـا ونهارها .

وقـال عبد العـزيز بن مـروان لنُصَيب الشاعـر « أنت أشعر أهـل جلدتـك »[3] وسئل نُصيب عن أصحابه ، فقال « جميل إمامنا وعمر بن أبي ربيعـة أوصفنا لـربّات الحجال وكثيّر أبكانا على الدِمن وأمدحنا للملوك ؛ وأمّا أنا فقد قلت مـا سمعت »[4] فقد عرف نصيب اتجاه كلّ واحد من أصحابـه والنّاحيـة التي جلّى فيها . وقـال عبد اللّه بن جعفـر بن أبي طالب لمعلم ولـده : « لا تروّهم قصيـدة عُروة بن الـورد التي يقول فيها :

دعـيـني للغـنـى أسـعـى فـإنّـي   رأيتُ النّـاسَ شـرُّهـم الفـقيـرُ

ويقول : إنّ هذا يدعوهُم إلى الإغتراب عن أوطانهم »[5] .

فمعنى عُروة لم يعجب عبد اللّه بن جعفر مع أنّه قد يعجب الكثيرين .

وقال الشّعبي : « الأعشى أغزل النّاس في بيت واخنث النّاس في بيت وأشجع النّاس في بيت ، فأما أغزل بيت فقوله :

غـرّاء فـرعـاء مصقـول عـوارضهـا   تمْشي الهُوَيْنَا كما يمشي الوجى الوحِلُ

(1) الاغاني : ج 4 ، ص161
(2) الاغاني : ج 4 ، ص162
(3) الاغاني : ج 1 ، ص142
(4) الاغاني : ج1 ، ص142
(5) الاغاني : ج 2 ، ص191

وأمّا أخنث بيت فقوله :

قـالت هُـريـرة لمّـا جئت زائـرهـا ويلي عليك وويلي منك يـا رجـلُ

وأمّا أشجع بيت فقوله :

قـالـوا الـطّراد فقلنـا تلك عـادتنـا أو تنـزلـون فـإنّـا معشـر نـزلُ[1]

فـالشّعبي أعجب بأبيـات الأعشى وأبدى إعجـابه ومـع أنّ الأبيات الثـلاثة من نفس الأثر الفني ، فقد نظر إليها بعزل عن جو القصيدة العام ، وتناول كلّ بيت منها على أساس أنّه وحدة فنيّة قائمة بذاتها .

وكان ينظر أحيـاناً إلى العمـل الفني نظرة كليّـة ، ولكنّها نـظرة عامّـة تلامس السّـطح ولا تغـور إلى الأعمـاق . إذ كـان جميـل بن مَعمَـر وعمـر بن أبي ربيعـة يتعارضان ، فإذا قال أحدهم قصيدة ، قال الأخر مثلها . فكان يقـال : جميل أشعـر في اللامية وعمر أشعر في العينية والرائيـة[2] . وقد يكـون هذا التفضيـل ناتجـاً عن بيت في إحدى هذه القصائد . وقد رووا لِكَلَيهما بيتاً طريفاً نادراً ، كقول جميل :

خليليّ فيمـا عشتمـا هـل رأيتمـا قتيـلاً بكى مـن حبّ قـاتـله قبـلي

وقال عمر :

فقـالت وأرخت جـانب الستـر إنّمـا معي فتكلّم غيـر ذي رقبـة أهلي[3]

وانتقد ابن أبي عتيق عمر بن أبي ربيعة من حيث طريقته ومسلكه في الغزل ، فقد أنشد :

بـينـمـا ينـعـتـنَني أبـصـرنـني دون قيـد الميل يعـدو بي الأغـر
قـالت الكبـرى أتعـرفن الفتى قـالت الـوسطى نعم هـذا عمـر
قـالت الصّغـرى وقـد تيَّمتُهـا قـد عـرفنـاه وهـل يخفى القمـر

فقال : « أنت لم تنسب بها ، وإنّما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن يقول :

---

(1) الاغاني : ج 8 ، ص79
(2) الاغاني : ج 1 ، ص51
(3) الاغاني : ج 1 ، ص51

قلت لها ، فقالت لي ، فوضعت خدي ، فوطئت عليه »[1] .

فهذا نوع من النّقد جديد ، فابن أبي عتيق لم ينقد معنى في شعر عمر ولم ينقد لفظة ، إنّما نقد الأسلوب والطّريقة التي يتصدّى بها عمر لموضوعاته الغزليّة . وكما فطنوا للطّريقة التي ينظم بها الشّعراء ، فقد فطنوا للشّعراء أيّهم يقتفي في نظمه أثر الآخر ويحتذيه .

فلمّا مات عمر بن أبي ربيعة « كانت حبشيّة ظريفة من مولدات مكّة صارت إلى المدينة ، فلمّا أتاهم موت عمر . . . اشتدّ جزعها ، وجعلت تبكي ، وتقول : من لمكّة وشعابها وأباطحها ونزهها ووصف نسائها ، وحسنهنّ وجمالهنّ ، ووصف ما فيها ، فقيل لها : خفضي عليك ، فقد نشأ فتى من ولد عثمان (رضي) يأخذ مأخذه ويسلك مسكله . فقالت : انشدوني من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها ، وضحكت وقالت : الحمد للّه الذي لم يضيع حرمه »[2]

« وهاجى النّابغة الجعدي أوس بن مغراء ، فقال النّابغة : « إنّي وإيّاه لنبتدر بيتاً ، أيّنا سبق إليه ، غلب صاحبه ، فلمّا بلغه قول أوس :

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر   من اللؤم ما دامت عليها جلودها

قال النّابغة : هذا البيت الذي كنّا نبتدر إليه »[3] فقد أحسّ النّابغة بالعجز أمام هذا المعنى ، فأُفْحِم .

ومن الأحكام النّقديّة ما كان يأتي لغاية في نفس صاحبه ، فهو بعيد في هذه الحالة عن الذائقة الفنية ، « فقد تنافر النابغة الجعدي وأوس بن مغراء في المربد وحضرهما الحجّاج والأخطل وكعب بن جُعيل ، فقال أوس :

لمّا رأيت جعدة منّا ورداً   ولّوا نِعاماً في البلاد دَرْبَدا

إنْ عليكم معدّا   كأهلها وركنها الأشدّا

فقال الحجّاج : كلّ امرىء يعدو بما استعدّا .

---

(1) الاغاني : ج 1 ، ص53
(2) الاغاني : ج1 ، ص154
(3) الاغاني . ج 4 ، ص132

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له :

وإنّي لقاضٍ بين جعدة عامرٍ   وسعد قضاءً بيّنَ الحقِّ فيصلا
أبو جعدة الذئب اللئيم طعامه   وكفّ ابن كعب أكرمُ النّاس أوّلا

وقال كعب بن جعيل : إنّي لقاض قضاء سوف يتبعه
مَنْ أَمَّ قصدا ولم يعدل إلى أود »[1]

ففي هذه الحالة لم يعد النّقد يعتمد النّصوص وإنّما ما يعتمل في صدور القوم من الإحنَ . « واستأذن جرير على سُكَينة بنت الحسين ، فلم تأذن له ، وخرجت إليه جارية لها ، فقالت : تقول لك سيدتي ، أنت القائل :

طرقَتْكَ صائدة القلوب وليس ذا   حين الزّيارة فارجعي بسلام

قال : نعم ، قالت : فهلاّ أخذت بيدها ، فرحبت بها ، وأدنيت مجلسها ، وقلت لها ، ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف ، فخذ هذين الألفي درهم فالحق بأهلك »[2].

فسُكَينة قد انتقدت معنى جرير ، فمع عفته يجب أن يسلك مع صائدة قلبه غير هذا المسلك . وقد فضّلته على الفرزدق في أكثر من موضع ، لمّا وفد الفرزدق عليه قالت له « مَنْ أشعر النّاس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، صاحبك جرير أشعر حيث يقول :

بنفسي من تجنّبه عزيز   عَلَيّ ومن زيارته لمام

فقال : واللّه لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه ، فقالت : أقيموه ، فأُخْرِجَ ثم عاد في اليوم التّالي ، فقالت له : مَنْ أشعر النّاس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت : جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادني استعبارُ   ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يزارُ

فقال : واللّه لو أذنت لي لأسمعتك أحسن منه ، فقالت : أقيموه ، فأُخْرِجَ ثمّ

---

(1) الاغاني : ج 4 ، ص132
(2) الاغاني : ج 7 ، ص53

عاد في اليوم الثالث ، فقالت : مَنْ أشعر النّاس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، صاحبك أشعر حيث يقول :

إنّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال : واللّه لئن أذنت لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت بإخراجه »[1] .

ونمضي ، فإذا النّاس شيعتان ، شيعة تؤيّد جريراً وتتعصّب له وشيعة تؤيّد الفرزدق وتتعصّب له ، وفئة ثالثة ، تنحاز للأخطل ، ونشهد عتاباً بين جرير وشيعته على باب الحجّاج إذ بدّى الفرزدق ، وقدّمه على نفسه في الدخول على الحجّاج فقالت (شيعة جرير) « أتناويه وتهاجيه وتشاخصه ، ثم تبدّى عليه ، فتأبى ، وتبدّيه ؟ قضيت له على نفسك . فقال لهم : إنّه نزر القول ، ولم ينشب أنْ ينفذ ما عنده ، وما قال فيه ، فيفاخره ، ويرفع نفسه عليه فما جئت به بعد ، حُمِدْتُ عليه ، واسْتُحْسِن »[2] .

فجرير يعرف مذهب الفرزدق معرفة دقيقة ، معرفة تتصّل بنفسيّة الفرزدق وكبره التي تأبى عليه إلا المفاخرة والإرتفاع بالنّفس .

ونشهد في هذا العصر عملاً للرّواة لم تعرفه في العصور التي سبقت ، فرواة جرير يقوّمون ما انحرف من شعره ، ورواة الفرزدق يقوّمون ما انحرف من شعره.[3] وهذا نوع من النّقد ، ولكنّه نقد بدون ضجّة أو إعلام . إنّه نوع من تجويد الشّعر لا يقوم به الشّعراء وإنّما أعوانهم . فيذكّرنا ما كان يقوم به شعراء المدرسة الأوسية في العصر الجاهلي .

ونجد الفرزدق وجريراً على الرغم مِمّا في ذوقيهما من التنافر ، يتفقان : أنّ أنسبَ النّاس الأحوص . فقد سئل جرير عن أنسب النّاس ، فقال : الذي يقول :

يا ليت شعري عمّنْ كلفت به   من خثعم إذ نأيت ما صنعوا
قوم يعلّون بالسّدير وبالحيرة   منهم مرأى ومستمع

---

(1) الاغاني : ج 7 ، ص53-54 - هناك رواية : إن العيون التي في طرفها حور . . .
(2) الاغاني : ج 4 ، ص53
(3) الاغاني : ج 4 ، ص45

إن شـطّت الـدار عن ديـارهم أأمسكوا بـالـوصـال أم قـطعـوا
بل هم على خير مـا عهدت ومـا ذلـك إلا التـأميـل والـطّمـع[1]

وكـان الفرزدق يقـول : « أشعر النّـاس بعدي ، ابن المـراغـة ، يعني جـريـراً
وسُئِلَ : مَنْ أنسب النّاس ؟ فقال : الذي يقول :

لي ليلتـان ، فليلة معسـولـة ألقى الحبيب بهـا بنجم الأسعـدِ
ومـريحـة همّي عَلَيّ كـأنّـني حتّى الصّباح مُعَلّق بالفـرقـد[2]

فقد اتفقا على الأحوس بأنّه أنسب العرب .

واختصم النّـاس بين هذين الشّـاعرين أيّهمـا أشعر ، وكـان النّاس يتحـاشـون الإجابة عن هذا السؤال خوفاً من ألسنتهما الحـادّة التي لا توفـر أحداً من الهجـاء إذا تعرّض لأحدهما بسوء . فقد تجاذب النّاس « في أمر جرير والفـرزدق حتّى تواثبـوا ، وصـاروا إلى المهلب محكّمين له في ذلـك ، فقال : إنْ أردتم أنْ أحكم بين هـذين الكلبين المتهارشين ، فسيمتضغاني ، ما كنت أحكم بينهما ، ولكنّي أدلكم على مَنْ يحكم بينهما ثمّ يهون عليه سبابهمـا ، عليكم بالشّـراة ، فسلوهم إذا توافقتم . فلمّـا توافقوا سأل أبو خـرابة عُبَيْـدَ بن هلال اليشكـري عن ذلك »[3] فقـال : أيهما الـذي يقول :

وطـوى الـطّراد مع القيـاد بـطونهـا طيّ التّجـار بحضـر مـوت بـرودا

قال : جرير . قال : فهوأشعرهما »[4] .

---

(1) الاغاني : ج 4 ، ص54
(2) الاغاني : ج 4 ، ص54
(3) الاغاني : ج 6 ، ص6
(4) الاغاني : ج 7 ، ص39-40 والابيات :

أنـا لـنـذعـر يـا فقيـر عـدّونـا بـالخيـل لاحقـة الأيـاطـل قـودا
وتحـوط حـوزتنـا وتحمي سـرحـنا جـرد تـرى لـمفـازهـا اخـدودا
أجـرى قـلائـدهـا وقـدّد لحمهـا أن لا يـذقن مـع الشكـائم عـودا
وطـوق القيـاد مـع الطّراد بـطونهـا طيّ التّجـار بحضـر مـوت بـرودا

واجتمع جرير والفرزدق عند بشر بن مروان ، فقال لهما : دعاني من الهجاء وجوّدا الفخر ، فقال الفرزدق :

نحن السّنام والمناسم غيرنا فَمَنْ ذا يساوي بالسّنام المناسما

فقال جرير :

على موضع الأستاه أنتم زعمتمو وكلّ سنام تابع للغلاصم

فقال الفرزدق :

على محرض للفرث أنتم زعمتمو ألاّ إنّ فوق الغلصمات الجماجما

فقال جرير :

وأنبأتمونا أنّكُم هامُ قومكم ولا هامَ إلاّ تابعٌ للخراطم

فقال الفرزدق :

فنحن الزّمام القائد المقتدي به من النّاس ما زلنا ولسنا لها زما

فقال جرير :

فنحن بنو زيد قطعنا زمامها فتاهت كسارٍ طائشٍ الرأس عارم

فقال بشر بن مروان : غلبته يا جرير بقطعك الزّمام وذهابك بالنّاقة[1] فبشر لم يلتفت إلاّ للمعنى الذي جاء به جرير فغلّبه على الفرزدق .

وقال الأخطل « الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر »[2] .

وكان عدد من الشّعراء قد تعرّضوا لجرير كما تعرّض له الأخطل ، فانبرى لهم حتّى أسكتهم جميعاً ، ولم يصمد له إلاّ الفرزدق والأخطل . فقد هاجى غسان بن ذُهيل جريراً ، فتدخل البُعيث وفضّل غسان على جرير ، وفضّل الفرزدق البُعيث على جرير ، وادّعى جرير أنّ الأخطل إنّما رُشِيَ بزقٍّ من الخمر ، ففضّل الفرزدق على جرير ، والرّاعي فضّل الفرزدق على جرير ، فقال :

(1) الاغاني : ج 7 ، ص52-53

(2) الاغاني : ج 7 ، ص185

يــا صــاحبي دنــا الــرواح فسيــرا   غلب الفــرزدق في الهجـاء جــريــرا

ثم قال :

رأيت الجـحشَ جحشَ بـني كـليبٍ   تيمّـم حــوض دجلة ثـم هــابــا[1]

وأعـان المـرّار بن منقـذ الفـرزدق على جـريـر ، والأشهب بن رميلة النهشلي كذلك ، وكـذلك قبضـة الكلب من ربيعة[2] ولمّـا سمع هـذه الحكايـة الحجّاج بن يوسف قال : « إنّه لجرو هـراش[3] » فقد أصبـح النّقد عنـد هؤلاء الشّعراء وغيـرهم نوعاً من الهجاء ، يخفض ويرفع ، فتحامى النّاس عن ذكر أيُّهما أشعر خوفاً من لعنة الهجاء التي لا بدّ أن تصيب مَنْ يتجرّأ ويتعرّض بنقد لاذع لأحد منهما .

وقال الفرزدق عن شعر عمر بن أبي ربيعـة « هذا الـذي كانت الشّعـراء تطلبـه فأخطأته ، وبكت الدّيار ، ووقع عليه هذا »[4] . وكـان جريـر معجباً بشعـر عمر بن أبي ربيعة حتّى جعله أنسب النّاس[5] . فالنّقد ما يزال يعتمد الذّوق والحالة النفسية تتحكّم بمَنْ يتصدّى لنقد الأدب ، فابن أبي عتيق ينقد عمـر بن أبي ربيعة ويعتـرض على طريقته في الغزل ، بينما الفرزدق وجرير يعجبان بهذه الطريقة ، ولكن هل كان جرير معجباً دائماً بشعر عمر ؟ لا ، إذ كان عندما ينشد شعـر عمر يقـول « هذا شعـر تهامي إذا أُنْشِدَ وجد البرد ، حتّى أُنْشِدَ قوله :

رأت رجلا إذا ما الشمس عارضت   فيضحي قـواماً بـالعشى فيحضـر

قال . . . : ما زال هذا القُرَشي يهذي حتّى قال الشعر »[6]

وقال جرير « لقد هجوت التيم في ثلاث كلمات ، ما هجا فيهنّ شاعـر شاعـراً قبلي :

---

(1) الاغاني : ج 7 ، ص45-46

(2) الاغاني : ج 7 ، ص44-48

(3) الاغاني : ج 7 ، ص49

(4) الاغاني : ج 1 ، ص36

(5) الاغاني : 1 ، ص36

(6) الاغاني : ج1 ، ص71-72

من الأصلاب ينزل لؤم تيم وفي الأرحام يخلق والمشيم »[1]

وكما هو واضح ، فإنّ هذا إشارة إلى أنّ الشاعر كان يعتمد في بعض الصور على شعر غيره . فإذا انتزع صوراً ومعاني جديدة نوّه بها .

والتقى الجلاح بن ضوء مع الأخطل بالكوفة ، فسأله إن كان يروي شعر الفرزدق فأجابه الجلاح بالإيجاب ، فانتقد الأخطل قوله :

أبني غدانةَ إنّني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال
لولا عطيّة لاجتدعتُ أنوفكم من بين ألأم آنف وسبال[2]

وقال : « وهبهم في الأوّل ورجع في الثّاني (وقال الجلاح للأخطل) لو أنكر النّاس كلّهم هذا ، ما كان ينبغي عليه إنكاره ، ولمّا سأله عن السبب أجابه ، بأنّ له هفوات أكبر . إذ هجا زُفر بن الحارث الكلابي ثم خوّف الخليفة منه فقال :

بني أميّة إنّي ناصح لكم فلا يبيتَنّ فيكم آمنا زُفَرُ
مفترشاً كافتراش الليث كلكله لوقعة كائن فيها له جزر

ومدح عكرمة بن ربعي ، فقال :

قد كنتُ أحسبه قيناً وأخبره فاليوم طيرّ عن أثوابه الشّرر

ولو أراد المبالغة في هجائه ما زاد على هذا[3] .

فالفرزدق قد أخذ عليه الأخطل أنّه هجا من وهبهم لابن جعال ، وابن جلاح أخذ على الأخطل بأنّه لا يصيب هدفه دائماً ، فقد أراد هجاء زفر فمدحه من حيث لا يدري ، وأراد مدح عكرمة فهجاه .

وإن كان الرّاعي قد فضّل الفرزدق على جرير ، فإنّه عاد واعترف بتفوّق جرير حين قال : « لو اجتمع على هذا جميع الإنس والجن لما أغنوا فيه شيئاً ، ثمّ قال لِمَنْ حضر : أأُلامُ على أنْ يغلبَني مثل هذا »[4] .

(1) الاغاني : ج 7 ، ص39
(2) الاغاني : ج 7 ، ص176
(3) الاغاني : ج 7 ، ص176
(4) الاغاني : ج7 ، ص40

وسئل الفرزدق عن جرير فقال : « قاتله اللّه ، فما أخشنَ ناحيتَه وأشردَ قافيته واللّه لو تركوه ، لأبكى العجوز على شبابها والشّابةَ على أحبابها ، ولكنّهم هزوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحاً ، وقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحَبُّ إليّ مما طلعت عليه الشّمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت النّاسَ كلَّهم غضابا »[1]

وكان الفرزدق يعرف أنّه أشعر خاصة وجريراً أشعر عامة ، إذ وصف شعره بالصّلابة وشعر جرير بالرّقة[2] وقال : «إنّي وإيّاه ، لنغرف من بحر واحد تضطرب دلاؤه عند طول النهر »[3] . وسأل عبد الملك الأخطل : مَنْ أشعر الناس ؟ والشّعبي حاضر ، فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال الشّعبي : أشعر منك الذي يقول :

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التّمام

للحارث الأكبر والحارث الأصغر ... والحارث خير الأنام

خمسة آباؤهمو ما هم ... هم خير مَنْ يشرب ماء الغمام

فقال الأخطل : إنّما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرّياً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به[4] .

ونشأ نوع جديد من نقد الشّعر لا من حيث عذوبته أو رقته أو جماله الفني بل من حيث مخالفته للأصول من إعراب أو وزن أو قافية . فقد قال عبد اللّه بن إسحاق الحضرمي للفرزدق في قوله :

مستقبلين شمال الشّام تضربنا ... بعاصب من نديف القطن منثور

على عمائم تلقى وأرحلنا ... على زواحف تزجى مخهارير

فيقول : « ألا قلت على زواحف نزجيها محاسير ؟ فغضب الفرزدق وقال : والله لأهجونّك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحويين أبداً . وهجاه بقوله :

(1) الاغاني : ج7 ، ص41
(2) الاغاني : ج 7 ، ص42
(3) الاغاني : ج7 ، ص40
(4) الاغاني : ج 9 ، ص169

فلو كـان عبدُ اللّه مـولى هجوتـه ولـكنّ عبـد اللّه مـولـى مـواليـا

فانكر عبد اللّه عليه قوله : مواليا وقال : إنّما القياس موال وخطّأه مرّة أخرى[1]

فالنّقد الأموي تشعّب ، وتنوّع وتناول الأسلوب والمعاني والألفاظ والأغراض واللغة ، لكنّه هل استوى نقداً في المفهوم الحديث لهذه الكلمة له مذاهبه وطرقه وأنواعه الفنيّة والأدبيّة ؟ إنّ طبيعة الشعر العربي الغنائية ، ومحدودية الأغراض التي تناولها وطبيعة العصر لم تسمح لهذا النّقد أنْ يلج أبعاداً أعمق غوراً من الأبعاد التي وصل إليها . وكان في هذا العصر ازدهار كبير للشّعر رافقه ازدهار للنّقد وتخاصم بين النّقاد وتعصّب حَمَى النّقدَ أنْ تسيطر عليه الذاتية المحضة ، فإنْ اعتمد الذّوق والسّليقة ، فالذّوق أدبي صافٍ ، والسليقة عربية خالصة ، والتعصّب لهذا الشاعر أو ذاك دفع كلّ فريق لجمّع ما وسعه من الأدلة والبراهين لتأييد وجهة نظره .

وإنْ ألممنا بهذه النظرة السريعة بالخطوط العريضة التي انتهجها النّقد الأدبي منذ نشأته في العصر الجاهلي حتّى العصر الأموي . فذلك ليسهل علينا دراسة النقد عند عبد الملك بن مروان دراسة مفصّلة على ضوء النتائج التي وصلنا إليها ، فنضع عبد الملك في موضعه الصحيح من الحركة النقديّة في عصره .

---

(1) الشعر والشعراء : ج 1 ، ص35

الفصل الثالث

عبد الملك بن مروان والنقد الأدبي

عبد الملك بن مروان والنقد الأدبي

راينا في استعراضنا للمراحل التي مرّ بها النقّد الأدبي عند العرب ، أنّ هذا النّقد كان عربياً خالصاً ، لم تؤثّر فيه عوامل الثقافة الخارجية بعد . ولم يتحوّل إلى فن مستقل من فنون الأدب ، ولم يظهر فيه رجال متخصّصون يعنون به ، ويدرسونه دراسات عميقة ومستقلة ، فالنّقد ما يزال مرحلة من مراحل صفاء الذوق والسليقة الأدبيين ، وعبد الملك شأنه شأن رجالات العرب ، أدلى بدلوه بالنّقد وخاض فيه ، وكان له فيه أثر واضح .

صحيح أنّ عبد الملك لم يأت بجديد يعتبر فتحاً في هذا المجال ، لكنّه لم يكن دون غيره مِمّنْ تصدّى للنّقد الأدبي في زمانه .

كيف تناول عبد الملك بن مروان موضوع النّقد

لقد رأينا أنّ مجالس عبد الملك كادت أنْ تكون أدبية خاصلة ، تُذْكَرُ فيها القبائل وأيّامها ومفاخرها وشعراؤها وأشعارهم والمناسبات التي قيلت فيها . فكان طبيعيّاً أنْ يتناولَ القومِ الشّعر من حيث إصابتُه للهدف وبلوغه المراد ومن حيث تناوله للمعاني وحسن سبكها وإبداع الصور فيها . وكان عبد المك يدير هذه المجالس ، ويوجّه الأسئلة ، فإنْ أجاب أحدهم وأحسن الجواب أقرّه علّى جوابه ، وإن لم يحسن الجواب أحد من الحاضرين أنبأهم به في أحسن لفظ وأوجزه وأبلغه .

كان عبد المك يستطرف ويستحسن صورة عَبْدَة بن الطبيب الذي جعل أعراف الخيل مناديل الفرسان . فسأل جلساءه : « أيّ المناديل أشرف » ؟

يمتحن بداهتهم وفهمهم للطف إشارتـه ، فوصف لـه أحدهم منـاديل مصـر ، وقـام آخر يـظهر فضـل مناديـل اليمن ، ولمّا رأى القـومَ عن قصده غـافلين ، قال : « مناديل أخي بني سعد ، عبدة بن الطبيب قال :

لمـا نـزلنـا نصبْنا ظـلّ أخبيـةٍ ... وفـار للقـوم بـاللحم المـراجيـلُ
ورد وأشقر مـا يـونيـه طـابخـه ... مـا غيّر الغلي منـه فهـو مـأكـول
نُمّتَ قمنـا إلى جـرد مسـوّمـة ... أعـرافهنّ لأيـدينـا منـاديـل[1] »

وقال عبد الملك بن مروان وعنده أهل بيته وعدّة من أولاده وخاصتـه : « ليقل كـلّ واحد منكم أحسن مـا قيـل من الشّعـر ، وليفضّـل من رأى تفضيله ، فـأنشـدوا وفضّلوا ، فقـال بعضهم : امـرؤ القيس ، وقـال بعضهم النّـابغـة ، وقـال بعضهم الأعشى ، فلمّا فرغوا ، قال : أشعر واللّه من هؤلاء الذي يقـول[2] : (الشعر لمعن بن أوس) .

وذي رحمٍ قلّمتُ أظفـارَ ضـغنـه ... بحلمي عنـه وهـو ليس لـه حلمُ
يحـاول رغمـي لا يحـاول غيـرَه ... وكالموت عندي أن تحل به الرغمُ[3]
اذا سمتـه وصـل القـرابـة سـامني ... قـطيعتهـا تلك السفـاهـة والاثمُ[4]
ويسعى إذا أبني ليهـدّم صـالحي ... وليس الذي يبني كَمَنْ شأنُه الهدمُ[5]
فمـا زلت في ليـني لـه وتعـطّفي ... عليـه كما تحنـو على الولـد الأمُّ[6]
لأستـلّ منـه الـظّغن حتّى استللتـه ... وقد كان ذا ظغن يصـوّبه الحـزمُ[7]

فعبد الملك يقدّم معن بن أوس على مجموعة من الشّعراء ، وإنّما يفعـل ذلك

---

(1) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص327 ، العقد الفريد : ج 1 ، ص113 ، الاغاني : ج 18 ، ص164
(2) الاغانى : ج 10 ، ص167 ، زهر الاداب : ج2 ، ص817 ، الامالي : ج 2 ، ص101
(3) هذا البيت الرابع في الخبر الذي ذكره صاحب الاغاني : وروايته

يحـاول رغمي لا يحـاول رغمـه ... وكـالمـوت عنـدي ان ينـال لـه رغم

(4) في الاغاني : تلك السفاهة والظلم .
(5) في الاغاني : فاسعى لكي ابني ويهدم صالحي
(6) في الاغاني : فما زلت في لين له وتعطف
(7) في الاغاني : لاستل منه الظغن حتى سللته وان كان ذا ظغن يضيق به الحلم ، وفي الامالي : يضيق به الحزم .

لما يظهر في شعره من الحلم والترفّع عن الأحقاد ووصل القرابة والرحم .

و« وُصِفَتْ لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه في ابتياعها ، فامتنع وامتنعت ، وقالت : لا أحتاج لخلافة ولا أرغب في خليفة ، والذي أنا في ملكه أحبُّ إليّ من الأرض وما فيها ، فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها ، فأضعف الثّمن لصاحبها وأخذها قسراً ، فما أعجب بشيء إعجابه بها ، فلمّا وصلت إليه وصارت في يده ، أمرها بلزوم مجلسه ، والقيام على رأسه ، فبينما هي عنده ، ومعه ابناه الوليد وسليمان ، وقد أخلاهما للمذاكرة ، فأقبل عليهما ، فقال : أيُّ بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك

ألستم خيرَ مَنْ ركب المطايا　　　وأندى العالمين بطونَ راحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل :

شُمسُ العداوة حتّى يستقادَ لهم　　　وأعظم النّاس أحلاماً إذا قدروا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب ، قول حسّان بن ثابت :

يغشون حتّى ما تهرُّ كلابُهم　　　لا يسألون عن السّواد المقبلِ

فأطرق ، ثمّ قال : أيّ بيت قالته العرب أرقّ ؟ فقال الوليد : قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور　　　قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال سليمان : بل قول عمر بن أبي ربيعة :

حبذا رجعها يديها إليها　　　من يدي درعها تحلّ الإزارا

فقالت الجارية : بل بيت حسان :

لو يدبّ الحولة من ولد الذرّ عليها لأندبتها الكلوم

فأطرق ، ثمّ قال : أيُّ بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد : قول عنترة :

إذ يتّقون بي الأسنة لم أضم　　　عنها ولو أنّي تضايق مقدمي

فقال سليمان : بل قوله :

وأنا المنيّة في المواطن كلّها　　　فالموت مني سابق الآجال

فقالت الجارية : بل بيت يقوله كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدماً ونلحقها إذا لم تلحق

فقال عبد الملك : أحسنتِ ، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك أبلغ من ردّك إلى أهلك . فأجمل كسوتها وأحسن صلتها ، وردّها إلى أهلها »[1] .

فالأذواق توزّعت على الشّعراء ، الوليد معجب بشعر جرير وليونة ألفاظه وحلاوتها وعفّته في نسبيه ، بينما سليمان معجب بجزالة الأخطل في المديح ومذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل . وأمّا الجارية فإعجابها قد ناله حسّان بن ثابت . وإن اتفق الأخوان على عنترة ، فإنها فضّلت كعب بن مالك في وصف الشّجاعة . وعبد الملك ما دوره في هذه المناظرة الأدبية ؟ لقد وافق الجارية في آرائها ، وكافأها على ذلك .

« وصنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ، ودعا النّاس ، فأكلوا ، فقال بعضهم : ما أطيبَ هذا الطّعام ، وما نرى أنّ أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه فقال أعرابي من ناحية القوم أمّا أكثر ، فلا ، أمّا أطيب فقد واللّه أكلت أطيب منه . . . . فأشار إليه عبد الملك ، فأُدْنِيَ منه ، فقال : ما أنت بحقٍّ فيما تقول إلاّ أنْ تخبرني بما يبيّن صدقك . . . (فأخبره الرّجل فسأله عبد الملك من أنت فأجاب) أنا رجل جانبتني عنعنة تميم وأسد وكسكسة ربيعة وحوشي أهل اليمن ، وإنْ كنت منهم ، فقال : من أيِّهم أنت ؟ قال : من أخوالك من عذرة ، قال : أولئك فصحاء النّاس ، فهل لك علم بالشّعر ؟ قال : سلني عمّا بدا لك يا أمير المؤمنين . قال أي بيت قالته العرب أمدح ، قال : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

. . . وجرير في القوم فرفع رأسه وتطاول لها ، ثم قال (عبد الملك) فأيّ بيت قالته أفخر ، قال : قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت النّاس كلّهم غضابا

---

(1) زهر الاداب : ج 2 ! ص1086-1087

. . . فتحرك (جرير) قم قال (عبد الملك) له فأيُّ بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغضِّ الطرف إنّك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

. . . فاستشرف لها جرير ، قال (عبد الملك) فأيّ بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

إنّ العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

. . . فاهتزّ جرير وطرب ثم قال (عبد الملك) له : فأيّ بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً ؟ قال قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأنّ نجومه قناديل فيهنّ الذّبالُ المفتّلُ

فقال جرير : جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك وله مثلها من بيت المال ولك جائزتك يا جرير لا ننتقص منها شيئاً . وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة ثياب »[1] .

فجرير طرب لقول العذري فتبّرع له بجائزته ، وعبد الملك وافق على حكم العذري فأعطاه وأعطى جريراً تكريساً لأولّوية شعره . وكما وافق الجارية والعذري في حكميهما فكذلك وافق الشّعبي على حكمه إذ سأل الأخطل والشّعبي حاضر إن كان يحبّ أنْ قال شعراً لشاعر آخر ، فأجاب الأخطل بانّه يحب أن يكون قائلاً أبياتاً لرجل من قومه ، فسأله عن قوله ، فأنشده :

إنّا محبوك فاسلمْ أيّها الطّلل وإنْ بليتَ وإن طالت بك الطّيل

قال الشّعبي : قد طال القطامي أفضل من هذا ، قال : وما قال ؟ قال :

طرقت جنوب رحالنا من مطرق ما كنت أحسبها قريب المعتق

قال عبد الملك : هذا واللّه أشعر ، ثكلت القطامي أمّهُ . . . وقال عبد

(1) الاغاني : ج 7 ، ص54-55

الملك : يا شعبي أيّ نساء الجاهلية أشعر ؟ (قال) الخنساء . قال : ولِمَ فضلتهـ على غيرها ؟ (قال) لقولها :

وقـائلةٍ والنّـاس قـد فـات خـطوهـا   لتـدركه يـا لهف نفسي على صخـر

فقال عبد الملك أشعر منها واللّه التي تقول :

مهفهف الكشـح والسربـال منخـرق   عند القميص لسير الليل محتقر»[1]

فعبد الملك وافق الشّعبي في حكمه للقطامي ولم يوافقه في حكمه للخنساء .

« وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً : ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب في الجاهلية ؟ فأنشده :

منـع البقـاء تقلّب الشّمس   وطلوعهـا مـن حيث لا تمسي
وطلوعهـا بيضـاء صـافيـة   وغـروبهـا صفـراء كـالـورسِ
تجـري على كبـد السمـاء كمـا   يجري حمام المـوت في النّفسِ
اليـوم تعـلم مـا يجـيء بـه   ومضى بفضـل قضـائـه أمسِ

قال : أحسنت ، فأخبرني بأمدح بيت قالته العرب في الشّجاعة ؟ قال : قول كعب بن مالك الأنصاري :

نصـل السيوف إذا قصـرن بخطونـا   قـدمـاً ونـلحقهـا إذا لـم تـلحـق

قال : فأخبرني بأفضل بيت قيل في الجود ؟ فأنشده لحاتم طيء :

أمـاوى مـا يغني الثّـراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بهـا الصّدرُ
تـرى أنّ مـا أبـقيـت لـم أكُ ربّـه   وأنّ يـدي مِمّـا بخلت بـه صفـرُ

إلى آخر الأبيات . قال :فأخبرني عن أحسن النـاس وصفاً ؟ قال : الـذي يقول :

كـأنّ قلوب الـطيـر رطباً ويـابسـاً   لدى وكرها العنّاب والحشف البـالي

والذي يقول :

---

(1)الاغاني : ج 9 ، ص169-171 ، ج 20 ، ص130-131

وتعـرف فيـه من أبيـه شـمـائـلا ومن خالد ومن يزيد ومن حجر»[1]

فاستحسانه لجواب محدّثه نوع من البصر بالشّعر لأنّ استحسانه لم يأتِ عفوا وهو الرّاوي للأشعار والعالم بها ، بل يخيّل إليّ أنّه لم يرد من خلال سؤاله إلاّ هذه الأبيات في الحكمة ، ولو أجاب محدّثه بغيرها لرأيناه يقول : أشعر واللّه من صاحبك الذي يقول كذا . وأُنْشِدَ عبد الملك شعر دريد بن الصّمة :

« جزينا بني عبس جزاء موفّر بمقتل عبد اللّه يوم الذئابِ
ولولا سواد الليل أدرك ركضنا بذي الرمت والأطي غيّاض بن ناشبِ
قتلنا بعبد اللّه خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قاربِ

فقال : كاد دريد أن ينسب ابن أسماء إلى آدم . فلمّا بلغ المنشد قوله :

لولا سواد الليل أدرك ركضنا بذي الرمت والأرطي غيّاض بن ناشب

قال عبد الملك : ليت الشّمس بقيت قليلاً حتّى يدركه »[2] .

فقد لاحظ عبد الملك أنّ دريداً أطال سلسلة نسب ابن اسماء واعجبته صورة الليل الذي وقف حائلاً دون إتمام المطاردة ، فتمنّى أنّ الشّمس بقيت قليلاً ليعلم ما سوف يحدث بعد . « وزعموا أنّ عبد الملك بن مروان استنشد رجلاً من قيس كلمة خدّاش بن زهير :

يا شدّة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

فجعل يحيد عن قوله سخينة ، فقال عبد الملك : إنّا قوم لم يزل يعجبنا السّخن ، فهات . فلمّا فرغ ، قال : يا أخا قيس ما أرى صاحبك زاد على التمنّي والاستنشاء »[3] .

لقد نظر عبد الملك في هذه القصيدة التي بها يفخرون فقال : إنّ ما فيها مجرد أمنيات لم تحقق .

---

(1) ذيل الامالي : ص 30 ، زهر الاداب : ج 2 ، ص766-767
(2) الاغاني : ج 9 ، ص6-7
(3) الاغاني : ج 19 ، ص76

« وكان عبد الملك بن مروان لا يسمع لشعراء مُضَر ولا يأذن لهم لأنّهم كانوا زُبيرية فوفد إليه الحجّاج وفادته التي وفدها ـ لم يفد إليه غيرها ـ فأهدى إليه جريراً ، فدخل عليه فأذن له في النّشيد ، فقام فأنشد مديح الحجّاج واحدة بعد واحدة ، فأومأ إليه الحجّاج أنْ ينشد عبد الملك ، فأنشد التي يقول فيها :

الستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

واعتمد على ابن الزُّبير فقال :

دعوت الملحدين أبا خُبيب ... جماحاً هل شُفيتَ من الجماح
وقد وجدوا الخليفة هزبريّاً ... ألفّ العيص ليس من النواحي
وما شجرات عيصك في قريش ... بعشّات الفروع ولا الضواحي

وقال :

تعزّت أمُّ حزرة ثم قالت ... رأيت الموردين ذوي لقاح
تعلّل وهي ساغبةٌ بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح
يعزّ على الطريق بمنكبيه ... كما ابترك الخليع من القداح

فقال له عبد الملك فهل ترويها مائة من الإبل ؟ فقال : وهل إليها من سبيل ، جعلني اللّه فداءك يا أمير المؤمنين ، فأعطاه مئة من الإبل وثمانية من الرّعاء ، فذكرها جرير في مديحه ليزيد بن عبد الملك ، وهو خليفة ، فقال :

أعطوا هُنيدةَ يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرفُ»[1]

فعبد الملك تميّز غيظاً وهو يسمع مديح جرير بالحجّاج واحدة واحدة ، ولكن عندما سمع مديحه له صفح عنه وكافأه ، وفي هذه المكافأة إقرار بتفوّق جرير في المديح أو على الأقل فإنّ مديحه لعبد الملك كان أفضل من مديحه للحجّاج ولولا حكمه هذا لما كافأه أبداً .

---

(1) طبقات الشعراء : ص 100 -101 -115 ، العقد : ج 1 ، ص278 وما بعدها ، ذيل الامالي : ص 42-45 ، وقد جاء في العقد وفي ذيل الامالي أنّ وفادته كانت مع محمد ابن الحجّاج وليس مع الحجّاج وفي الأمالي تفاصيل أكثر لهذه الوفادة . وفي الاغاني تفاصيل مماثلة وتختلف قليلاً عن الامالي : ج 7 ، ص181 . وفيها حكم عبد الملك للأخطل بأنّه شاعر بني أمية .

وكان عبد الملك يعجب بالقيم الأخلاقية في شعر العُجير السّلولي ، إذ قال لمؤدّب ولده « إذا روّيتهم الشّعر فلا تروّهم إلاّ مثل قوله :

يبين الجارُ حينَ يبينُ عنّي ... ولم تأنس إليّ كلابُ جاري
وتظعن جارتي من جنب بيتي ... ولم تستر بسترٍ من جواري
وتأمن أنْ أطالع حين آتي ... عليها وهي واضعةُ الخمارِ
كذلك هديُ آبائي قديماً ... توارثه النّجارُ عن النّجار
فهديي هديُهم وهم افتلوني ... كما افتلي العتيقُ من المِهارِ[1]

فانتخاب الشّعر واستحسانه وتفضيله على غيره لمعناه أو لحسن عبارته نوع من النّقد .

« ودخل كثّير على عبد الملك بن مروان ، فقال عبد الملك : أأنت كثير عزّة ؟ قال : نعم ، قال : أنْ تسمع بالمعيدي خير من أنْ تراه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كلّ عند محلّه رحب الفناء ، شامخ البناء ، عالي السّناء ، ثم أنشأ يقول[2] :

ترى الرّجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسدٌ هصورُ
ويعجبك الطّريرُ إذا تراه ... فيخلف ظنَّك الرّجل الطريرُ
بغاثُ الطّير أطولها رقاباً ... ولم تطل البزاة ولا الصقورُ
خشاش الطّير أكثرها فراخا ... وأمّ الصّقر مقلات نزورُ
ضعاف الأُسْدِ أكثرُها زئيراً ... وأحزمها اللواتي لا تزيرُ
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعيرُ
ينوّح ثم يضرب بالهراوي ... فلا عرفٌ لديه ولا نكيرُ
يُقَوِّده الصبيُّ بكلّ أرض ... وينحره على الترب الصغيرُ
فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم كرمٌ وخيرُ
فإنْ أكُ في شراركم قليلاً ... فإنّي في خياركم كثيرُ

فقال عبد الملك : للّه درّه ، ما أفصحَ لسانَه ، وأضبطَ جنانَه ، وأطولَ عنانَه !

---

(1) الاغاني : ج 11 ، ص158

(2) في ديوان الحماسة : هذه الأبيات للعبّاس بن مرداس .

والله ، إنّي لأظنّه كما وصف نفسه »[1] .

لقد حكم عبد الملك لكثيّر بفصاحة اللسّان وثبات الجنان ، وطول العنان ، عندما سمع قوله .

« ودخل أرطأة بن سهيّة على عبد الملك بن مروان وكان قد هاجى شبيب بن البرصاء فأنشده قوله فيه :

أبي كان خيراً من أبيك ولم يزل   جنيباً لآبائي وأنت جنيب

فقال له عبد الملك : كذبت ، ثم أنشده قوله فيه :

وما زلت خيراً منك مذ عضّ كارهاً   برأسك عاديّ البجاد ركوب

فقال له عبد الملك صدقت . وكان أرطأة أفضل من شبيب نفساً وكان شبيب أفضل من أرطاة بيتاً[2] » .

فعبد الملك ينقد لا من حيث الصّياغة والمعاني وإنّما من حيث الصدق والكذب فيما يقوله الشّاعر . وأنشده الأخطل قوله :

«بكَرَ العواذلُ يتبدرن ملامتي   والعاذلون فكلُّهم يلحاني
في أن سبقت بشرية مقدّية   صرف مشعشة بماء شنان

فقال له عبد الملك : شبيب ابن البرصاء أكرم وصفاً منك لنفسه حيث يقول :

وإنّي لَسهلُ الوجهِ يعرف مجلسي   إذا أحزن القاذورة المتعبّس
يضيء سنا جودي لمن يبتغي القِرى   وليل بخيل القوم ظلماء حندس
ألين لذي القربى مراراً وتلتوي   بأعناق أعدائي حبال فتمرس»[3]

فقد نظر لما وصف الأخطل نفسه به وقارن ما جاء به ابن البرصاء في هذا المعنى ، فوجد فرقاً وتفاضلاً في المعاني ، فأعرب عنه .

«وقال عبد الملك : كان شاعر ثقيف في الجاهلية خيراً من شاعرهم في

(1) الامالي : ج 11 ، ص46-47 ، زهر الاداب : ج 1 ، ص352-356
(2) الاغاني : ج 11 ، ص93-94
(3) الاغاني : ج 11 ، ص97-98

الإسلام فقيل له مَنْ يعني أمير المؤمنين ، فقال لهم : أما شاعرهم في الإسلام فيزيد بن الحكم الذي يقول :

فمـا منـكَ الشّبـابُ ولستَ منـه إذا سـألتـك لحيتُـك الخضـابـا
عقـائـل من عقـائـل أهـل نجـدٍ ومـكّـةَ لـم يـعـقّـلن الـرّكـاب

وأمّا شاعرهم في الجاهلية فيقول :

والـشـيـب إنْ يـظهـرْ فـإنّ وراءه عـمـراً يكـون خـلالـه مـتـنـفّس
لم ينتقصْ مني المشيب قـلامـةً ولـمـا بقى مني ألّب وأكـيس»[1]

فعبد الملك يقابل بين قولين لشاعرين مختلفين أحدهما إسلامي والآخر جاهلي ، لكنّهما يتصدّيان لنفس الموضوع ، الشّاعر الإسلامي يعتبر الشيب نهاية الشباب ، وما الخضاب إلا خدعة للنفس وللآخرين وربيع الإنسان وسعادته في شبابه فإذا ابيضّ شعره ولّى شبابه إلى غير رجعة .

والشاعر الجاهلي يقف من الشيب موقفاً آخر فعلامة الشيب دليل على غنى الانسان بالتجارب فالشيب لا يأخذ إلا القليل ، وإنْ أخذ فلا يأخذ إلّا النزق والطيش والغرور ، ويبقى العقل والكياسة .

حقيقة الشيب واحدة في كلّ زمان ومكان ، ولكنّ الحقيقة تختلف باختلاف الأشخاص والزوايا التي منها ينظرون . ومعنى الشاعر الجاهلي ألطف بدون شكّ وقد وقع في نفس عبد الملك موقعاً حسناً .

واجتمع عمر بن أبي ربيعة وكثيّر عزّة وجميل بن مَعَمر بباب عبد الملك بن مروان ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، فقال : « انشدوني أرقّ ما قلتم في الغواني ، فأنشده جميل :

حلفت يميناً يا بُثينة صادقاً فإنْ كنت فيها كاذباً فعميتُ
إذا كان جلدٌ غير جلدِكِ مسّني وباشرني دون الشّعار شريتُ
ولو أنّ راقي الموتَ يرقى جنازتي بمنطقها في النّاطقين حييتُ

(1) الاغاني : ج 11 ، ص102

وأنشد كثيّر عزّة :

بــأبـي وأمّـي أنـت مـن مـظلومـة | طبن العــدو لهــا فـغيّــر حــالـهَــا
لو أنّ عزّة خـاصمت شمسَ الضّحى | في الحسن عنـد مـوفق لقضى لهــا
وسـعى إليّ بـصـرم عــزّة نـســوةٌ | جعـل المليـكُ خــدودَهن نعـالهــا

وأنشد بن أبي ربيعة المخزومي :

ألا ليت قبــري يــوم تقضي منيـتي | بتلك التي من بين عيـنيــكِ والـفمِ
وليت طهــوري كــان ريقَــكِ كـلّه | وليت حنـوطي من مشاشَـكِ والـدمِ
ألا ليت أمَّ الفضــل كـانت قــرينتي | هنــا أو هنــا فـي جنّــةٍ أو جـهنـمِ

فقـال عبد الملك لحـاجبه : أعطِ كـلَّ واحد منهم ألفين وأعطِ صـاحب جهنم عشرة آلاف »[1] لماذا أعطى عبد الملك كـلاًّ منهم ألفين إلاّ عمر فـإنّه أعـطاه عشرة آلاف ؟

لقد قيّم شعر كلّ من الشّعراء الثّلاثة فـوجد شعـر عمر أجـودهم نادرة فجميـل حلف يميناً أنّه وفيّ لحبيبته وأنّ صوتهـا قد يعيـده إلى الحياة ، ورأى كثيّـر أنّ حبيبته أجمل من الشمس ثم دعا ربّه أنْ يجعل من خدود النّسوة الحاسدات نعـالاً لها فـأيّ رقّـة في هذه الصبيّـة التي تنتعل خـدود النّســاء ؟ وأمّـا عمـر فقـد خلص إلى التمنّي والدّعاء أنْ يقترن بأمّ الفضل المكان غيـر مهمٍّ ولا الزمـان فالغـاية أمّ الفضـل البقاء معها في الجنّة أو في جهنم ، وهذا المعنى هو الذي جعل عبـد الملك يفضّل عمـر على جميل وكثيّر .

و« قال يوماً لجلسائه : أعلمتم أنّ الأحوص أحمق لقوله :

فمـا بيضـة بــات الـظليم يخصّهــا | ويجعلهــا بين الجنــاح وجــوصله
بــأحسنَ منهـا يــومَ قـالت تــدلّـلاً | تبــدّلْ خليلي إنّنـي متبــدّلــه»[2]

(1) ذيل الامالي : ص 67 ، ويوجد اختلاف بين ديل الامالي والديـوان ، ص 244 ، ديوان ابن ابي ربيعة ، نشر ليبزغ 1901

(2) انظر مقالة عبد العزيز احمد في الاديب عدد نيسان 1943

فعاب عبد الملك على الأحوص المعنى الذي ذكره في باب الغزل فالمرأة توصف بالوفاء والعفّة ، لا بالتقلّب والتبدّل .

وكما نقد الألفاظ والمعاني فقد نقد القوافي أيضاً ، فعندما أنشده عبيد اللّه بن قيس الرّقيّات قصيدته في قتلى الحّرة من أهله :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعن مَرْوَتِيَه
وجبّنني جأبّ السّنام ولم يتركن ريشاً في مناكبيه

وقال : أحسنت لولا أنّك خنثت في قوافيه ، فقال ما عدوت كتاب اللّه (ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه »[1] .

وشتّان بين القولين .

ويتفاخر الأخطل وجرير والفرزدق بحضرته فيقول الفرزدق :

«أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاءُ

ويقول الأخطل :

فإنْ تك زق زاملة فإنّي أنا الطاعون ليس له دواء

ويعقّب جرير على أقوالهما :

أنا الموت الذي آتي عليكم وليس لها رب مِنّي نجاء

فحكم عبد الملك بتفوّق جرير عليهما : »[2] .

وينشده شاعر اسمه أيمن بن خُزَيم الأسدي في وصف النّساء أبياتاً منها :

رأيت الغواني شيئاً عجابا لو آنس منّي الغواني الشّبابا
ولكنّ جمع العذارى الحسان عناء شديد إذا المرء شابا
ولو كِلْتَ بالمدح للغانيات وضاعفت فوق الثّياب ثيابا»

(1) المرجع السابق .
(2) انظر مقالة عبد العزيز احمد في الاديب ، عدد نيسان 1943

فقال : « ما وصف أحد النّساء مثل صفتك ولا عرفهنّ أحد كمعرفتك ، ثم ينشد قول علقمة بن عبدة :

فإنْ تسألوني بالنّساء فإنّني خبيرٌ بأدواء النّساء طبيب

فيصدّقه ويستحسن قوله[1] .

وسأل عبد الملك كثيّر عزّة عن أشعر النّاس فقال له إنّ أشعر النّاس من يروي أمير المؤمنين شعره ، فقال عبد الملك عن كثيّر أنّه منهم .[2]

وفي هذا حكم من عبد الملك أنّ كثيّراً في الطّبقة الأولى من الشّعراء .

واستفزّه طرباً واستحساناً قول عبد من عبيده وقد ركب (عبد الملك) بكراً :

«يا أيّها البكر الذي أراكا عليك سهل الارض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا خليفة الأرض الذي امتطاكا

لم يحبَ بكر مثلما حباكا »[3]

« ويقال إنّ الحارث بن خالد تزوّج حميدة بنت النعمان بن بشير بدمشق ، لمّا قدم على عبد الملك بن مروان ، فقالت فيه :

نكحت المدينيّ إذ جاءني فيا لكِ من نكحةٍ غاوية
كهول دمشق وشبانها أحبّ إلينا من الجاليه[4]
صِنان لهم كصنان التيو سِ أعيا على المسك والغاليه

. . . فبلغ عبد الملك قولها ، فقال : لولا أنّها قدمت الكهول على الشّباب لعاقبتها »[5] إذن فقد أحسنت حميدة فعلاً بتقديم الشّيوخ على الشّباب وقام رجل بين يدي عبد الملك « فاعتذر من أمر وحلف عليه ، فقال له عبد الملك : ماكنت

(1) المرجع السابق .
(2) الاغاني : ج 8 ، ص36
(3) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها .
(4) الجالية : اهل الحجاز وكان اهل الشام يسمونهم الجالية لانهم يجلون من بلادهم الى الشام .
(5) الاغاني : ج 8 ، ص 38

حريا أن تفعل ، ولا تعتذر ثم أقبل على أهل الشّام فقال : أيُّكم يروي من اعتذار النّابغة الى النعمان :

حلفت فلم أترك لنفسِك ريبةً   وليس وراء اللّه للمرء مذهب»[1]

فلم يجد من يرويه ، فأقبل على(عمر بن المنتشر المرادي) فقال : أترويه ؟ (قال) نعم ، فأنشده القصيدة كلها ، فقال « هذا أشعر العرب »[2] .

وعبد الملك هنا ملتفت إلى موضوع الإعتذار ليس إلّا وحكمه بأنّ النّابغة أشعر العرب منصرف إلى الإعتذار دون غيره من الأبواب ، فقد غنّت إحدى الجواري بحضرة عبد الملك بن مروان :

«قرّب اللّه بالسّلام وحيّا   زكريّا بن طلحة الفياضِ
زاده خالد ابن عمّ أبيه   منصباً كان في العلا ذاانتقاض
فرح تيم من تيم مرّة حقّاً   قد قضى ذاك لابن طلحة قاض»

فقال عبد الملك للجارية : ويحك لِمَنْ هذا ؟ قالت : للأُقيشر ، قال : هذا المدح لا على طمع ولا فرق ، وأشعر النّاس الأقيشر »[3] فالأقيشر لم يمدح خوفاً من سلطان ولا طمعاً في عطيّة ، فَمَنْ يقول بلا خوف ولا رجاء هو الشّاعر حقاً وهو عند عبد الملك أشعر النّاس .

« وقال عبد الملك للأقيشر أنشدني أبياتك في الخمر فأنشده :

تريك القذى من دونها وهي دونه   لوجه أخيها في الإناء قطوبُ
كميت إذا فضت وفي الكاس وردة   لها في عظام الشاربين دبيبُ

فقال له : أحسنت يا أبا معرض ولقد أجدت وصفها وأظنّك قد شربتها ، فقال : واللّه يا أمير المؤمنين إنّه ليريبني منك معرفتك بهذا »[4] لقد وصف أبيات الأقيشر بالحسن وجودة الوصف ولا يجيد الوصف إلّا مَنْ عاين ، فظنّه شربها ،

---

(1) الاغاني : ج 9 ، ص 163
(2) الاغاني : ج 9 ، ص163
(3) الاغاني : ج 10 ، ص87
(4) الاغاني : ج 10 ، ص93

وجواب الأقيشر اتهام مضاد ، ما أدراك بحسن صفتي لها لو لم تعانيها ؟ وينصح عبد الملك بني أميّة فيقول : « يـا بني أميّة ، أحسـابكم أعراضكم ، لا تعـرضوهـا على الجهّال . فإنّ الذّمّ باقٍ ما بقي الدّهر ، واللّه ما سرّني أنّي هجيت ببيت الأعشى وأنّ لي طلاع الأرض ذهباً ، وهو قوله في علقمة بنْ علاثة :

يبيتون في المشتى ملاءً بـطونهم وجـاراتهم فـرثى يبتن خمـائصـاً

واللّه ما يبالي مَنْ مُدِحَ بهذين البيتين ألاّ يمدح بغيرهما وهما قول زهير :

هنـالـك إنْ يستخبلوا المــال يخبلوا وإن يسألوا يعـطوا وإن ييسروا يغلوا
على مكثــريهم حقّ من يعتــريهـم وعنـد المقلّين السّماحـةُ والبذلُ»[1]

فهو يحذّر بني أميّة أن يعرّضوا أنفسهم للهجاء فإنّ مياسمـه تبقى أبد الـدّهر ، ويرى في قول الأعشى أقذع أنواع الهجـاء ، ويرى في أبيـات زهير ذروة المـديح . وهذا الحكم نابع من قيم المديح والهجاء في البيئة الإجتماعية فالوصمة بالبخل سبّة الدّهر ، والوصف بالكرم أحسن القيم المدحيّة ، ولكن هل كـان اختيار عبـد الملك لهـذه الأبيات نـاتجاً عمّـا تضمنته من المعـاني فقط ؟ وهل كـلّ إنسـان اتهم الآخـر بـالبخل أو وصفـه بالكـرم يصل إلى الغـاية التي وصـل إليهـا الأعشى أو زهيـر ؟ إنّ المعنى مهمّ من غير شكّ ولكنّ صياغة وتصـوير هـذه المعاني هي التي جعلت منهـا أهجى وأمدح ما قيل .

« وقـال الأخطل لعبـد الملك يـا أميـر المؤمنين ، زعم ابن المُـراغـة أنّـه يبلغ مدحتك في ثلاثة أيّام ، قد أقمت في مدحتك « خفّ القـطين » سنة فمـا بلغت كلّما أردت ، فقال عبد الملك : ما سمعناها يا أخطل فأنشده إيّاها ، (فصار) . . . عبـد الملك يتطاول لها ثمّ قـال : ويحك يـا أخطل ، أتـريد أنْ أكتب إلى الآفـاق ، أنّك أشعـر العرب ؟ قـال : أكتفي بقول أميـر المؤمنين فأمـر له بجفن كـانت بين يديـه ، فملئت دراهم وألقى عليه خلعاً ، وخرج به مـولى عبد الملك على النّـاس ، يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب »[2] ويقول الأخطل في هذه القصيدة :

---

(1) زهر الاداب : ج 2 ، ص1088 ، الامالي : ج 2 ، ص154
(2) الاغاني : ج 7 ، ص172-175.173-176

«شمسُ العداوة حتّى يستقادَ لهم ... وأعظم الناسِ أحلاماً إذا قدروا
حُشْدُ على الحقّ عن قول الخناخُرْسُ ... وإن ألمّت بهم مكروهةُ صبروا
بني أميّةَ إنّي ناصحٌ لكم ... فلا يبيتَنَّ فيكم آمنا زُفَرُ
فإنّ مشهده كفر وغائلة ... وما يغيب من أخلاقه دعر
إنّ العداوة تلقاها وإنْ قدمت ... كالعرّيكمن أحياناً وينتشر
بني أميةَ قد ناضلتُ دونَكم ... أبناء قومٍ هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتّى أقبلوا رقصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجّوا من الحرب إذ عضّت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر»[1]

وعبد الملك هنا لم ينظر الى القصيدة ككلّ فني متكامل ، إنّما نظر إليها من خلال قيم مدحية قد سبغها الأخطل عليه ، كقوله :

شمس العداوة حتّى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا

ولو نظر إليها نظرة كلّية ، فأغلب الظنّ أنّه لم يغب عنه ما فطن إليه الجلاح بن ضوء ، ففي هذه القصيدة هجا الأخطل زفر بن الحارث الكلابي ثمّ خوّفَ الخليفةَ منه فقال :

بني أمية إنّي ناصح لكم ... فلا يبتنّ فيكم آمنا زفر
مفترشاً كافتراش الليث كلكله ... لوقعة كائن فيها له جزر[2]

فقد مدح الأخطل زفر من غير قصد وأراد له الهجاء وهذا عيب في الشّعر لم يفطن له عبد الملك لأنّه لم ينظر للنّصّ نظرةً كلّيّة وقد أُخِذَ بما مدحه به الأخطل فغفل عمّا في القصيدة من مآخذ .

ولمّا أُنْشِدَ عبد الملك قول كثيّر فيه :

فما تركوها عنوة عن مودّة ... ولكن بحد المشرفي استقالها[3]

« فأعجب به ، فقال الأخطل : ما قلت له واللّه يا أمير المؤمنين ، أحسن

---

(1) طبقات الشعراء : 115-116
(2) الاغاني : ج 7 ، ص176
(3) الاغاني : ج 7 ، ص 173

منه ، قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا … موالِيَ ملكٍ طريف ولا غصبُ

جعلته لك حقّاً ، وجعلك أخذته غضباً قال : صدقت »[1]

فالأخطل يشير عليه ويلفت نظره إلى قيمة نقديّة معنويّة لم يفطن إليها كذلك .
وسأل عبد الملك أُسيلم بن الأحنف الأسدي عن أحسن ما مدح به ، فاستعفاه ، فأبى وكان معه على السّرير ، فقال له : قول القائل :

ألا أيّها الركب المخِبّون هل لكم … بسيّد أهل الشّام تُحْبَوا وتَرجِعُوا
من النّفر البيض الذين إذا اعتزوا … وهاب الرّجال حَلْقَةَ الباب قعقعوا
إذا النّفر السود اليمانون نمنموا … له حَوْكَ بُرْدَيْهِ أجادوا وأوسعوا
جلا المِسكُ والحمّام والبيضُ كالدُّمى … وَفَرْقُ المَداري رأسَهُ فهو انزَعُ

فقال له عبد الملك : ما قال أخو الأوس أحسن فما قيل لك (قال أبو الحسن ، هو أبو قيس ابن الأسلت) :

قد حَصّت البيضة رأسي فما … أُطْعَمُ نوماً غيرَ تهجاعِ »[2]

« وقال نُصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإنْ أمت … أولّي بدعد مَنْ يهيم بها بعدي

فلم تجد الرّواة ، ولا مَنْ يفهم جواهر الكلام له مذهباً حسناً ، وذكر عبد الملك ذلك لجلسائه ، فكلّ عابه ، فقال عبد الملك : فلو كان إليكم ، كيف كنتم قائلين ؟ فقال رجل منهم : كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت وإنْ أمت … فوا حزناً مَنْ ذا يهيم بها بعدي

فقال عبد الملك : ما قلت واللّه أسوأ مِمّا قاله ، فقيل له : فكيف كنت قائلاً في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كنت أقول :

أهيم بدعد ما حييت فإنْ أمت … فلا صلحت دعد لذي خلّةٍ بعدي

---

(1) الاغاني : ج 7 ، ص173
(2) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص105

فقالوا : أنت أشعر الثّلاثة يا أمير المؤمنين »[1] .

فالنّقد موجّه إلى عبارة في بيت من الشّعر انتقدها الرّواة ومَنْ يفهم جواهر الكلام ، وانتقدها عبد الملك ومن حضر مجلسه ، فحاولوا إصلاحها كما جاء بالخبر وحكم الموجودون لعبد الملك بأنّه أشعر الثلاثة . عبد الملك انتقد من حاول إصلاح البيت وفضّل قول نُصَيب على قوله ، ولكن هل جاء عبد الملك بجديد ؟ إنّ نصيباً جعل من دعد مثالاً للحب لا تغيّره الأيّام فأراد أنْ يجعل خليفة على دعد ، والرّجل الذي حاول إصلاح البيت لم يخرج على المعنى العام ، إنّما سيطرت عليه أنانيّته فسيطر عليه الوجوم أنْ يهيم بها بعده أحد ، وعبد الملك كيف نظر إلى دعد ؟ هل نظر أليها كإنسانة يحقّ لها التمتّع بما بقي لها من العمر بعده ؟ لقد نظر إليها كالمتاع والأواني التي يجمعها في قصره بل المتاع والأواني يمكن استخدامها بعده ويريد من دعد أنْ تتحوّل بعده إلى خرقة بالية لا تصلح لشيء . وهو على كلّ حال لم يخرج على المعنى العام وهو حالة دعد بعد موت صاحبها عنها . فلا نُصَيب ولا الرّجل الآخر ولا عبد الملك نظروا إلى دعد النّظرة الإنسانيّة المطلوبة . فدعد إنسانة لها عواطفها وميولها الإنسانية فإنْ هام بها أحد من النّاس وهامت به فعلاً ، وكانت أهلاً لهيام الرّجل بها فلا بدّ من وقفة وفاء لها بعد موته عنها ، وإنْ لم تكن صاحبة وفاء ، فما نفع الهيام بها وما قيمته ؟

وكان عبيد اللّه بن قيس الرّقيّات مع مصعب بن الزُّبير ، فلمّا قتل مصعب ، أخذ له عبد الله ابن جعفر أماناً من عبد الملك بن مروان ، فوفد عليه وأنشده :

عاد له من كُثيرة الطّرب ... فعينه بالدّموع تنسكب
ما نقموا من بني أمية إلاّ ... أنهّم يحلمون أنْ غضبوا
وأنّهم معدن الملوك فلا ... تصلح إلاّ عليهم العرب
خليفة الله فوق منبره ... جفّت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التّاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه ذهب
تجرّدوا يضربون باطلهم ... بالحقّ حتى تبيّن الكذب[2]

---

(1) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص106
(2) طبقات الشعراء : ص138

« فقال عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتّاج كأنّي من العجم وتقول في مصعب :

إنّما مصعب شهاب من اللّه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزّ ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أمّا الأمان فقد سبق لك ، ولكن واللّه ، لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً »[1]

فقد أخذ عبد الملك على ابن قيس أنْ يصفه بالتّاج والملك ويصف مصعباً بأنّه شهاب من اللّه ، وإنّ ملكه ليس فيه جبروت ولا كبرياء ، فالخلافة منصب ديني وسياسي ومدح ابن قيس لمصعب فيه من صفات الخليفة أكثر من الصّفات الموجودة في مديحه لعبد الملك وألْيق منها .

كما نفس عبد الملك مصعب لمدحة عبيد اللّه بن قيس فيه ، فكذلك نفس عبد اللّه بن جعفر فقد مرّ معنا أنّ عبد الملك منع ابن قيس من العطاء فعوّضه ابن جعفر أضعاف ذلك فقال :

«تعدّت بي الشّهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها
تزور امرأً قد يعلم اللّه أنّه تجود له كفّ قليل غرارها
أتيناكَ نثني بالذي أنت أهله عليك ما يثني على الروض جارها
فوالله لولا أنْ تزور ابن جعفر لكان قليلاً في دمشق مزارها
إذا متّ لم يوصل صديق ولم تقم طريق من المعروف أنت منارها
ذكرتك إنْ فاض الفرات بأرضنا وفاض بأعلى الرّقتين بحارها
وعندي مِمّا خوّل اللّه هجمه عطاؤك منها شولها وعشارها
مباركة كانت عطاء مبارك تمانح كبراها وتنمى صغارها»

. . . قال عبد الملك لعبيد اللّه بن قيس : ويحك يا ابن قيس ، أما اتقيت اللّه حين تقول لابن جعفر :

تزور امرأً قد يعلم اللّه أنّه تجود له كفّ قليل غرارها

---

(1) الكامل في اللغة : ج 1 ، ص399-400 ، الاغاني : ج 4 ، ص158

ألا قلت : قد يعلم النّاس ولم تقل قد يعلم اللّه ؟ فقال له ابن قيس : قد علمه اللّه وعلمته أنت وعلمته أنه وعلمه النّاس »[1]لقد رأى عبد الملك في عبارة (قد يعلم اللّه) مبالغة وغلوا في المديح ما كان ينبغي أن تقال إلّا للخلفاء .

« وعن المدائني قال : إنّ عبد الملك لمّا وهب لابن جعفر جرم عبيد اللّه بن قيس وأمّنه ثمّ تواثب أهل الشّام ليقتلوه ، قال : يا أمير المؤمنين ، أتفعل هذا بي وأنا الذي أقول :

اسمع أمير المؤمنين لمدحتي وثنائها
أنت ابن معتلج البطاح كديّها وكدائها
ولبطن عائشة التي فضلت أروم نسائها

فلمّا أنشد هذا البيت قال له عبد الملك : قل لنسل عائشة ، فقال : لا ، بل لبطن عائشة حتّى ردّد ذلك ثلاث مرات وهو يأبى إلّا بطن عائشة فقال له عبد الملك : أمسحنفر الآن[2] فعبد الملك لم يجد كلمة بطن في الشعر مستملحة مع أن رواة الانساب يستعملونها كثيراً . ووفد العُجير السلولي على عبد الملك بن مروان ، فأقام ببابه شهراً حتى دخل عليه ، فلمّا مثل بين يديه أنشده :

ألا تلك أمّ الهبرزي تبّنت عظامي ومنها ناحل وكسير[3]

فقال له عبد الملك لم تمدح إلّا نفسك . ومدح ذو الرّمة عبد الملك بقصيدة فما ذكره إلا بهذين البيتين :

« وكائن تخطى ناقتي من مفازة إليك ومن أحواض ماء مسدّمِ
بأعقاده القردان هربى كأنّها بوادر ميصاء الهبيد المحطّمِ

وسائرها في ناقته ، فلما قدم على عبد الملك بها ، أنشده إيّاها ، فقال له : ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك ، فخذ منها الثّواب »[4] .

(1) الاغاني : ج 4 ، ص158-159
(2) الاغاني : ج 11 ، ص50
(3) الاغاني : ج 11 ، ص 156
(4) الاغاني : ج 10 ، ص158

فقد أخذ على العُجير السّلولي أنّه أراد مدحه فمدح نفسه وعلى ذي الرّمة أنّه أراد مدحه فمدح ناقته .

« ودخل وفد بني أسد على عبد الملك بن مروان ، فقال : من شاعرُكم يا بني أسد ؟ قالوا : إنّ فينا الشعراء ما يرضى قومهم أنْ يفضّلوا عليهم أحداً ، قال لهم : فما فعل الأقيشر ، قالوا : مات ، قال : لم يمت ولكنّه مشتغل بعشقه وما أبعد أنّه شاعركم إلاّ أنّه يضيّع نفسه ، أليس هو القائل :

يا أيُّها السّائل عمّا مضى	من علم هذا الزمن الذاهب
إنْ كنت تبغي العلم أو أهله	أو شاهداً يخبر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها	واعتبر الصّاحب بالصّاحب »[1]

فقد أعطى حكماً بأنّ الأقيشر شاعر بني أسد ومأخذه عليه أنّه مشتغل بالعشق .

« وجلس (الطرّماح) في حلقة فيها رجل من بني عبس ، فأنشده العبسي قول كثيّر في عبد الملك :

فكنت المعلى إذ أجلت قداحهم	وجل المنيح وسطها يتقلقل

فقال الطرّماح : أما إنّه أعلاهم كعباً ولكنّه موّه عليه في الظّاهر وعنى في الباطن أنّه السابع من الخلفاء الذين كان كثيّر لا يقول بإمامتهم لأنّه أخرج علياً عليه السّلام منهم . فإذا أخرجه كان عبد الملك السّابع ، وكذلك المعلى السابع من القداح ، فلذلك قال ما قاله وقد ذكر ذلك في موضع آخر فقال :

وكان الخلائف بعد الرّسو	ل للّه كلّهم تابعا
شهيد ان من بعد صدّيقهم	وكان ابن خولى لهم رابعا
وكان ابنه بعده خامساً	مطيعاً لِمَنْ قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى	وكان ابنه بعده سابعا»[2]

فقد غاب عن عبد الملك المعنى الذي أراده كثيّر وفطن له الطرمّاح وقد تكون

(1) الاغاني : ج10 ، ص88

(2) الاغاني : ج 10 ، ص158-159

الأبيات التي استشهد فيها الطرّماح أنارت له السبيل لفهم البيت الأوّل فهماً صحيحاً .

وبعد أنْ احترف أغلب كبار الشّعراء المديح وشعر المناسبات وارتبطوا بالسلْطان يبتغون لديه العطاء . كانوا يدورون في حلقة مفرغة من المعاني والصور والتشبيهات التي تناسب هذا المقام أو ذاك كتشبيه الكريم بالبحر والغيث والشّجاع بالأسد وغيرها من التشبيهات والإستعارات التي فقدت قدرتها على الإيحاء والتأثير ، وقد تبّرم عبد الملك من مسلكية الشعراء فقال لهم : « تشبّهوني مرّة بالأسد ، ومرّة بالبازي ، ومرّة بالصّقر ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري في المهلّب وولده :

«براك اللّه حين براك بحراً	وفجرّ فيك أنهاراً غزارا
بنوك السابقون إلى المعاني	إذا ما أعظم النّاس الخطارا
كأنهم نجوم حول بحر	دراری تكّمل فاستدارا
ملوك ينزلون بكلّ ثغر	اذا ما الهام يوم الرّوع طارا
رزان في الأمور ترى عليهم	من الشيخ الشمائل والنجارا
نجوم يهتدي بهم إذا ما	أخو الظلماء في الخمرات حارا»[1]

واذا تأملنا هذه الأبيات وجدناها لا تبعد كثيرا عن الحلقة التي وصفناها ، إنّما الطريقة التي تناول فيها الشاعر هذه المعاني ، هي التي جعلتها تنال من إعجاب عبد الملك ما نالت فيجعلها مثالا لشعر المديح الجيد .

« ودخل كثيّر على عبد الملك فأنشده مدحته وفيها :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينه   أجاد المسدّى سردها فأذالها

فقال عبد الملك : أفلا قلت ، كما قال الأعشى لقيس بن معدي كرب :

كنت المقدم غير لابس جنّة   بالسّيف تضرب معلماً أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ، ووصفتك بالحزم »[2] فقد فضّل عبد الملك صورة الفتى العربي في الشجاعة ، تلك الصورة المنتزعة مِمّا كان يؤمن به

(1) الاغاني : ج 13 ، ص 58

(2) طبقات الشعراء : ص123

العرب من أنّ الفتى الشجاع حقاً هو المقدام في الحروب بدون دروع يتدرّع بها .

« وذكر الشعر عند عبد الملك . . . فقال : إذا أردتم الشّعر الجيّد فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة ـ وهم رهط أعشى بكر ـ وبأصحاب النخل من يثرب ـ يريد الأوس والخزرج ـ وأصحاب الشعف من هُذَيل (والشعف رؤوس الجبال) »[1]

فعبد الملك لا يكتفي من الشّعر بالرواية والنقد إنّما يتتبع منابع الشّعر في القبائل والبيئات العربية ويعرف أماكن وأصحاب الذراع الطويلة في الشّعر . وفي هذا القول لفتة إلى أن البيئة الشّعرية لاقت من اهتمام النّقاد العناية فيما بعد .

ولمّا أراد عبد اللّه بن عبد الملك الحجّ أوصاه عبد الملك ، فقال « سيأتيك الحزين الشّاعر بالمدينة ، وهو ذرب اللسان ، فإيّاك أن تتحجّب عنه ، وارضه ، وصفته أنّه أشعر ذو بطن عظيم الأنف »[2] .

« واجتمعت الشعراء عند عبد الملك بن مروان ، فقال لهم : أبَقِيَ أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ، فقال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين ، قد بقي من هو أشعر منهم ، قال : ومن هو؟ قال : عمران بن حطّان ، قال : فكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنّه قال وهو صادق ففاقهم وهم يكذبون ، فكيف لو كذب كما كذبوا . . . »[3] وها هي تطالعنا مرّة أخرى قضيّة الصدق والكذب في الشّعر ، وهذه القضية تتناول المعاني من أحد وجوهها كنقد عبد الملك لأرطاة وتناول الشّعور الذي يصدر عنه الشعر كما تناولها الأخطل .

والأخطل مقدّم ومفضّل عند عبد الملك فقد « كان يجيء وعليه جبّة خزّ وحرز خزّ وفي عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب تنفض لحيته خمراً حتّى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن »[4] وهذه الدّالة والمعاملة الخاصة لم تتح للأخطل لولا تقدير عبد الملك لشعره وتفضيله إيّاه . فقد دخل الأخطل على عبد الملك ـ

---

(1) العقد : ج 6 ، ص107

(2) الاغاني : ج 14 ، ص77

(3) الاغاني : ج 16 ، ص155

(4) الاغاني : ج 7 ، ص178

وقد شرب خمراً والشّعبي حاضر ـ «فلما رآه قال يا شعبي . . . الأخطل أمهات الشّعراء جميعاً، فقال له الشّعبي : بأيّ شيء؟ قال: حين يقول:

وتــظلّ تنصـفهـا بـه مـرويّـة إبـريـقهـا بـرقـاعـة ملثـوم
فـإذا تعـاودت الأكفّ زجـاجهـا نفحت فشمّ ريـاحهـا مـزكـوم

فقـال الأخطل : سمعت بمثـل هذا يـا شعبي ؟ قال : إنْ أمنتـك قلت لـك ، قال : أنت آمن فقال : أشعر واللّه منه الذي يقول :

وأدكـن عـاتـق جـحـل ربحـل صبحت بـراحه شـربـاً كـرامـا
من الـلائي حملن على المـطايـا كـريح المسـك تستلّ الـزكامـا »[1]

فعبد الملك يفضل الشاعر في المعنى والصورة التي توحيها المناسبة .

« وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن أبي ربيعة أنت القائل :

أأتـرك لـيلى ليس بيني وبـينهـا سـوى لـيلة إنّـي إذا لـصـبـور

قال : نعم ، قال : فبئس المحبّ أنت ، تركتها وبينك وبينها غدوة ، قال :

يا أمير المؤمنين إنّهـا من غدوات سليمـان ، غدوهـا شهر ورواحهـا شهر »[2]
فالمحبّ الصادق يرحل الرّحلات الطويلة ويخاطر بروحـه ومالـه من أجل نـظرة مِمّنْ يحبّ فأيّ حبّ هذا الذي يذكره عمر بن أبي « بيعة ؟

« ولمّا بلغ عبد الملك قول جرير :

هــذا ابن عمّي في دمشق خـليفـة لـو شئـت سـاقكـم إليّ قـطينـا

قال : ما زاد ابن المـراغة على أن جعلني شـرطيّاً ، أمـا إنّه لـو قال : لـو شاء سـاقكم إليّ قطينـا ، لسقتهم إليه »[3] فقـد أنف عبد الملك أن يكـون بإمـرة جريـر فاستعمال الفعل بنظره خطأ لأنّه جعل نفسه فوق الخليفة يأمره بما شاء .

---

(1) الاغاني : ج 8 ، ص84-85

(2) الاغاني : ج 18 ، ص133

(3) الاغاني : ج 7 ، ص63

« وأَنْشِدَ عبد الملك قول الشمّاخ في عرابة بن أوس :

إذا بلّغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين .

فقال : بئست المكافأة كافأها ، حملت رحله ، وبلّغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها »[1] .

فانتقاد عبد الملك منصب على معنى الشمّاخ الذي يجعل مكافأة النّاقة نحرها .

ولمّا وفد ابو قطيفة (عمرو بن الوليد) على عبد الملك أنشده :

نبّئتُ ان ابن القلمس عابني ومن ذا من الناس الصحيح المسلم

فابصر سبل الرشد سيد قومه وقد يبصر الرشد الرئيس المعمّمُ

فمن أنتم ؟ ها خبرونا من أنتم؟ وقد جعلت أشياء تبدو وتكتمُ

فقال عبد الملك : ما كنت أرى أنّ مثلنا يقال له : مَنْ أنتم ! أما واللّه لولا ما علمت لقلت قولاً ألحقكم بأصلكم الخبيث ، ولضربتك حتّى تموت »[2] .

فالخلفاء هم رؤوس القوم ، والخليفة هو الرئيس الذي بايعه المسلمون في جميع أقطارهم ، فلا يحقّ لأحد أن يتجاهلهم ويسألهم من هم . وقال عبد الملك لأعشى بني أبي رُبيعة بعد أن أنشده :

رأيتك أمس خير بني معدّ وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غداً تزيد الضعف ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمسِ[3]

« فقال له : من أي بني ربيعة أنت ؟ قال : من بني أمامة ، قال : فإنّ أمامة ولد رجلين قيساً وحارثة ، فأحدهما نجم والآخر خمل ، قال : أنا من حارثة وهو الذي كانت بكر توّجته ، قال (الأعشى) فقام بمحضرة في يده فغمز بها في بطني ، ثمّ قال : يا أخا أبي ربيعة ، همّوا ولم يفعلوا ، فإذا حدثتني فلا تكذبني »[4] فالنّقد

---

(1) الاغاني : ج 8 ، ص107

(2) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص421

(3) الاغاني : ج 16 ، ص162

(4) الاغاني : ج 16 ، ص162

عند عبد الملك لا يتوقف على الشعر فقط وهو إذ ينقد الكذب في الشّعر ينقد الكذب في الكلام . وقدم عليه أعشى بني ربيعة مرّة أخرى فسأله عبد الملك : « ما الذي بقي منك ؟ قال : أنا الذي أقول :

وما أنا في امرىء ولا في خصومتي ... بِمُهْتَضَمٍ حقي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي عند جناية ... ولا خائف مولاي من شرّما أجني
وإنّ فؤاداً بين جنبيّ عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وفضّلني في الشّعر واللبّ أنّني ... أقول على علم وأعرف مَنْ أعني
فأصبحت إذ فضّلت مروان وابنه ... على النّاس قد فضّلت خير أب وابن

فقال عبد الملك : مَنْ يلومني على هذا ، وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشر تخوت ثياب وعشر فرائض من الإبل وأقطعه ألف جريب »[1] فإنْ كانت أعطيات الشعراء تقابل باللوم فأعطية الأعشى لا ينالها اللوم لأنّها جاءت في موضعها . فتفضيل مروان وابنه بعد هذه المقدّمة نالت من إعجاب عبد الملك وتقديره ما يفوق كلّ حدٍّ . ففي معظم الأحيان كانت مكافأة عبد الملك للشعراء نوع من النّقد ، فعندما يسمع من عدّة شعراء ويكافىء أحدهم بعشرة آلاف والآخر بأكثر منه أو أقل فإنّ هذه المكافأة إنّما تعني المفاضلة بين الشعراء وإعطاءهم على قدر ما يستحقّون . وفي ما رواه صاحب الأمالي خيرِ دليل على ذلك : « وفد رجل من بني ضبة على عبد الملك بن مروان ، فقال :

واللّه ما ندري إذا ما فاتنا ... طلب إليك مَنِ الذي نتطلّبُ
فلقد ضربْنا في البلاد فلم نجد ... أحداً سواك إلى المكارم يُنْسَبُ
فاصبرْ لعادتنا التي عوّدتنا ... أولا فأرشِدْنا إلى مَنْ نذهبُ

فقال عبد الملك : إليّ إليّ ! وأمر له بألف دينار ، ثمّ أتاه في العام المقبل فقال :

يربّ الذي يأتي من الخير إنّه ... إذا فعل المعروف زاد وتمّما
وليس كبان حين تمّ بناؤه ... تتبعه بالنقض حتّى تهدما

---

(1) العقد : ج 1 ، ص217 ، الاغاني : ج 16 ، ص160-161

فأعطاه ألفي دينار، ثمّ أتاه في العام الثالث ، فقال :

إذا استمطروا كانوا مغازيرَ في النّدى   يجودون بالمعروف عوداً على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار»[1] إنّ إعجاب عبد الملك الذي اعتمده الشّاعر قد هزّه فأمر له بالمرّة الأولى بألف دينار وجعل يزيد له في العطاء كلمّا أحسن وأجاد في القول . وبعد أنْ تتبعنا أخبار عبد الملك النّقديّة ، نخلص الى القول بأنْ نقده ، إنّما جاء منسجماً في سياق النّقد الأدبي القائم في عصره ، فحركة التدوين لم تبدأ بشكلها الواسع بعد . والنّقد كلمة تعبّر عن انفعال الإنسان تجاه ما يسمع من ضروب الشّعر ، كلمة تعتمد على الذّوق والطبع والسليقة فكما أنّ الشّاعر يصدر في شعره عن طبعه وسليقته فكذلك النّاقد يصدر بنقده عن طبعه وسليقته ، فلا تكلّف في النّقد ولا صنعة وعبد الملك كغيره من النّقاد يعتمد على ذوقه العربي الصافي فيتذوّق الشّعر ويدلي بآرائه فيه .

صحيح أنّ النّقد تشعّب واتسعت آفاقه ، ولم يعد كلمة تقال جواباً عن سؤال « من أشعر النّاس » ولكنّه لم يخرج عن حكم الذّوق ، الذّوق الصافي المنسجم ، فالشعر كلام وخير الكلام أجوده ، والشعر تصوير للحياة ، وخيره ما أحسن تصويرها .

وقد خاض عبد الملك في هذا النّقد وجال ، ووازن بين شاعر وآخر ونقد الألفاظ المعاني والعبارات والأساليب وفطن لتوقع بعض الشّعراء في دائرة المديح على ألفاظ وصور معيّنة ، وأنتقد أسلوب البعض منهم ، وفطن لمذاهب الشعراء وأساليبهم حتّى استطاع التّعرّف على عمران بن حطّان من شعره ومذهبه في القول . وخاض في مسألة الكذب والصدق في الأدب وعرفَ صدق الشّعور وفطنَ للخيال ، وعرف الجميل من الصّياغة والأوزان ، ونقدُه يمثّل الحركة النّقديّة في العصر الأموي أصدقَ تمثيل وإنْ أُخِذَتْ عليه بعض المآخذ في تقدير الشعر ونقده .

ولكن بقي النّقد لديه كما كان عند غيره جزئياً يلتفت إلى اللفظة أو المعنى في البيت أو العبارة دون أن تنظّم هذه الأحكام الجزئية في نظرة كليّة للنصّ الأدبي

---

(1) الامالي : ج 2 ، ص283-284

وتتغلغل فيه . فالنّقد عنده كما عند غيره فطري خالص ، والتعليل بعيد عن روح العلم والمقارنة والمنهجية . ولكن اختلاف الأذواق بين ناقد وآخر أنجى النّقد من الإنحراف والتكلّف . وعبد الملك وإنْ لم يصل في كثير من أحكامه إلى المستوى الذي وصله عمر بن الخطّاب في تفضيله لزهير ، ووَصَلَهُ عليّ بن أبي طالب في تقديمه لامرىء القيس ، فإنّه يبقى رائداً من رواد النّقد الأدبي عند العرب ساهم في نموّ الحركة النّقديّة والأدبيّة بماله وأفكاره .

الفصل الرابع

خطب عبد الملك بن مروان ووصاياه

الخطابة الأموية

لم تـزدهر الخـطابة في عصـر من عصور العـربيـة ، كـازدهـارهـا في العصـر الأموي ، فقد نمت الخطابة خلال هذا العصـر وارتقت ارتقاء ملحـوظاً ، وكـان لهذا النموّ والازدهار أسباب ساعدت الخطابة أنْ تبلغ ذروتها منها :

إنّ العربيَّ يُؤخَذُ بـالألفاظ الجـزلة والمعـاني البليغة ، فتؤثّـر فيه الكلمـة تأثيـر السّيف ، والسليقة اللغوية لم تفسد بعد بسبب مجاورة الأمم والإختلاط بالأعـاجم . فكان العربي يستشعر القدرة على التعبيـر عمّا يجيش بصـدره من عواطف وانفعـالات أملتها ظروف سياسية مضـطربة ، تمـوج بالأهـواء والفتن ، أو عقيدة دينيـة صافيـة ، دفعت صاحبها إلى الوعظ والإرشاد أو الحثّ على الجهاد .

فقد انقسمت الأمّة الإسلاميّة في العصر الأموي وتشعّبت وتنازعتها الأهـواء ولو وقف أحـد النّاس في ذلـك العهـد فنـظر إلى ابن الـزُّبيـر في الحجـاز والمختـار في الكوفة ، وعبد الملك في الشّام ونجـدة بن عامـر الحنفي في اليمامـة ،والأزارقة في بلاد فارس وجوار البصرة لَمّا أمكنه الظّنّ بأنّ عبـد الملك يتمكن في خلال عقـد من الزمن أنْ يعيد لهذه الأمة وحـدتها ، ولِئِنْ وُفِّقَ عبـد المك في القضـاء على كيانـات الأحزاب السياسيّة ، فإنّ التوفيق لم يحالفـه في القضاء على الأحـزاب المعارضـة ، التي كانت تتربّص الفرص للثورة على الأمويين .

فالثورات ضدّ الدّولة الأمويّة لم تهدأ طوال العصر وكان الأمويّـون يُوَفّقـون في القضاء عليها ، لكنّهم لم يحاولوا القضاء على الأسباب التي تدفع بـالنّاس للثـورة ،

حتّى تقوّضت أركان الدولة الأمويّة ، وأُبيدت في آخر هذه الثورات ، وهي الثّورة التي قادها العبّاسيون وقائدهم المشهور أبو مسلم الخراساني .

وكما أنّ الثورات لم تهدأ ، فإنّ الحروب على حدود الدّولة العربيّة لم تهدأ أيضاً ، فقد استمرّت الفتوحات الإسلاميّة في الشّرق والغرب ، وتناثر خلالها الكثير من الخطب والأشعار ، فكان القوّاد يلهبون مشاعر جندهم وسامعيهم ، ويدفعونهم للقتال تعصّباً للدين وجهاداً للمحلّين في الداخل ، وذوداً عن الإسلام ونصرته وإعلاء كلمته في الخارج [1] .

وشرّعت قصور الخلفاء أبوابها للوفود ، فكثرت الخطابة فيها ، إذ كان لا بدّ للوفد من خطيب يخطب باسمه ويعرض مطالبه ، ويطالب بحلّ بعض المشاكل التي يعاني منها النّاس ، وقد تلتقي بعض الوفود في حضرة الخليفة ، فيتنافس خطباؤها بين يديه ، ويحاول كلّ منهم التفوّق على نظرائه من الخطباء .

وكما نشطت الخطابة السياسيّة في هذا العصر ، فقد نشطت الخطابة الدينية أيضاً ، فكان الوعّاظ والقّصاص لا يفترون في جميع الأمصار الإسلامية ، يعظون النّاس ويفقّونهم في أمور دينهم ، وكان الوعّاظ والقصّاص يرافقون الجيوش الغازية ، يعظون الجنود ، ويدعونهم للجهاد والإستشهاد في سبيل اللّه .

وبالرغم من كثرة ما أثر عن هذا العصر من الخطب ، فأغلب الظنّ أنّ القسم الأعظم منها ضاع ، ويرجع ذلك الى سببين :

الأول : تحرّج بعض الرّواة عن رواية بعض الخطب التي تصدر عن خصومهم ، كالتحرّج في نقل ورواية خطب الخوارج .

والثّاني : صعوبة الرّواية : فالتدوين لم يزدهر بعد ، والخطبة كلام منثور يصعب على الذاكرة أنْ تؤدّيه بأمانة ، كما تؤدّي الشّعر . وكذلك فإنّ الخطب المرتجلة يستحيل تدوينها . وبالرغم من أنّ الكثير من خطب العصر ، قد ضاع ، إلاّ أنّ ما بقي منها يعطينا صورة واضحة عن سماتها العامّة .

---

(1) وهناك خطب كما سنذكر في سبيل الأهواء والمصالح والمكاسب .

عبد الملك بن مروان الخطيب

« قيل لعبد الملكِ بن مروان : عجّلَ عليك الشّيبُ يا أميرَ المؤمنين ، قال : شيّبني ارتقاء المنابر وتوقّع اللحن »[1] . وقال : « كيف لا يعجل عَلَيّ وأنا اعرض عقلي على النّاس في كلّ جمعة مرّة أو مرتين »[2] وسأل عبد الملك خالد بن سلمة القرشي المخزومي « منْ أخطب النّاس ؟ قال : أنا ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : شيخ جِذام ، يعني روح بن زنباع ، قال : ثم من ؟ قال : أُخَيْفَشُ ثقيف ، يعني الحجّاج ، قال : ثمّ مَنْ قال : أمير المؤمنين »[3] .

فعبد الملك الذي شيّبته المنابر ، حتّى كان يخطب في الأسبوع أكثر من مرّة أحياناً ، والذي يعدّ في الطبقة الأولى من خطباء عصره ، لم تحفظ الأجيال التالية لنا من خطبه إلّا النزر اليسير ، فهذا الخليفة قد ناضل الشّيعة وابن الزّبير والخوارج ، ومنافسيه على الزّعامة الأمويّة ، واستمرّ في معترك السياسيّة الإسلامية أكثر من عقدين من الزمن ، فلو افترضنا له في كلّ عام خطبة أو خطبتين ، لكان عدد خطبه ما بين العشرين والأربعين، ومع هذا فإنّا لا نجد فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر إلا القليل من الخطب المجزوؤة أو الموجزة ، مِمّا دفعنا إلى الجزم بأنّ ثروة أدبية ضخمة قد ضاعت .

وقد نظرنا في كتاب جمهدة العرب، فلم نجد لخالد بن عبد اللّه القسري سوى ست خطب ، ولم نجد لروح بن زنباع سوى ثلاث[4] لم نزعم أنّ هذا الكتاب قد جمع كلّ ما أثر عن هذا العصر من الخطب ، وإنّما قد جمع معظمها ، وإذا لم يؤثر لخطيب أكثر من عدّة خطب أملتها مناسبات معينة ، فكيف يعدّ في الطبقة الأولى من الخطباء ؟

وإذا ضاع قسم من خطب عبد الملك ، كما ضاعت خطب كثيرة لغيره من الخطباء ، فإنّ ما احتفظت به أمّهات الكتب الأدبيّة من خطبه ومشافهته لجلسائه ،

---

(1) العقد : ج 2 ، ص275-318

(2) عيون الاخبار : ج 5 ، ص258

(3) العقد : ج 4 ، ص122-123

(4) جمهرة خطب العرب الجزء الثاني في مواضع متفرقة .

يلقي الأضواء على مناحي عبد الملك وأغراضه في الخطابة ، وإذا اعتبرنا أنّ الزّمن ناقد كبير يحفظ الجيّد من القول ، ويأتي على ما دونه ، حملنا هذا الاعتبار على الظنّ ،بأن ما وصل إلينا من خطب عبد الملك يمثّل خطابته في أحسن وأجود صورها .

وسنعرض لخطبه أوّلاً ثمّ لأحاديثه التي يمكن أن تُدْرَج تحت هذا الإسم ، وإنْ لم تُلْقَ أمام جماهير غفيرة أو من على منابر المساجد . ونحاول التعرّف من خلالها على خصائصه الخطابيّة وعلى موضوعات تلك الخطب .

1 ـ لما جاء عبد الملك بن مروان نبأ انتصار ابن زياد على التوّابين ، صعد المنبر ، « فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثمّ قال :

أمّا بعد : فإنّ اللّه قد أهلك مِنْ رؤوس أهل العراق ملقح[1] فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألاَ وإنّ السّيوف تركت رأس المسيّب بن نجبة خذاريف[2] ، ألا وقد قتل من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالّين مضلّين : عبد اللّه بن سعد أخا الأزد ، وعبد اللّه بن والٍ أخا بكر بن وائل ، فلم يَبْقَ بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع »[3] .

تلقّى عبد الملك نبأً سرّه ، فأراد أنْ يزفّه للنّاس ، فصعد المنبر فخطب هذه الخطبة الموجزة معلناً فيها انتصار ابن زياد على التوّابين من اصحاب سليمان بن صرد ، وعدّد رؤساءهم ، الذين سقطوا في المعركة .

وبدأ تلك الخطبة مؤكداً أنّ اللّه قد أهلك سليمان بن صرد ، لم يعلن للنّاس أنّ ابن زياد قد انتصر ، وقتل رؤوس التوّابين ، إنّما أعلن أنّ اللّه فعل ذلك ، ليوهم من يسمع له بأنّ ما حصل : إرادة اللّه وقضاؤه ، وإذا كان اللّه قد أهلك مَنْ أهلك ، فلأنّه ملقح فتنة ، ورأس ضلالة ، ثم انتقل الى ذكر المسيّب بن نجبة ، فوصف

---

(1) من ألقح النخلة ،الفحل الناقة ، والريح الشجر .

(2) خذاريف مفردها خذروف ، وكعصفور شيء يدّوره الصبي بخيط في يديه ، فيسمع له دوي (النحلة)

(3) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص65 نقلا عن الطبري : ج 7 ، ص47-83 ، ومروج الذهب : ج 2 ، ص110

قتله ، وقد تفتت رأسه ، وتشظّى لكثرة ما تناوشته السّيوف . حتّى صار خذاريف تلعب بها الصبيان ، وعطف على ذكر عبد اللّه سعد الأزدي وعبد الله بن وال البكري ، وذكر قتلهما ووصفهما برأسي ضلالة ، وخلص إلى القول بأنّ طريق العراق قد أصبحت سالكة ، فرؤوس المعارضة قد أهلكت فلا تقوم بعدهم لأصحابهم قائمة .

إنّ عبد الملك بن مروان ، كان يعرف أنّ هؤلاء القوم ، لم يحركهم باتجاه الشّام شيء إلّا عقيدتهم الدينية تكفيراً عن خذلانهم ابن بنت رسول اللّه (صلعم) فتابوا وباعوا أنفسهم للّه ، وبذلوا أموالهم في سبيل الثّأر لسبط الرّسول (صلعم) مِمّنْ قتله ، وجحده حقه ، ولكن ، هل يعترف عبد الملك بتلك الحقيقة ؟ وإنْ اعترف بها أمام اهل الشّام ، هل يبقى التفاهم عليه متيناً ، لهذا كان حريصاً على وصف هؤلاء القوم بالكفر والمروق من الدين ، مصوراً حربه لهم ، وكأنّها دفاع عن الإسلام والمسلمين .

وهذه الظّاهرة تطالعنا بكلّ الخطب السياسية لهذا العصر ، فكلّ حزب كان يظنّ نفسه على الصراط المستقيم ، وأنّ خصومه في ضلال مبين ، وكان خطباء كلّ حزب منهم حريصين على وصف أنفسهم وجماعتهم بأنّهم متمسّكون بحبل اللّه ، يدافعون عن دين اللّه ، وأنّ خصومهم في ضلالة يعمهون ، وما جهادهم لهم إلا في سبيل الدّين ، لا في سبيل المطامع والأهواء والمصالح ! .

وقد ظنّ عبد الملك في نشوة نصره ، أنّ طريق العراق آمنة أمامه ، وعمّا قريب ستخفق راياته في ربوع العراق ، متناسياً المختار بن أبي عبيد وقائده إبراهيم بن الأشتر ومصعب ابن الزّبير .

وأغلب الظنّ بأنّ عبد الملك كان يعرف المصاعب التي تنتظره ، ولكنّه استغل انتصاره ، فرفع أو حاول أن يرفع معنويات جنده من أهل الشّام ، فيتشجّعوا للمضيّ قدماً بمحاربة أهل العراق .

وقد أوجز خطبته ما أمكن، فعبر بألفاظ قليلة عن معانٍ كثيرة ، وقصد إلى غايته قصداً وامتنع عن الأخذ بالأبّهة الخارجية والفسيفساء اللفظية ، ولم يقصد إلى إظهار حذقه ومهارته في الكلام ، وإنّما قصد إلى إدراك معانيه إدراكاً تاماً بجمل

معدودة ، فخطبته خطبة جديّة ، تسعى إلى غاية محدّدة ، وهي إعلام القوم بالنّصر ، فترك ترصيع الكلام وزخرفته وتنميقه ، وغلب الإقتصاد على ألفاظه ، فلا بديع ولا تكرار ولا ترادف ، إلاّ فيما ندر ، واللفظ يجري وفقاً لضرورة المعنى ، فكلّ لفظة في هذه الخطبة غاية تسعى إليها . ولئن خلا أسلوبه في هذه الخطبة من الإيقاع الظاهر في توازن العبارات وقوافيها ، فإنّه لا يخلو من النّغم الداخلي المتولد من تآلف الحروف في اللفظة الواحدة ، وانسجام تلك اللفظة في الجملة التي تدخل في نسيجها . فالنّغم داخلي نحسّ ونشعر به دون أنْ نسمعه بوضوح ، وهذه الخطبة على ايجازها واقتصاد ألفاظها ، لم تخلُ من استعارة مستملحة ، وتشبيه مستطرف ، فقد جعل بن صرد بعيراً فحلاً والفتنة ناقة ملقحة ، وجعل للضّلالة رأساً ، ومن سليمان بن صرد ذلك الرأس الذي يحركها . وشبّه أشلاء رأس ابن نجبة بالخذاريف التي تلعب بها الصبيان ،وحذف أداة التشبيه ووجه الشّبه ، فكأنّ عظام جمجمة بن نجبة والخذاريف شيء واحد .

2 ـ خطبته بعد مقتل عمرو بن سعيد الأشدق :

قال بعد أنّ حمد اللّه وأثنى عليه : أيّها النّاس : إنّي واللّه ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يريد يزيد)[1] ألا وإنّ مَنْ كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ، ألا وإنّي لا أداهن هذه الأمّة إلا بالسيف ، حتى تستقيم لي قناتكم ، تكلفوننا أعمال المهاجرين الأوّلين ولا تعملون من أعمالهم ، فلم تزدادوا (بعد الموعظة)[2] إلاّ اجتراحاً ، ولن نزداد (بعد الإعذار إليكم والحجّة عليكم)[3] إلاّ عقوبة ، وهذا حكم السيف بيننا وبينكم ، وهذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته ، وموضعه موضعه ، قال برأسه هكذا ، فقلنا بالسيف هكذا .

ألاّ وإنّا نحتمل كلّ شيء إلاّ وثوباً على منبر ، أو نصب راية ، ألا وإنّ الجامعة

---

(1) وردت هذه العبارات في العقد في اكثر من موضع

(2) هذه الزيادة اخذت من خطبة له أثبتها صاحب الأمالي : ج 1 ، ص11-12 وبين الخطبتين اشتراك في بعض اللفظ .

(3) الزّيادة مأخوذة من المصدر السابق .

التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي ، واللّه لا يفعل أحد فعله إلّا جعلتها في عنقه ، ثم لا تخرج نفسه إلّا صعداً ، (وزادوا فيها) واللّه لا يأمرني أحد بتقوى اللّه بعد مقامي هذا إلّا ضربت عنقه » ثم نزل ، فركب ناقة وأخذ بزمامها وقال :

« فصحت ولا شُلّت وضـرّت عـدوّهـا   يمين أراقت مهجـة ابـن سعيـد »[1]

لقد رأينا في مستهلّ هذا الكتاب ، في معرض الحديث عن الصّراع على الزّعامة الأمويّة كيف أمّن عبد الملك عمراً الأشدق ثم أحتال عليه ، فأدخله قصره ، وغدر به فقتله واجتمعت النّاس في المسجد لتسمع ما سيقوله عبد الملك بعد هذه الحادثة ، فكانت هذه الخطبة التي استهلّها بعرض لصفات الخلفاء الأمويين قبله ، فوصف كلّ واحد منهم بأخصّ صفاته ، ونفى عنه جميع هذه الصّفات ، ممّا دفع أبا إسحاق النظّام لأنْ يقول : « أما واللّه لولا نسبك من هذا المستضعف ، وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيّوق ، واللّه ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصيّة[2] » .

فانتقده لذمّه منْ به وبصنائعه وصلت الخلافة إليه .

ثمّ ذكر أسلوب هؤلاء الخلفاء باسترضاء النّاس وتأليفهم لهم بالأموال ، وجعل لنفسه أسلوباً آخر هو السّيف ، فلا حوار ولا مناقشة ولا ترغيب ، ولكنّ القوّة التي يخضع لها الجميع . ثمّ يلتفت الى المطلب الجماهيري العامّ ، وهو أنْ يسير الخلفاء بسيرة أبي بكر وعمر (رضي اللّه عنهما) فيقول : « تكلّفوننا أعمال المهاجرين الأوّلين ولا تعْملون من أعمالهم».

فسيرة الخليفة الفاضلة تتطلّب سيرة مماثلة من الرّعية، أو بمعنى آخر فإنْ كان للرّعية حقوق فعليها أيضاً واجبات، فهل أدّت واجباتها على أكمل وجه، لتتطالب بحقوقها؟ ويخشى أنْ يُساءَ فهم هذه الإلتفاتة، فيظنّ البعض فيها لينا، فيقول: «فلم تزداداوا بعد الموعظة إلاّ اجتراحاً، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجّة

(1) فوات الوفيات : ج 2 ، ص33 وانظر البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها وفيه تقديم وتأخير لبعض الكلام .

(2) العقد : ج 4 ، ص154 ،فوات الوفيات : ج 2 ، ص33

عليكم إلّا عقوبة » ويقول : « وهذا حكم السيف بيننا وبينكم » فلا خيار إلّا الخضوع فمن لم يخضع فالسّيف كفيل بتخضيعه ويضرب لهم البرهان والدليل على صدق قوله وعزيمته بتنفيذ ما يقول ، « هذا عمرو بن سعيد قاربته قرابته ، موضعه موضعه قال برأسه هكذا ، فقلنا بالسيف هكذا « فعمرو رغم قرابته من عبد الملك ، ورغم صلة الرّحم التي تربطهما ورغم المكانة السياسيّة التي يتبوأها ، لم ينل عفو عبد الملك ولا غفرانه ، فما زال يحاوله حتّى أصاب غرّة منه فقتله . وقد حاول بعد أن أعطى دليلاً حيّاً على سلوكه تجاه معانديه ومخالفيه ، أن يغرس في قلوب سامعيه ما أمكن من الرّعب فلوّح لهم بالجامعة التي أوثق عمراً بها ، فقال : « ألا وإنّ الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي ، والله لا يفعل أحد فعله ، إلّا جعلتها في عنقه ، ثمّ لا تخرج نفسه إلّا صعداً « وقد حدّد الذّنب الذي لا غفران له فإذا هو الوثوب على المنبر أو نصب راية أمّا ما سوى ذلك فيمكنه أن يتجاوز عنه . فقد رسم نهجاً متكاملاً فيه من القسوة والجبروت الشيء الكثير ، وأنهى خطبته بصرخة مدوّية أرادها أنْ تبقى طويلاً في آذان النّاس ، فقال : « والله ، لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلّا ضربت عنقه » فخالف بذلك ما عهدته العرب من الوقوف بحضرة الخلفاء والقول بما في نفوسهم دون رهبة ، وقد نوّه الجاحظ بكلام عبد الملك هذا، فقال : « وكان عبد الملك بن مروان أوّل خليفة من بني أميّة ، منع النّاس من الكلام عند الخلفاء ، وتقدّم فيه وتوعّد عليه ، فقال : إنّ جامعة عمرو بن سعيد عند ، وإنّي والله لا يقول أحد هكذا ، إلّا قلت بها هكذا »[1]

لقد أراد عبد الملك أن يكون عمرو بن سعيد آخرّ من تطاول برأسه إلى الخلافة فاعتمد هذا الأسلوب المتشدّد والقاسي،ولعل هذه الخطبة كانت بعد غدره بابن سعيد مباشرة ، فإنّ انفعاله بما كان لم يهدأ بعد وصورة الدّماء التي نزفت في تلك الفتنة تعكس ظلالها على الألفاظ . وهي خطبة موجّهة بالدّرجة الأولى إلى بني أميّة من غير المروانيين ، إذ من غير المعقول أن يغيب عن تفكير عبد الملك في تلك اللحظة تطلّع بني سفيان إلى منصب الخلافة واعتقادهم بأنّ عبد الملك قد اغتصب حقّهم ، فبصّرهم بعاقبة أمرهم ، ونصّب نفسه حاكماً مطلقاً على رقابهم .

---

(1)البيان والتبيين : ج 2 ، ص244

وقد توسّل إلى ذلك بأسلوب مباشر خال منالزّخرف وبهرج القول إلّا ما جاء عفوا ، واعتمد على الإيحاء لبثّ الرّعب والخوف مفي نفوس سامعيه ، كتذكيره النّاس بصنيعه بابن عمّه عمرو بن سعيد وتهديده بالجامعة التي وضعها في عنقه ، فجاءت خطبته موجزة غاية الإيجاز بليغة غاية البلاغة ، فانضوت أميّة تحت سلطانه ورضيت بزعامته وزعامة أبنائه من بعده . وقد استعمل بعض الكنايات لما تؤدّيه من الإيجاز ، وما تبثّه من الإيحاء كقوله : « كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال » فصوّر بهذه العبارة سياسة أسلافه من الخلفاء في مصانعة النّاس وتقريبهم إليهم . وكنّى بلفظة قرابته عند شرح رابطة النسب والقرابة التي تربطته بعمرو بن سعيد ، وعن منزلة عمرو ومكانته الإجتماعية قال « وموضعه موضعه » وكنّى بلفظة « هكذا » عن تمرّد عمرو بن سعيد ثم كنّى بنفس اللفظة عن صنيعه به ، وفي قوله « ألا وإنّا نحتمل كلّ شيء إلّا وثوباً على منبر ، أو نصب راية » كناية عن العمل الذي لا يجد غفراناً عنده ، فالدعوة للعصيان ، أو مباشرة الخروج على السلطان ذنب عظيم يستحقّ العقاب القاسي ، العقاب الذي استحقّه عمرو بن سعيد .

وتدّرج بانفعاله حتّى وصل الذروة عندما أقسم بالله إنْ قال أحد اتقِ الله ضرب عنقه . فقد ابتدأ خطبته هادئاً أو شبه هادىء نظر إلى سابقيه من الخلفاء ونظر إلى نفسه ، وأعلن سيرته في الحكم وغضبته على مَنْ تسوّل له نفسه الثّورة عليه أو الطّمع فيه وختمها بالقسم العظيم على الفتك حتّى بِمَنْ يأمر بالمعروف . إذا كان هو المقصود من الأمر وإذا كانت الخطابة لا تعتمد على الكلام وحده ، وإنّما ما يرافق هذا الكلام من إشارات وحركات تساعد الخطيب على الأخذ بألباب سامعيه ، فقد عرف عبد الملك ذلك ، فقام بحركة تمثيلية رائعة عندما ترك الناس في حيرة مِمّا يسمعون ، وركب ناقته فأخذ بزمامها ، وتمثّل :

« فصحت ولا شُلّت وضرّت عدوّها　　　يمين أراقت مهجة ابن سعيد »

فلم ينتظر أحداً ، ولم يحفل بما سيقوله النّاس ، وأظهر حزماً فريداً وصلابة نادرة ، لا ندم على ما صنع ، وتصميم على سفك دماء من خالفه ، فهمَ هذا كلّ مَنْ سمعه يتمثّل بالبيت المذكور .

3 ـ وذكر القلقشندي خطبة له ، وروى أنّه خطبها حين قتل عمراً الأشدق ،

والظاهر أنّه خطبها بعد أنْ هدأت ثائرته ، فهي وإنْ رمت إلى الغاية نفسها التي رمت إليها الخطبة السابقة ، فهي أهدأ منها ، وفيها من الترغيب بالطّاعة والحثّ إليها ما فيها من التهديد بالقوّة والترهيب والوعيد بها ، فقال بعد أنْ حمد اللّه :

« ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لِمَنْ غبر منكم عظمة ، ولا تكونوا أغفالاً من حسن الإعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات ، وتطأرقابكم بثقلها العقوبة ، فتجعلكم همداً[1] رفاتاً ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً ، فإيّاي من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فإنّما بيني وبينكم أن أسمع النغوة[2] ، فأصمّم تصميم الحسام المطرور[3] ، وأصول صيال الحنق الموتور[4] ، وإنّما هي المصافحة والمكافحة ، بظبّات السيوف وأسنّة الرّماح ، والمعاودة لكم بسوء الصّباح ، فتاب تائب ، وهدل خائب ، والتوب مقبول ، والاحسان مبذول ، لمن عرف رشده ، وابصر حظه ، فانظروا لانفسكم ، واقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطّاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم واستديموا النّعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنّكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدّعة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم اللّه من الشيطان وفتنته ونزغه[5] ، وأمدّكم بحسن معونته وحفظه ، انهضوا رحمكم اللّه الى قبض أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدّرة عليكم[6] »

فمناسبة الخطبة كما هو بَيّن في نهايتها حضور النّاس لأخذ أعطياتهم ، وقد سبق ورجحنا أنّها بعد الخطبة السّابقة التي وقف فيها عبد الملك موقف المتهدّد المتوعّد ، والمستعدّ للوثوب بكلّ من تسوّل له نفسه شرّاً . , فقد ابتدأ خطبته بمخاطبة عقول النّاس ودعوتهم للتفكّر بمن سلفهم من أهل المعصية ، فيتّعظوا ويعتبروا بمَنْ سلف ، فَمَنْ لم يتّعظ ، فمصيره سيء مظلم وينتقل لتصوير هذا

---

(1) البالي من كل شيء .

(2) النغوة والنغية : اول الخبر قبل ان نستثبته .

(3) المشحود ، من السطر وهو تحديد السكين وغيرها .

(4) الموتور : صاحب الثأر .

(5) افساده واغراؤه

(6) صبح الاعشى في صناعة الانشا : ج 1 ، ص218

المصير ، فيجعل منه صورة رهيبة يخشاها العاقل ويبتعد عن الطريق المؤدّية إليها ، فيقول : « ولا تكونوا أغفالاً من حسن الإعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات ، وتطأرقابكم بثقلها العقوبة ، فتجعلكم همداً رفاتاً ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً » لقد صوّر قدرته على العصف بهم فجعل سطواته قادرة على استئصالهم ، ونقماته تجوس خلالهم وتنزل التنكيل بهم ، وعقابه الثقيل يطأ رقابهم فيحوّلهم إلى رفات بالية في جوف الأرض . ولتوسّله بهذه الصّور لمن عصِيَ منهم أبلغ الأثر في نفوسهم فلو قال إنّ مَنْ لم يعتبر بما مضى سيعرض نفسه للموت ، لما استطاع أنْ يؤثّر في نفوسهم كما أثّر فيها بتلك الصوّر التي ترسم خطوط الفاجعة التي ستحل بهم إنْ أعلنوا العصيان أو ساروا في طريقه .

ثم يعلن قانوناً للطوارىء إنْ صحّ التعبير فالشبهةو كافية لإنزال أشدّ العقاب ، والتشمير للحرب والمكافحة بالرّماح والسيوف .

وينتقل بعد أنْ ملأ نفوس سامعيه رهبة وتهديداً إلى ترغيبهم في طاعته ، فمن تاب ، فتوبه مقبول ، والإحسان إليه مبذول ، وطريقه واضح ، وهو الطاعة ومغالبة أهل المعصية ، فيستديموا نعمة قد ابتدأتهم برغيد عيشها ، ويتجنّبوا نقمة تتربّص للوثوب بكلّ مَنْ يحاول إعلان العصيان ، وهو لا يكتفي بأن يعدهم الدنيا وإنّما يعدهم الآخرة أيضاً ، فيقول : « فإنّكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدّعة ، وآجل الجزاء والمثوبة » ويختم خطبته بالدّعاء لهم بالعصمة من الشيطان ودعوتهم لقبض أعطياتهم .

ومن البديهي القول بأنّ الأسلوب في هذه الخطبة مغاير للأسلوب المتّبع في الخطب السابقة . فالتأنق بالكلام وموازنة الجمل والأفكار سمة عامة من سمات خطبته هذه ، ابتدأها بالموعظة بِمَنْ سبق من أهل المعصية ، ورسم صورتين متباينتين : صورة أهل المعاندة والثّورة وما ينتظرهم من سوء المصير وصورة أهل الطاعة وما ينتظرهم من المكافآت في الدنيا والآخرة وجعل العطاء بمثابة الإغراء لهم على السّير في طريق الطّاعة.

فالخطبة إذا ، لم تكن تهديداً خالصاً ، ولم تكن ترغيباً خالصاً ، إنّما هي مزيج من التّرغيب والتّرهيب . ولتقرير المصير المظلم الذي أعدّه لمعارضيه اعتمد

التكرار والتنويـع بتشكيل الصـور ،فإذا سـطوته بـلاء ينزل عليهم فيستـأصل شـأفتهم ونقمته تتجوّل بينهم وتوزّع عليهم ألوان العذاب ، وعقوبته تطأ رقـابهم فتحوّلهم إلى رميم . وكمـا حاول إرهـابهم وردعهم عن المجاهـرة بالمعصيـة له بمـا استـطاع من حشد الصّور المرعبة ، حاول إغراءهم وترغيبهم بالهدوء والسّكينة ، فقال : « التوب مقبول ، والإحسـان مبذول ، لِمَنْ عـرف رشده ، وأبصـر حظه ، فـانظروا لأنفسكم واقبلوا على حـظوظكم . . . واستديمـوا النعمة التي ابتـدأتكم برغيـد عيشها ونفيس زينتها » .

ويحشد ما استطاع من المحسّنات اللفظيّة والمعنوية ليثبت في أذهـانهم صورة المسيء ومصيـره القاتم ، وصـورة المحسن ومصيره الـوادع . فجعل سـطوتـه بـلاء كالوباء ينزل عليهم من السماء فيعمل بهم إهـلاكاً ، ويبيـدهم إبادةً ، ولتـأكيد معنـاه السّابق يجعل النّقمة مخلوقاً له أرجل يجوس خلال القوم فيوقع بهم ولا سبيل لردّه أو معـاندتـه فيما أراد لهم ، وكـذلك جعـل العقوبـة حتّى وَطّأهـا رقابهم ، وانتقـل من المعنى إلى نتيجته ، فلجائحه السّطوات إنْ نزلت بهم ، وبوادر النّقمـات إنْ جاست خـلالهم ، والعقوبـة إنْ وطئت رقابهم ، نتيجـة مـرّة عليهم ، أقلّهـا المـوت والفنـاء والتحـوّل من ظاهـر الأرض إلى باطنهـا . وهو لا يكتفي بـالاستعارات التي تشخّص المعنى وتجسّمه ، فيوازن بين العبارات ويسجّعها ويـرصّع كـلامه بـالبديـع والطّبـاق فمن سجعه : « فتنزل بكم جـائحة السـطوات ، وتجوس خـلالكم بوادر النقمـات » « فتجعلكم همـداً رفاتـاً ، وتشتمل عليكم بـطون الأرض أمواتـاً » « فإيّـاي من قـول قائل ، ورشقة جاهل » « فأصمم . . . » الخ . وحاول المزاوجة بين ألفاظه مـا أمكن كقوله : « عصمكم اللّه من الشيطان وفتنته ونزغه ، وأمدّكم بحسن معونته وحفظه » .

وعمـد إلى الطبـاق فزيّن بـه خطبتـه مثل : « واجعلوا سلفكم لِمَنْ عنبر منكم عـظة » فقـد طـابق بين من مضى ومَنْ بَقِيَ وطـابق بين التّـائب والخـائب وبين أهـل الطاعة وأهل الجهل وكمـا طابق بين الألفـاظ والمعاني الجـزئية فقـد طابق بين أهـل المعـارضة والمعصيـة ، وبين أهل الـطاعـة ورسم طـريقين متنـاقضين وخيّـر النّـاس بالمضي على الصراط الذي يرغبون ومن خلال العـلاقة بين هـذه المتناقضـات التي تلتقي في الغاية وتصبّ في البحر الذي يريد جعل لهم منهجاً ، يسيـرون عليه آمنين

على أنفسهم وأموالهم ، وآخر مليئاً بالرّعب والأشباح المخيفة وهو إنْ سار في خطبتيه السابقتين ، فقد رقص في هذه الخطبة رقص بنظام وفن وتبصّر وبلغ الغاية التي يريد .

4 ـ خطبة عبد الملك بن مروان في الكوفة :

هاجم عبد الملك العراق وتصدّى له مصعب بن الزّبير فقتل في المعركة، ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة ، فصعد المنبر ، فحمد اللّه ، وأثنى عليه ثم قال : « أيّها النّاس ، إنّ الحرب صعبة مرّة ، وإنّ السلم أمن ومسرّة ، وقد زبنتنا[1] الحرب وزبنّاها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمّنا .

أيّها النّاس ، فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنّبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلّفونا أعمال المهاجرين الأوّلين ، وأنتم لا تعلمون أعمالهم ، ولا أظنّكم تزدادون بعد الموعظة إلّا شراً ، ولن تزداد بعد الإعذار إليكم ، والحجّة عليكم إلّا عقوبة ، فمن شاء منكم أنْ يعود لمثلها فليعد ، فإنّما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

مَنْ يصلَ ناري بلا ذنب ولا ترة ... يَصْلَ بنار كريم غير غدّارِ[2]
أنا النّذير لكم مني مجاهرة ... كي لا أُلام على نهيٍ وإنذارِ
فإنْ عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... أنْ سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعن أحاديثاً ملعّنة ... لهو المقيم ولهو المدلج الساري[3]
من كان في نفسه حوباء يطلبها ... عندي فإنّي له رهن باصحار[4]
أقيم عوجته إنْ كان ذا عوج ... كما يقوّم قدح النبعة الباري[5]

---

(1) أي دفعتنا ودفعناها ، والزّبن : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبينة أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنّهم يدفعون أهل النّار على النّار ومنه ايضاً حرب زبون بفتح الزاي .

(2) الترة : الثأر ،

(3) أدلج : سار من أوّل الليل والساري الذي يسير بالليل .

(4) الحوجاء: الحاجة والاصحار : من أصحر القوم : برزوا الى الصحراء ، وهو عدم الإمتناع أو التحصن في الأماكن المنيعة.

(5) القدح : السهم قبل أنْ يراشى وينصل جمعه قداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهام .

وصاحب الوتر ليس الدهر يدركه   عندي وإنّي لدرّاكٌ بأوتار»[1]

لقد كاتب عبد الملك أشراف العراق ووجوه النّاس ، فدعوه إليهم وتفرّقوا عن مصعب بن الزّبير في المعركة ، فقتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة ، فدخوله إليها لم يكن قهراً وعنوةً ، لهذا جاءت خطبته هادئة لينة إذا قيست بخطبه في بعض المناسبات الأخرى ، كخطبته بعد انتصار ابن زياد على التوّابين أو خطبه حين صرع عمراً الأشدق ، كان عبد الملك يعلم بأنّ دخوله العراق لم يكن بسيوف أهل الشّام بقدر ما كان برضى أهل العراق ومباركتهم ، ورغم هذا هل يخطب ودّهم ويلين لهم ؟ هل يعنّفهم ويقرّعهم ويقسو عليهم ؟

إنّ عبد الملك خبر أهل العراق وعرف تقلّبهم وتبدّلهم بتبدّل المصالح والأهواء . وهو بلا شكّ ، يتذكّر تاريخهم مع علي بن أبي طالب وولديه (عليهم السّلام) وشأنهم مع معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ، وسيرتهم مع المختار الثقفي ، وأمّا أمثولتهم مع مصعب بن الزّبير ، فلا تزال ماثلة للعيان ، فهل يطمئن عبد الملك لهم ؟ أم هل يغمض عينيه بينهم ، ويكون بمأمن من شرورهم ؟

إنّ خطبته في الكوفة تمثّل فهمه الصحيح لواقعهم القديم والمستحدث ، وهو إنْ رَضِيَ بما فعلوه بابن الزّبير ، حذر منهم ، لذا نراه يوازن في مستهل خطبته بين الحرب والسلم ، بين ما تسببه الأولى من الآلام والدّمار والفواجع الإنسانية ، التي تملأ النفس بالحزن والمرارة ، وبين ما ينتج عن السلم من الدعة والرخاء والاطمئنان على النفس والولد والمال . وحتّى لا يظنّ به جهل بالحرب أو كلال منها ، تحدّث عن الحرب وعلاقته بها ، فصور تلك العلاقة كعلاقة الأبناء بأمّهم ، وهل علاقة حميمة أكثر من علاقة الأمّ بأطفالها ؟ فهو إنْ نفّرهم من الحرب لا خشية منها على نفسه ، ولكن خشية منها عليهم ! والطريق إلى ذلك سهلة ميسورة ، الإستقامة على سبل الهدى والإبتعاد عن الإهواء وتجنّب فراق جماعات المسلمين ، أو بعبارة أخرى الخلود إلى السكينة ، والقبول بالحكم الأموي ، وعدم مناهضته أو مناصبته العداء . ويكرّر قولاً ذكره في خطبته بعد أن قتل عمراً الأشدق فيقول : « ولا تكلّفونا أعمال المهاجرين الأوّلين وأنتم لا تعملون أعمالهم » إنّ في هذا القول لفتة وفطنة ذكيّة

(1) الأمالي : ج 1 ، ص11-12

تتعلق بحقوق الإنسان على الدّولة وواجباته نحوها . إذ لا يحقّ للفرد أن يطالب الدّولة بأنْ تشمله بالمنافع والخدمات العامّة ، إذا تمنّع عن إداء واجبه نحو الدولة . وقد اتخذ هذه الإشارة معبراً للتهديد ، لقد وعظهم وحذّرهم مغبّة أعمالهم ، فمن شاء الثورة فليعد لها ، فسيرى عاقبة عمله .

ثم تمثّل بأبيات قيس بن رفاعة التي توافق ما يدور بخلده من معانٍ . فهو كريم والغدر ليس من شيمه ، وقد أنذرهم عاقبة العصيان ، وأعذر مَنْ أنذر ، فإن عصوا مقالته وخالفوه ، فالخزي والعار حليفهم ، يحوّلهم إلى مضغة في أفواه النّاس ، وحديث مسلّ يتسامر به من يسير في الليالي ، فمن له حاجة عنده فليطلبها ، فهو بينهم غير متحصّن منهم ، كفيل بتقويم اعوجاجهم كما تقوّم القداح ، فهو مدرك لثأره منهم وهم عاجزون عن إدراك ثاراتهم عنده .

والملاحظ هنا أنّه شأنه في معظم خطبه يجعل بني أميّة سبيل الهدى وحبل جماعة المسلمين ومن رأى ذلك فمتبّع للأهواء ، خارج عن الجماعة وهو إذ ينفي عن نفسه صفة الغدر يلصقها بها ، فقد اتفقت الكلمة بإجماع المؤرخين بأنّه أوّل مَنْ غدر بالإسلام بعد أنْ أعطى ألعهود الموثّقة[1] .

أمّا من حيث الأسلوب ، فإنّه اعتمد الإيجاز طريقاً يكتفي بالإشارة الدّالّة ذات القدرة على الإيحاء ، وترك الأطناب والتّفصيل في القول : فعرض للحرب والسلم ، وقارن بينهما ، وانتقل بسرعة للحديث بإيجاز عن علاقته بالحرب وعرض لسيرة الرّعيّة المخالفة لسيرة السّلف الصالح ، وأسهب بعض الشيء في تهديد من تسوّل له نفسه العصيان على سلطانه وأراه تعمّد الإسهاب في تهديده ليرهب معانديه ، فيرضخوا لمشيئته .

واعتمد الجمل القصيرة الرشيقة المكثّفة المعاني وسجّع في بداية الخطبة ليخلب أسماع النّاس ، ويستولي على أفئدتهم ، وأكثر من أفعال الأمر لتأكيد سلطانه عليهم ، وشاكل بين الألفاظ ومعانيها ، واختار من الألفاظ ما تآلفت حروفها ، وانسجمت مع ما حولها ، فانساب منها إيقاع داخلي يغمر النّفس شعوراً بهيبة

---

(1) راجع فصل الصراع على الزعامة الاموية في مستهل هذه الرسالة .

المقام ، ورهبةً من التّمادي والتّطاول بالعصيان .

5 ـ خطبته في المدينة :

« حجّ عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للنّاس بالعطاء ، فأخرجت بدور[1] مكتوب عليها (من الصّدقة) فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنّما كان عطاؤنا من الفيْء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مثلنا ومثلكم أنّ أخوين في الجاهليّة خرجا مسافرين ، فنزلا في ظلّ شجرة تحت صفاة :[2] ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حيّة تحمل ديناراً ، فألقته إليهما ، فقالا : إنّ هذا لِمَن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيّام ، كلّ يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى نتظر هذه الحيّة ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ما تدري لعلّك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأساً معه ، ورصد الحيّة حتى خرجت ، فضربها ضربة ، جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحيّة فقتلته ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه فدفنه وأقام حتّى إذا كان من الغد ، خرجت الحيّة معصوباً رأسها ، ليس معها شيء ، فقال لها : يا هذه ، إنّي واللّه ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخي عن ذلك ، فهل لك أن نجعل اللّه بيننا أنْ لا تضرّيني ولا أضرّك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحيّة : لا ، قال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : إنّي لأعلم أنّ نفسك لا تطيب لي أبداً ، وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً ، وأنا أذكر هذه الشجّة ، (وأنشدهم شعر النّابغة) :

فقالت أرى قبراً تراه مقابلي ... وضربة فأس فوق رأسي فاغره[3]

فيا معشر قريش ، وليكم عمر بن الخطّاب ، فكان فظاً غليظاً عليكم ، فسمعتم له وأطعتم ثمّ وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعدوتم عليه مقتلتموه، وبعثنا

---

(1) البدرة : كيس فيه ألف او عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

(2) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

(3) لقد أورد العشماوي البيت على الشكل التالي :

أبن لي قبر لا يزال مقابلي ... وضربة فأس فوق رأسي فاغرة

(النابغة الذبياني : 186

عليكم « مسلماً »[1] يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش ، أنّكم لا تحبّونا إبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبّكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان »[2] .

لقد جاءت هذه الخطبة كرّد فعل على احتجاج أهل المدينة ، واكتفى عبد الملك بأنْ سرد قصّة ذات الصفا[3] ، فاستهلكت معظم خطبته وشغفها بشعر للنّابغة الذبياني[4] وقابل سيرة قُرَيش مع عمر بن الخطّاب (رضي) بسيرتها مع عثمان بن عفّان (رضي) وكاشف القوم بحقيقة مشاعرهم نحوه وحقيقة مشاعره نحوهم ، وما قصة الفيء والصدقة إلّا حجّة واهية يتوسلون بها لمعارضته ومعاندته [5] .

---

(1) « هو مسلم بن عقبة المرّي صاحب وقعة الحرّة ، وذلك أنّ أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد بن معاوية وخلعوه ، وحصروا مَنْ كان بها من بني أميّة وأخافوهم ، فوجّه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ،ودعا النّاس للبَيْعَة على أنّهم خول ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما يشاء وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبى ، « جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص165 هامش

(2) مروج الذهب : ج 3 ، ص64

(3) أورد الدكتور العشماوي قصة ذات الصفا نقلاً عن الشعر والشعراء كما يلي : « امتنعت بلدة على أهلها بسبب حيّة غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته فتمكن الها أخوه في السّلاح ، فقالت : هل لك ان تؤمنني ؛ فأعطيك كلّ يوم ديناراً ؟ فأجابها الى ذلك حتى أثرى ، ثم ذكر اخاه ، فقال : كيف يهنئني العيش بعد أخي ؟ فأخذ فأسا،وصارٌ إلى حجرها ، فتمكّن لها ، فلمّا خرجت ضربها على رأسها فأثّر فيه ولمّا يمعن ، ثم طلب الدينار حين فاته قتلها ، فقالت : إنه ما دام هذا القبر بفنائي ، وهذه الضربة برأسي ، فلست آمنك على نفسي » النابغة الذبياني للدكتور العشماوي دار المعارف ط 2 ص79

(4) تمثل النابغة بحيّة ذات الصفا « عندما أراد ابن سيّار المري ان يتحالف ضدّ النابغة وقومه ، فقال النابغة :

« كما لقيت ذات الصفا من حليفها	وما انفكت الأمثال في النّاس سائره
فقالت له أدعوك للعقل وافيا	ولا تغشيّني منك بالظلم بادره
فوافقها بالله حين تراضيا	فكانت فدية المال غباً وظاهره
فلما توفى العقل إلا لأقله	وجارت به نفس عن الحقّ جائرة
فلما رأى أن ثمّر اللّه ما له	وأثل موجوداً وسدّ مفاقرة
أكبّ على فأس يحدّ غرابها	مذكّرة من المعاول باتره »

المصدر السابق : 166

(5) من الملاحظ أنّ قصة ذات الصفا تتفق ـ من حيث سير الأحداث والنتائج ـ في روايتيها عند ابن قتيبة .

لقد كانت هذه الخطبة كما ذكرنا ردّ فعل حصل بمناسبة توزيع الأعطيات ، وعبد الملك فيها لم يتصنّع في كلامه أو يتأنّق ، فهو يتكلّم على سجيته ، وقد جاء نثره قريباً من نثر ابن المقفع ، فلا تفنّن في القول ولا تعقيد في الصّناعة وعباراته تأخذ بعضها برقاب البعض الآخر . فإذا حاولنا تغيير موضع جملة واحدة لضاع المعنى وانقطع الكلام ، وجاء بالحوار بين الأخوين ثم بين أحدهم والحية ليجعل المشهد ماثلا أمام الجمهور كأنّه يراه .

وعبد الملك بتقديمه المثل على مصارحته لأهل المدينة يجعلهم مقتنعين بما ذهب إليه . أمّا لو قال لهم إنّ حقده عليهم يكبر كلمّا تذكّر مقتل عثمان وذكّرهم بيوم الحرّة ثم أراد أن يروي لهم حكاية ذات الصّفا فإنّ أفكارهم لا شكّ ستكون مشّتتة ، فصورة المعركة يوم الدّار حيث قتل عثمان . وصورة المعركة يوم الحرّة وما أصابهم فيها من العسف وما تبعها من البغي ستصرف أذهانهم عن متابعة الحكاية التي يتمثّل بها أمامهم ولعلّ الميزة الأهم في هذه الخطبة هي : تسميته الأشياء بأسمائها ، ومصارحة سامعيه بكلام واضح لا يحتمل اللبس أو التأويل .

وابتعد باختيار ألفاظه عن الحوشي العويص فاختار من الألفاظ ما وضحت معانيه وتألفت حروفه في النطق وانسجمت أصواتها في الأذن .

6 ـ وخطب عبد الملك يوماً في أهل المدينة ، فقال : « يا أهل المدينة ، إنّ أحقَّ النّاس أنْ يلزم الأمر الأوّل لأنتم وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ، ولا نعرفها ، ولا نعرف منها إلاّ قراءة القرآن ، فالزموا ما في مصحفكم الذي حملكم عليه الإمام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه اللّه ، فإنّه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشير كان للإسلام رحمه اللّه ، فاحكما ما أحكما ، واستقصيا ما شذّ عنهما »[1] .

أغلب الظّنّ أنّ هذا النّصّ مقطع من خطبة وليس خطبة كاملة . إذ من غير المعقول أن يصعد عبد الملك المنبر ويخطب دون أن يتهدّد ويتوعّد ، خاصة وهو

= والنابغة فعبد الملك إذاً أخذ روحها فتمثّله ولوّنه بالألوان التي تخدم غرضه من التمثّل بها .

(1) طبقات ابن سعد : ج 5 ، ص233 ، البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها .

بالمدينة ، وقد عرفنا كرهه لأهلها ، لما فعلوه بعثمان من جهة ولأنّهم طردوا مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان في جملة من طردوا من المدينة . ثم إنّ النّصّ يوحي بأنّه مأخوذ من نص أكبر منه .

وقد بدأه مخاطباً أهل المدينة بأنّهم أحقّ من يلزم سيرة السلف الصالح ، وأمّا الأحاديث التي يتداولها النّاس والتي تذمّ المروانيين وتنهش بهم ، فهي بعيدة عنهم لا يعرفونها ولا يعترفون بها ، فإنّهم لا يعرفون إلّا القرآن وتلاوته ، ثمّ يتحوّل إلى وعظهم فيدعوهم لالتزام القرآن الذي جمعه عثمان ويصفه بالإمام المظلوم ، ويدعوهم إلى التمسّك بالفرائض التي سنّها عثمان لهم ويكرّر نعته بالإمام المظلوم وكأنّه يقرّعهم ويتّهمهم بظلمه ولأنّه يعرف رأيهم به وبعثمان ، يذكر أنّ عثمان (رضي) قد استشار زيد بن ثابت ونعم المشير ، وهم يعلمون فضله فأوامر عثمان ونواهيه لم تكن بعيدة عن الدين ، وإنّما هي من صلبه لهذا فإنّ عليهم أنْ يُحْكِموا ما أحكم الشيخان لأنّ ما أحكماه قد أحكمه الإسلام .

وتطالعنا في هذا النّص الخاصّة الأسلوبية عنده ، وهي الإيجاز في الكلام مع بلوغ المعنى بلوغاً تاماً ، والاقتصاد بالألفاظ ولكن ليس على حساب المعاني ، فالأمر الأوّل يلخّص كل ما يريده من المعاني والقيم والفضائل التي تمجّدها النّاس ولفظة سالت تمثل المبالغة العظيمة في الأحاديث التي تنتقصه وتنتقص المروانيين ، ونفيه المعرفة فيها إلا قراءة القرآن صوّرت ما أراده من وصف نفسه بالتّديّن والعفّة والنزاهة واقتدائه بالسنّة الشريفة ، لقد كان يقصد الإيجاز في خطبته قصداً ، ويقنْن الألفاظ تقنينا ، ويختار الألفاظ الجزلة والعبارات القويّة المحكمة ولننظر قوله « وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ، ولا نعرفها « فالسيلان يكون للماء فاستعاره من الماء وجعله للحديث ، فغدت الأحاديث أنهاراً تجري بأشياء نكرة لا يعرفها ، ولا يقرّها . فإحكام العبارة عند عبد الملك وتحميلها من الإيحاء والمعاني ما يمكن أنْ تحمله ، غدا مذهباً له في الكلام يتبعه ويجوّده .

7 ـ وروى الأصمعي أنّ عبد الملك حصر على المنبر فقال : « إنّ اللسان بضعة من الإنسان وإنّا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلّت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عيّنا مقال ،

وبعد يومنا هذا أيّام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب »[1] .

إنّي لأتساءل كيف يوصف عبد الملك بالحصر وقد قال ما قال ، ولعمري لقد أفصح وما حصر فما الحصر ؟ وما الإفصاح ؟ أليس الحصر أن يسكت الإنسان ويتبلّد ذهنه فلا يدري كيف يقول ما يدور بخلده ؟ أليس الإفصاح أنْ يفتنّ الإنسان بالقول ويجد مخرجا في الكلام ؟ إنّ عبد الملك حوّل الخطبة من خطبة سياسية إلى خطبة أدبية برهن فيها على قدرته في الكلام ، ومكانته بين الخطباء . لقد أفصح عبد الملك وأبان وأجاد وأحسن من حيث اعتبر نفسه عييّاً .

إنّ اللسان بضعة من الإنسان تتأثّر بما يتأثّر به ، وكما ينتاب الإنسان الضعف أو الشعور به ، وتنتابه القوّة ، فكذلك اللسان ، فالإنسان كلّ متكامل يتأثّر بالوضع النفسي أو الصحي ، والسكوت خير من الهذر ، وهو أمير الكلام ، فإنْ سكت فلأنّه لا يريد الهذر وتطويل الكلام من غير طائل . وقد رسم للكلام صورة مستطرفة محبّبة ، فجعله شجرة امتدت جذورها في أعماقه وتدلّت أغصانها فاستظلّ بها . وسيعرف النّاس صدقه وبلاغته وفصاحته في الأيّام والمناسبات الآتية ، سيعرف النّاس ، أنّه يملك فصل الخطاب ، وأنّه إنْ قال يدرك في قوله الصواب .

كلام قصير موجز الألفاظ، غنيّ بالمعاني ، فصيح الألفاظ ، بليغ العبارات يظنّ الإنسان أنّ هذا الكلام مصنوع ومعد للمناسبة لو كانت غير الحصر في الكلام ، أو أنّ هذا الكلام موضوع ومنسوب لعبد الملك لو لم تظهر من خلاله خصائص عبد الملك الأسلوبية .

8 ـ وخطب النّاس يعظهم فقال :

« أيّها النّاس ، اعلموا للّه رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نعمته ، وحصيد نقمته ، ولا تغترس لكم الآمال ، إلاّ ما تجتنيه الآجال ، وأقلّوا الرّغبة فيما يورث العطب ، فكلّ ما تزرعه العاجلة ، تقلعه الآجلة ، واحذروا الجديدين فهما يكرّان عليكم ، إنّ

---

(1)البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها .

عقبى من بقي لحوق بمن مضى ، وعلى أثر من سلف ، يمضي من خلف ، فتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى »[1] .

لقد تناولت خطبة عبد الملك فكرة زوال الدنياوالزهد فيها ، وسرعة انقضائها ، فالإنسان لا يلبث فيها إلّا قليلاً ، ثم يذهب في سبيله ، مخلّفاً الجاه والعزّ والمال ، لا ينفعه من دنياه إلّا عمل صالح يعمله ، وسيرة حسنة يسيرها ، وتتلوّن هذه الفكرة بألوان متعدّدة وتتشكّل بأشكال متنوّعة ، لترسخ في أذهان النّاس ، فالتكرار فيها تكرار فني قصد إليه عبد الملك قصداً ، وحشد في كلامه الكثير من الصّور الفنية والبلاغية . فزواج بين الألفاظ ووازن بين الجمل ، والصّناعة في هذا النّصّ ظاهرة جليّة حتى لتبدو الجملة أحياناً محمّلة بالكثير من المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة ، كقوله « اعملوا للّه رغبةً ورهبةً » فقد طابق بين الرّغبة والرهبة وجانس ، طابق بالمعاني وجانس بين الألفاظ ، وكما طابق بين الألفاظ فقد طابق بين الجمل كقوله· «فإنكم نبات نعمته ، وحصيد نقمته » فطابق بين صورتين صورة النبات الأخضر الذي يزخر بالحياة وصورة الحصيد اليابس الذي فقد الحياة ، وتحوّل إلى هشيم تذروه الرّياح . وشبه الإنسان الذي ينعم برحمة ربّه ونعمته بالنّبات الأخضر الفينان وشبّهه وقد زالت نعمة اللّه عنه وحلّت نقمته عليه بالحصيد الذي فقد الحياة . والآمال تغرس ، والآجال تجني والعاجلة تزرع والآجلة تقلع والليل والنهار يأكلان حياة الإنسان شيئاً فشيئاً . فلا خلود في هذه الحياة وما الدنيا إلّا معبر للآخرة ، وخير الزاد التقوى .

لقد تمثّلت في هذه الخطبة قدرة عبد الملك على التشخيص وتجسيم الأفكار المجرّدة في صور متحركة رائعة تمرّ أمام العين ، فيتمثّلها العقل ، ويخشع لها القلب .

9 ـ وخطب حين خرج عليه ابن الأشعث فقال :

« إنّ أهل العراق طال عليهم عمري ، فاستعجلوا قدري ، اللّهم سلّط عليهم

---

(1) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص464 نقلا عن مواسم الأدب : ج 2 ، ص188 للسيد جعفر بن السيد .

سيوف أهل الشّام ، حتّى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوز الى سخطك »[1] .

شيء لافت للإهتمام في هذه الفقرة ، وهو اعتدال عبد الملك وحكمته ، وتخليه عن التهديد باستعمال القوّة ، وظلم النّاس ، فقد دعا اللّه أن يسلّط سيوف أهل الشّام على أهل العراق ولم يتمنّ إبادتهم واستئصال شأفتهم ، إنّما يريد بلوغ رضى اللّه عزّ وجلّ . ولعلّ عمر عبد الملك ، هو الذي جعله ينهج هذا النهج في خطبته . فخروج ابن الاشعث كان في السنوات الأخيرة من حكمه ، وتفكير الشيوخ أهدأ من تفكير الشباب وأرزن .

10 ـ وكان عبد الملك يقول في آخر خطبته :

« اللّهم إنّ ذنوبي قد عظمت ، وجلّت أن تحصى ، وهي صغيرة في جنب عفوك ، فاعفُ عنّي »[2] .

وقد استحسن الحسن البصري هذا الدّعاء وقال إنّه حريّ أن يكتب بماء الذهب[3] لِمَا فيه من الإيجاز في الألفاظ وبلاغة في تحقيق المعنى وإصابته ، فللفظة عند عبد الملك جلالتها ، فهو يقتصد بألفاظه فتأتي عباراته مجنّحة بالألفاظ ذات الدّلالات الإيحائية التي تغمر النّفس وتنبّه الأذهان . فذنوبه عظيمة كثيرة لا يستطيع عدّها . وهي صغيرة هيّنة في جنب عفو اللّه . ولقد أحسن في إبراز عفو اللّه وتصويره ، إنّ عفو اللّه كبير وعظيم تصغر الذنوب والسيئات أمامه مهما عظمت وجلّت .

ولعلّ الطّباق بين عظمة الذنب عليه وصغره في جنب عفو اللّه قد أدّى الغاية البلاغيّة التي قصد إليها عبد الملك واستحسنها الحسن البصري .

11 ـ ووقف على قبر معاوية فقال : « تاللّه أنْ كنت ما علمت ، لينطقك العلم ، يسكتك الحلم ، ثم أنشأ يقول :

---

(1) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص185 ، نقلا عن الطبري ج 8 ، ص10

(2) العقد الفريد : ج 4 ، ص154 ، ج 32 ، ص155

(3) المرجع نفسه : ج 4 ، ص154

ومـا الـدّهـر والأيّـام إلاّ كمـا تـرى   رزيئَـة مـالٍ أو فـراق حـبيـبِ »[1]

12 ـ وقال عبد الملك في بعض خطبه : « انصفونا يا معشر الرّعيّة ، تـريدون منّـا سيرة أبي بكـر وعمـر ! ولا تسيـرون فينـا ولا في أنفسكم بسيـرة رعيّـة أبي بكـر وعمر ! نسأل اللّه أنْ يعين كلاًّ على كلّ »[2] .

فهـو لا يطلب من رعيتـه إلاّ الإنصاف ، فـإنْ طلبوا منـه سيرة صـالحة كسيـرة الخلفاء الراشدين فقد جـابههم وطالبهم بـأنْ يسيروا بسيـرة الرعيّـة في أيّام أبي بكـر وعمر وقد استغل قدرته على الكلام ، وفصاحته في إبراز المعاني حتّى قلب النتيجـة إلى مقدّمة . والمقدّمة إلى نتيجة ، وطالب الرّعيّة بسيرة حسنة تجاهه كشـرط للعدل فيهم وشتـان بين ما ذهب إليـه عبد الملك ومـا ذهب إليه أبـو بكـر (رضي) ، لقـد خـطب بعد أنْ تمّت لـه البَيْعَة فقـال : « أيّهـا النـاس ! إنّي قـد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، فإنْ رأيتموني على حقّ فأعينوني ، وإنْ رأيتموني على باطل ، فسـدّوني . أطيعوني ما أطعت اللّه فيكم ، فإذا عصيته فـلا طاعـة لي عليكم »[3] فشتّان مـا بين القولين والرجلين ، لكنه مع هـذا أخذ نتيجـة مسيرة أبي بكـر في رعيته وهـو صلاح الرعيّة فجعله سبباً في صلاح الحكّام وتمسّكهم بالعدل والإنصاف . وهـذا الكلام لا يحملنا على ظلم عبد الملك والجـور في حكمنا عليـه . فالأمّـة الإسلاميـة في زمن الرّاشدين لم تمزقها الأهواء والشّيع والأحزاب ، وسيرة الرّسول الكريم لم تزل مـاثلة أمامهم ، يتمثّلونها في كلّ أعمالهم ، فـواقع الأمّـة في زمن الراشـدين غيره في زمن عبـد الملك ولو أراد السّيـر على سيرة أبي بكـر لَمَا استـطاع النّهوض بـالأعبـاء التي نهض بها .

13 ـ وخطب عبد الملك على المبنر فقال :

« أيّها النّاس ، إنّ اللّه حدّ حدوداً ، وفـرض فروضـاً ، فما زلتم تـزدادون في الذّنب ونزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السّيف »[4] .

---

(1) المرجع نفسه : ج3 ، ص174
(2) عيون الاخبار : ج 1 ، ص9
(3) تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي : ص 122 ـ نقلا عن عيون الاخبار : ج 2 ، ص234
(4) العقد الفريد : ج 5 ، ص141

إنّ اللّه جعل لكلّ ذنب عقاباً ، وفرض أحكامه على عباده ، فَلَمْ يبتعدوا عن حدود اللّه ولم يتجنّبوا محارمه وازدادوا في ذنوبهم وزاد عبد الملك في عقوبته لهم وكابروا على أنفسهم وثبت لهم عبد الملك يردعهم عن غيّهم فالتقى الطرفان عند السيف .

وقد جانس بين حدّ وحدود ،وفرض وفروض ، وتزدادون وتزداد . وأحكم عباراته فجاءت مكثّفة المعاني شديدة الأسر ، تأخذ بمجامع القلوب .

مصادر الخطبة عند عبد الملك

لقد اعتمد عبد الملك في خطبه على أربعة مصادر أساسية :

1 ـ **الدين** : كان عبد الملك حريصاً على إظهار نفسه بأنّه المتمسّك بالدّين الحامي لحقيقة الإسلام ، من تبعه سلك السّبيل القويم، واعتصم بحبل الجماعة . ومن عارضه أو نازعه وثار عليه ، فهو ضالّ مضلّ ، كافر ، متّبع هواه وما توسوس له الشياطين ، لذا وجب قتاله والقضاء عليه .

2 ـ **التّاريخ الإسلامي** : اعتمد عبد الملك في معظم خطبه على التّاريخ الاسلامي واستمد منه الأفكار التي تحدّث عنها في خطبه وأكثر من ذكر أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ، ونوّه ببعض الأحداث التاريخيّة الهامة كجمع القرآن ، وقتل عثمان ، ويوم الحرّة . فالتّاريخ مصدر استلهمه عبد الملك وتمثّل بأحداثه واستفاد منه في خطبه .

3 ـ **الشعر العربي** : والمصدر الثّالث في خطب عبد الملك بن مروان كان الشعر ، يتمثّل به ويستشهد بحكمته ليس في خطبه فحسب ، وإنّما في أقواله ورسائله ، خاصّة أنّه كان راوية للشّعر كبيراً ، يروي الشعر الجاهلي والإسلامي والمعاصر له، ينقده ، ويتذوّقه تذوّق العارف الأديب .

4 ـ وكما اعتمد الشعر في خطبه فقد اعتمد الأمثال حتّى كادت حكاية حيّة ذات الصفا تستهلك معظم خطبته في المدينة[1] .

---

(1) ارسل عبد الملك الي عمر بن معمر ليقدم عليه ، فلما كان بضمير وهي قريبة من الشّام مات بالطاعون .

وكانت الأحداث المعاصرة الدافع الأوّل والمحرّك لخطبه ، وكانت خطبه معالجة لها أو تعليقاً عليها .

المميّزات العامة في خطبه

من حيث المضمون: الإلتزام السياسي ومعالجة شؤون الخلافة الإسلامية ، والدّفاع عن سياسته في الحكم ، وإظهار الغلظة ، والإكثار من التهديد بالجامعة التي وضعها في عنق عمرو بن سعيد حيناً وبالسّيف أحياناً أخرى . ودعوة النّاس الى الخضوع والإستسلام لمشيئته .

كما امتاز بالصّراحة في مخاطبة النّاس واعتداده بنفسه وهذا الإعتداد بالنّفس والثّقة بها ظاهر في خطبه غاية الظهور قلّما تخلو عباراته من سماتها .

أمّا من حيث مطابقة الكلام لواقع الحال ، فقد حفظت لنا الأيّام نصوصاً تجلو هذه الحقيقة وتبيّن تأثير خطابة عبد الملك على جمهوره ، وانفعال المعارضة بهذه الخطب ، فقد وقف رجل من آل صوحان ، فجبه عبد الملك وهو يخطب ، فقال : « مهلاً يا بني مروان ، تأمرون ، ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإنْ قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأنّى وكيف ؟ وما الحجّة ؟ وما المصير من اللّه ؟ أنقتدي بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال اللّه دولاً ، وعبيده خولاً ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، واطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغشّ نفسه ؟ أم كيف تجب الطّاعة لمن لم تثبت عند اللّه عدالته ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة مِمّنْ سمعتموها ، فعلام وليّناكم أمرنا ، وحَكّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ، فتخلّوا عنها ، واطلقوا عقالها ، وخلّوا سبيلها ، ينتدب إليها آل الرسول الذين شرّدتموهم في البلاد ، ومزّقتموهم في كلّ واد ، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدّة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة . إنّ لكلّ قائم قدراً لا يعدوه ، ويوماً لا

= فقام عبد الملك على قبره ، وقال : أما والله ، لقد علمت قريش أنْ قد فقدت اليوم ناباً من أنيابها .
(الاغاني : ج 14 ، ص105

يخطوه وكتاباً بعده يتلوه (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها) (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون) ثم التُمِسَ الرّجل فلم يوجد [1] وهذه الخطبة تشتمل على معظم المآخذ التي كان يحتّج بها من يجأر بالمعارضة للبيت المرواني .

اما سمات عبد الملك الأسلوبية فيمكن تلخيصها بما يلي :

1 ـ الإيجاز :

إنّ السمة التي طبعت خطب عبد الملك بطابعها وميّزتها عن سواها هي الإيجاز في التعبير والإقتصاد في الألفاظ دون أن تخلّ بالمعنى أو توهمه فيحتمل تأويلاً أو تفسيراً ، فتقنين الألفاظ في خطبه يعتمد على حذف ما يستغنى عنه دون أن تختلّ العبارة أو تلوى . وخوفه من اللحن وكرهه إيّاه قد يكون سبباً في اعتماد الإيجاز في كلامه خشية الوقوع فيه ، وقد أثر عنه أحاديث كثيرة تعيب اللحن وتقبحه في الكلام[2] .

2 ـ الوضوح :

إنّ الإيجاز في كلام عبد الملك لم يطغ على الوضوح في أسلوبه ، فالمعاني واضحة جليّة ، لا غموص فيها ولا التواء ، وكما أنّ الإيجاز خاصة من خصائص أسلوبه ، فالوضوح خاصّة تلازم كلامه ، فلا يساء فهم ما يريد قوله ، ولا يفسّر كلامه بغير المعنى الذي يريد . كانت خطبة عبد الملك موجّهة لعامّة المسلمين وخاصتهم ، لذلك التزم فيها الوضوح لتفهم عند العامة ، فالجمهور لا ينفعل بكلام

---

(1) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص 140 ـ نقلا عن نهاية الادب : ج 7 ، ص249

(2) في البداية والنهاية : ج9 ، ص61 وما بعدها ، رواية عن الاصمعي وغيره : انه كان يخشى اللحن « ولحن رجل امامه فقال له زد الفـا ، قال الرجل وانت فزد الفا » وفي البيان والتبيين ان عبد الملك قال « اللحن هجنة » على الشريف ، والعجب آفة الرأي » ، وفي العقد ، ان عبد الملك قال « الاعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة على الشريف ، وفي الكامل ومروج الذهب ، رواية حديث دار بين خالد بن يزيد وعبد الملك وابنه الوليد بشأن عبد الله بن يزيد وفيه كلام عن مقت عبد الملك للحن .

انظر البيان والتبيين : ج 2 ، ص216 ، والعقد الفريد : ج2 ، ص479

والكامل : ج 1 ، ص196-197 ، ومروج الذهب : ج 3 ، ص117

إذا لم يفهمه ، لهذا جاءت خطبه واضحة لا إبهام فيها ، وقد تأتّى لهـا الوضـوح من وجهين :

أ ـ الألفاظ المفردة :

إنّ ألفاظ عبد الملك مأخوذة من اللغة الشائعـة بين النّاس في عصـره ، فهو لا يغرب في ألفاظه ، ولا يتعمّد الصعب الغريب من اللفـظ الذي لا يفهمـه إلّا خاصـة اللغويين ، فقاموسه عصري ، وألفاظه مفهومة من عامة النّاس في عصره .

ولئن سعى عبد الملك إلى الوضوح في ألفاظـه فإنّـه لم يهمل جـوانب اللفظة الأخرى كأن يختار الألفاظ المبتذلة الركيكة ، لأنّها مفهومة من الجمهور متداولة على ألسنة النّاس ، إنّما اختار الألفاظ ذات الدّلالات الإيحائية التي توقظ الشّعور ، وتنبـه الإحساس ، وشاكل بين اللفظة ومعناها ، وحرص أنْ تأتي ألفاظه منسجمـة الحروف لا يتعثّر بها اللسان ، متناغمـة الإيقاع لا تنبـو عن الأسماع . كـان اهتمامـه باللفـظة شـديداً شمـل جوانبهـا المتعدّدة فجـاءت ألفاظـه سهلة الفهم فصيحة اللفظ يفهمهـا العامّي ولاتستهجنها الخاصّة .

ب ـ الجمل :

وإذا كانت ألفاظ عبد الملك منتقاة من الألفاظ الشائعة في عصره ، فإنّ عبارته كانت واضحة بيّنة لا تعقيد فيها ولا إبهام في مـدلولهـا ، ولا معاظلة فهي لا تحتمـل التأويل والتفسير بمعان مختلفـة . ولا تحتاج لـطول تفكير وإجهـاد ذهن لفهمها على وجهها الأمثل .

وهو إنْ اهتمّ بألفاظه فأحسن اختيراها ، فقد اهتمّ ببناء عبارته فأحسن هندستها فألفاظها منسجة ، وإيقاعاتها متوازنة ، وهي بعد بنـاء هندسي محكم ، لا تشـذّ فيها لفظة ، ولا تنوء بمعناها عبارة .

ويبتعد عبد الملك عن الصنعة في بعض كلامه فلا يـزخرف القـول أو يزركش الكلام ، ولا يتعمد حشد الفنون البلاغية ، إلا ما جاء عفواً ، تظهر هذه الخاصة في خـطبه التي تلت أحـداثاً مهمّـة انفعل عبـد الملك بها كخـطبتـه بعـد أن قتـل عمـراً الأشدق ، وخطبته في أهل المدينة وقد احتجّوا على العطاء .

ويعتمد في البعض الآخر ما شاع في الخطابة لعصره من محسّنات بيانيّة كالسجع والطباق والجناس والتشبيه والمقابلة والإستعارة ، ويحتفل بها دون أن تصرفه عن الإهتمام بموضوع كلامه ووضوحه أو إيجازه فيه .

وصايا عبد الملك بن مروان

إنّ حياة عبد الملك الغنيّة بالتّجارب والمعاناة المليئة بالأحداث قد انبهت فكره ، وصقلت تجربته ، فصار إنْ تكلّم في شؤون الدنيا يتكلّم بلسان الخبير العارف بأسباب الأمور ونتائجها ، ووصاياه التي سنتكلم عنها في هذا الفصل ، تمثّل حكمته وخبرته التي استفادها من سنوات عمره الحافلة والحقيقة أنّ خبرته بالحرب وشؤون الحياة ، قد برزت باكراً في وصيته :

1 ـ لمسلم بن عقبة المرّي « حين أرسله يزيد بن معاوية لقتال أهل المدينة ، فوصلها وبنو أمية محاصرون بها ثمّ أخرجوا . فلمّا لقيهم مسلم بن عقبة استشار عبد الملك بن مروان وكان حدثاً ، فقال له : الرأي أنْ تسير بمن معك ، فإذا انتهيت إلى أدنى نخلها نزلت ، فاستظلّ النّاس في ظله ، وأكلوا من صفوه ، فإذا أصبحت ، مضيت ، وتركت المدينة على اليسار، ثمّ درت بها حتّى تأتيهم من قبل الحرّة مشرّقاً ، ثمّ تستقبل القوم . فإذا استقبلتهم ، وقد طلعت الشمس عليهم ، طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، بل يصيب أهل المدينة أذاها ، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنّة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ، ما لا ترونه أنتم ما داموا مغرّبين ، ثم قاتلهم واستعن باللّه »[1] .

إنّ مسلماً قد استشاره ، فأشار عليه بالطريق الأمثل الذي يؤمّن له النّصر . وقد أثبت عبد الملك من خلال هذه المشورة نضوجه المبكّر وخبرته العسكرية وقدرته على قيادة الجيوش ، لقد أحسّ بحاجة الجيش الزاحف من الشّام للرّاحة قبل أنْ يباشر الحرب والكفاح . فاختار له المكان الأنسب لراحته ، ورسم له السبيل الذي يجب ان يسلكه . لم يراع عبد الملك في رسم حركة الجيش الأموي النّاحية الجغرافية فحسب ، إنّما التفت إلى ما يمكن أن يؤثّر في نفوس أعدائه . « فإذا

(1) الفخري : ص 99

استقبلتهم وقد طلعت الشمس عليهم ، طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، بل يصيب أهل المدينة أذاها ، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنّة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ، ما لا ترونه أنتم ما داموا مغرّبين « فائتلاق الشمس على السلاح يظهره ويبرزه فيثير الهيبة والرّعب في القلوب ، وإذا التفتنا إلى الجيوش الحديثة وما يوجّه لها من الإعلام للمحافظة على معنوياتها ، وما ينفق في الحروب من أموال للتأثير على معنويات الجيوش المعادية ، أدركنا أهميّة الناحيّة التي فطن إليها وعمل على إبرازها[1] .

وقد توسل لذلك أسلوباً مباشراً ، فصوّر حركة الجيش في حلّه وترحاله ، واستقباله أهل المدينة ، وقد اقتصد في ألفاظه ، وقصد موضوعه قصداً ، ولم يحتفل بالصياغة الشكلية إلّا ما جاء عفواً دون تكلف وظهرت براعته باستعمال الأفعال وتوزيعها بين صيغة الماضي وصيغة المضارع، فأحدث في النّصّ حركة وإيقاعا داخلياً ، فعبّر بالصوت والإيقاع عن حركة الجيش الزاحف للمعركة .

وقد اختار من الألفاظ ما فصح لفظه وبان معناه دون أنْ يسفّ أو يتوعّر ، فجاءت ألفاظه متآلفة الحروف تعبّر عن معانيها بعفوية وصدق ، منسجمة بعضها مع بعض في عبارة متماسكة مقنّنة الألفاظ ، فلا معاودة للمعنى ولا تكرار للعبارة أو اللفظة ، فالجملة مهندسة بدقّة ورشاقة تحتلّ مكانها في البنيان العام للكلام ، يظهر فيها صفاء الطبع وجودة القريحة وحسن السبك وتمثّل المعاني بأفضل الألفاظ المناسبة .

2 ـ وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الرّوم فقال : « أنت تاجر اللّه لعباده ، فكن كالمضارب الكيّس الذي إنْ وجد ربحاً تجر وإلّا تحفّظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السّلامة، وكن من احتيالك على عدّوك أشدّ حذراً من

---

(1) في حديث للفريق الشاذلي مع مندوب مجلة الف باء العراقية ـ الصفحة الثامنة ـ العدد 553 ، 2 آذار ، 1979 ـ قال الفريق الشاذلي اجابة على سؤال ساعة الصفر حددتها مصر وسوريا في حرب 1973 والمصريون كانوا يريدون تلك الخطة في الظلام لان متاعبهم كثيرة بينما كان السوريون يفضلون ان يبدأ الهجوم مع اول الضوء فجرا وهذا يساعدهم في الهجوم وتكون الشمس من خلفهم .

احتيال عدّوك عليك »[1] لقد أبدى عبدالملك في هذه الوصيّة حرصاً على جنوده ، ورغبة صادقة بالنصر ولكن ليس بأيّ ثمن ، وكما رسم لمسلم بن عقبة من قبلُ خريطة المعركة مع أهل المدينة فقد رسم لهذا القائد التكتيك الواجب اتباعه في المعارك ، فلا مغامرة ولا دخول بمعركة إذا كان يعلم أنّها خاسرة .

والنصر هو الغاية الأولى وليس الغنائم ، ولا التفات للغنيمة إلاّ بعد تأمين السّلامة وإحرازها . وحذر في احتياله على العدوّ أشدّ من الحذر من احتيال العدوّ عليه ، فالحرب خدعة ، وإذا فطن العدوّ للحيلة انقلبت على صاحبها وجاءت نتيجتها بعكس المأمول والمرتجى منها .

ولإدراك غرضه ، وبلوغ غايته توسّل التشبيه فقال : « أنت تاجر اللّه لعباده » فالقائد تاجر ، يبيع ويشتري وغايته الربح ، ومن كان تاجر اللّه في عباده ، فخليق به أن يتوسّل الربح الكثير ، فهو تاجر وليس كالتّجار ، ورأس ماله إيمان باللّه وجنود بين يديه ، يقاتلون في سبيل اللّه ، وهم ، بعدُ ، أمانة في عنقه يُسأل عنهم أمام اللّه ، وليوضح المعنى ويرسّخه في ذهن القائد اتبعه بتشبيه آخر يقوّي الأوّل ويعضده ويوضح معناه ، فقال « فكن كالمضارب الكيّس الذي إنْ وجد ربحاً تجرّ وإلا تحفّظ برأس المال « لقد شبّهه بالمضارب الحاذق الذي لا يزيد بالثّمن إلاّ ليجني الربح ، فإنْ وجد السّلعة لا توازي ما يدفعه أمسك .

وقد سلك في تعبيره طريقي الخبر والإنشاء ، فجاء التشبيه في جمل خبرية ، حتّى إذا وضحت الصورة التي يجب أن يكون القائد عليها ، سلك سبيل الإنشاء فقال : « ولا تطلب الغنيمة حتّى تحرز السّلامة ، وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذراً من احتيال عدوّك عليك » .

وتظهر عناية عبد الملك بالألفاظ وتنخّله لها في كلامه جميعه ، فلو تأملنا الفعل « تحرز » وهو من الحرز والحرز تميمة توضع على الإنسان فتؤمّنه من عاديات الزمان ، فهل تقوم لفظة مرادفة لها بوظيفتها في الجملة ؟ لا أخال ذلك ، ولا أظنّ أنّ لفظة احتيال أقلّ اهمية منها من حيث المدلول أو الإيحاء ، فلفظة احتيال تؤدّي من المعاني في عبارة عبد الملك ما تعجز لفظة أخرى أنْ تؤديه .

(1) العقد الفريد : ج 1 ، ص 94

3 ـ وأوصى مؤدّب ولده ، قال : « علّمهم الصدق كما تعلّمهم القرآن ، وجنّبهم السفلة فإنّهم أسوأ النّاس رعة وأقلّهم أدباً ، وجنّبهم الحشم فإنّهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلّمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضاً ويمصّوا الماء مصّاً ولا يعبّوه عبّاً ، وإذا احتجت إلى أنْ تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الغاشيّة ، فيهونوا عليه »[1] .

وضع عبد الملك لمؤدب ولده خطة تربوية متكاملة ، تناولت الأخلاق والإجتماع والثقافة وآداب المائدة ، وقد أعطى الأخلاق أهميّة توازي الدين وأمر معلّم أولاده أنْ يهتمّ بتلقينهم الصدق كاهتمامه بتلقينهم أصول دينهم ، ودعاه الى تجنيبهم الإختلاط بأصناف السفلة والخدم ، لأنّهم مفسدة ، والتفت إلى زيّهم فأمره بقصّ شعروهم ، ولم يغفل عن الغذاء ، فأمره باللحم ، عرّج على الثقافة فخصّ الشعر باهتمامه ، حتّى طريقة شربهم الماء لم تغب عن باله ، وفطن أنْ لا بدّ من العقاب يقاصص به المعلم تلاميذه في بعض الأحيان فحدّد له الشروط والطريقة التي يمكنه أن يعاقب أولاده بموجبها .

4 ـ وأوصى الحجّاج حين ولّاه العراق ، قال : « إنّي استعملتك على العراق فاخرج إليها كميش[2] الإزرار ، شديد الغِرار ، قليل العِثار ، منطوي الخصيلة[3] قليل الثميلة[4] غرّار النوم ، طويل اليوم ، واضغط الكوفة ضغطة تحبق منها البصرة[5]» فالجملة تجري على إيقاع ، ليست نثريّة خالصة ، لعلوقها بالنّغم المتوّلد من السّجع ومن شكل العبارة »[6] فالجملة تعتمد على الإيقاع ، وتوزيع فواصلها توزيعاً وتزيينه ، فالمعنى هنا ليس غاية يقصدها عبد الملك بالقليل من الألفاظ التي تحمل الكثير من المعاني ، إنّما اللفظ تحوّل إلى غاية جمالية يقصدها

---

(1) عيون الاخبار : ج ٥ ، ص167 وانظر البداية والنهاية ، ج 9 ، ص61 وما بعدها .

(2) كميش : مشمرَ .

(3) الخصيلة : لحم الفخذين والعضدين والذراعين .

(4) الثميلة : البقية من الطعام في البطن .

(5) زهر الاداب : ج 2 ، ص904

(6) نماذج في النقد الادبي : ص 583

عبد الملك ويتفنّن بالعناية بها وإظهار جمالها .

5 ـ لمّا حُمِلَ الشّعبي إلى عبد الملك ونادمه ، قال له : « يا شعبي ، لا تساعدني على ما قبح ، ولا تردّ عَلَيّ الخطأ في مجلسي ، ولا تكلفني جواب التشميث [1] والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى ، وكلّمني بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لي صواب الإستماع مني ، وأعلم أنّ صواب الإستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعتني أتحدّث فلا يفوتّنك منه شيء ، وأرني فهمك من طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في تطرية صوابي ، ولا تستدع بذلك الزّيادة في كلامي ، فإنّ أسوأ النّاس حالاً من استكدّ الملوك بالباطل ، وإنّ أسوأ الناس حالاً منهم من استخفّ بحقّهم ، وأعلم يا شعبي ، أنّ أقلّ من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويسقط حقّ الحرمة فإنّ الصمت في موضعه ، ربّما كان أبلغ من المنطق في موضعه ، وعدن إصابته وفرصته »[2] .
وكما عرض عبد الملك مفهومه في التربية بوصيته لمعلّم أولاده ومؤدّبهم ، فقد أشار على الشّعبي هنا وعرّفه بأدب منادمة الملكوك ومجالستهم ، فنهاه عن المساعدة على قبح لأنّ المساعدة على القبيح غشّ ، وحذّره أنْ يحطئه في ملأ من النّاس ، ودعاه إلى رفع الشكليّات ، فلا دعاء إذا عطس ، ولا تهنئة في كلّ مناسبة ، ودعاه إلى حديثه ما أحسّ أنّ الخليفة مقبل عليه ، فإنّ بدرت من الخليفة بادرة أو علامة على قلّة إقباله ، أمسك عن الحديث ، ودعاه إلى عدم تطرية كلامه ومدحه ، وإنّما يستمع منه ويحسن الإستماع ويعلّمه أنّ الإستماع فن ، كفن الكلام ، فإذا سمعه يتحدّث ، فليقبل عليه بسمعه وبصره ، فلا يقول له : أحسنت وأجدت ، إنّما يريده أن يظهر فهمه ببصره وسمعه ، دون إجهاد نفسه في تطرية صوابه ، وينهاه عن التملّق إليه طمعاً في عطيّة لا يستحقّها ، وإنْ دعاه إلى رفع الشكليّات ، فلا تحدثنّه نفسه بالإستخفاف بحقّه ، فبادرة من هذا النوع او أقلّ منها ، تذهب ما سبق من الإحسان والحرمة ، ويحضّه على الصمت عندما يكون مناسباً ، لأنّ الصمت في موضعه أبلغ من الكلام في موضعه وعند إصابته وفرصته .

---

(1) التشميث : الدعاء للعاطس
(2) مروج الذهب : ج 3 ، ص37

وقد عبّر عبد الملك عن معانيه بأسلوب بسيط مباشر ، وابتعد عن زخرف القول وترصيعه ، بل يباشر المعنى مباشرة ، ولا يعني بالإنشاء بقدر عنايته بالموضوع ، فجاءت العبارة صافية يسوقها الموضوع ، فتتسلسل تسلسلاً ، في انسجام وتناغم تحسّه النفس وإنْ لم تؤده الأذن ، وقد بدأ كلامه بالنهي وختمه بالتقرير والتأكيد، وقصد لما يريد قصداً ، فلا تشبيه ولا كناية ، ولا محسّنات لفظية أو معنوية ، إلا ما جاء عفو الخاطر (طباق في بعض المواضع ، مثل : التشميث والتهنئة والسؤال والتعزية ، وأصبح وأمسى ، والإستماع والقول ، والصمت والمنطق) ولا غرابة في الألفاظ ولا تعقيد في العبارات ، إنّما انسجام وتكامل وتناغم بين الحروف في اللفظة الواحدة وتشاكل بين اللفظ ومعناه فلا لفظ مُسْتَقْبح ولا معنى مُسْتَهْجَن .

6 ـ وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان حين ولّاه مصر ، قال يوصيه : « تفقّد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فإنّ الغائب يخبره عنك كاتبك ، والمتوسّم يعرفك بحاجبك ، والداخل عليك يعرفك بجليسك »(1)

لقد أوصى أخاه بالإهتمام بثلاث لا غنى للحاكم عنهم الكاتب والحاجب ، والجليس ، لأنّ الغائب يعرف من أحوال الملك ما أراده الكاتب وما استطاع إيضاحه ، والمتوسّم يعرف الوالي وقدره من حاجبه وانضباطه وقيامه على بابه ، والداخل ينظر إلى جلساء الوالي فإذا كانوا من العلماء وأهل الأدب والفضل تهيّب المجلس وصاحبه ، وإذا كانوا من السّوقة العامة الذين لا يتميّزون بعلم أو أدب أو حسن رأي ، استهان بالمجلس ومَنْ فيه وكشف عورة السلطان وعرف جهله وقلّة خبرته ودرايته .

7 ـ وأوصاه ثانية ، قال « ابسُط بِشْرَك ، وأَلِنْ كَنَفَكَ ، وآثر الرفق في الأمور ، فإنّه أبلغ بك ، وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنّه وجهك ولسانك ، ولا يقفنّ أحد ببابك إلاّ أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه ، وإذا خرجت الى مجلسك ، فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مشكل ، فاستظهر عليه بالمشاروة ، فإنّها تفتح مغاليق الأمور ، وإذا سَخِطْت

(1) عيون الاخبار : ج1 ، ص44

على أحدٍ ، فأخّر عقوبتـه ، فإنّـك على العقوبـة بعد التـوقّف عنه ، أقـدر منك على ردّها بعد إمضائها »[1] .

هذه الوصيّة لا تختلف عن سابقتها من حيث الجوهر والغاية ، فقد رسم لأخيه منهجاً في السّلوك يحسن به أنْ ينهجه ، فبساطة البِشْر وليونة الكَنَف والترفّق بالأمـور من صفات الحاكم الجدير بولاية الأمور وحكم العباد والحجابة مـركز مهمّ بـه يعرفـه النّاس وبواسطته يتعرّفون إليـه ، فيجب أنْ يحسن اختياره ، فيكـون الحاجب شـديد الإخلاص للوالي صادق النيّة فيه ، ويحـدّد دوراً للحاجب يجب أنْ لا يتعـدّاه ، وهو إعلام الوالي بِمَنْ يقف على بابه فيكون الأخير صاحب الكلمة في الإذن له أو ردّه.

ثمّ دعاه ، إذا خرج إلى مجلسـه أنْ يبدأ بـالسّلام ، فيـأنس به أهـل المجلس ويحبّـوه ويخلصوا لـه المودة ، ويناصحوه الرأي ، فإذا اعتـرضته بعض المشـاكل فليشـاور أصحاب الـرأي من حاشيتـه ، وإيّاه والتفـرّد بالـرأي ، لأنّ المشـورة تفتـح مغاليق الأمور ، وعليـه ألاّ يستعجل العقـوبة ، فـالتريّث أجـدى في إصدار الأحكـام وتنفيذ العقوبات ، لأنّ العقوبـة قادر على إجـرائها في كـلّ آن وليس بالميسـور دائماً رفعها بعد إمضائها .

إن عبد الملك يبدو لنا من خلال هذا النّصّ قد خبر شؤون الحكم والسياسة ، عرف كيف تساس الممـالك ، فقـد نوّه بـالصفات التي لا بـد منها للحـاكم الناجـح كبساطة الوجه ، وليونة الجانب والترفّق بالأمور ، وأشار إلى منصب الحاجب وأهميته لصـاحب الحكم والسلطان ، وخبر أحـوال النّاس وعـرف ما يـرضيهم ، فالسّـلام لا يكلّف الحاكم جهداً لكنّه يؤلّف قلوب الجماعـة عليه ، فيـأنسوا بـه وتثبت محبّته في قلوبهم ، والتفـرّد بالـرأي على سداده في بعض الأمـور غير محمـود المشورة أحجى وأنجى ، والتمهّل بإمضاء الأحكام والتريّث بها خير من العجلة في إمضائها .

أمّا أسلوبه ، فقد جاء صافياً عذباً ، الجمل قصيرة متـوازنة إنشـاءً ، ومبسوطـة ممتدّة خبراً ، عبّـرت عن معانيهـا ببساطـة وعفويّـة صادقـة ، ابتعد فيهـا عن التكرار ومعاودة المعـاني ، وتجنب حـوشي اللفظ عـويص الكـلام ، وعبّـر بـالالفـاظ عن

---

(1) الفخري : ص100

معانيها ، ولم يقصد الإستعارة أو التشبيه وغيرها من ضروب صناعة الكلام إلاّ ما جاء عفواً ، وانساب طبعاً ، كوصفه للحاجب بقوله : « فإنّه وجهك ولسانك » فهذه الإستعارة تعبّر بإيجاز عن فكرة متكاملة وهي حال الحاجب وأهميّته بالنسبة للحاكم ، وقد جاءت بليغة خاطفة مستطرفة ، تعبّر عن المعنى فيلمع فيها صفاء الذّوق وجودة الطّبع ، فالإنسان قد يستطيع إخفاء بعض أعضائه إلاّ الوجه واللسان فالوجه يستقبل به النّاس ويعرف به بينهم ، واللسان أداة للتّواصل معهم ، وأظنّ عبد الملك قد نجح بإظهار أهميّة الحاجب وحساسيّة منصبه بهذه العبارة وحدها .

وسليقة عبد الملك لم تقف به عند حدود اللمع باستعارة أو تشبيه ، إنّما تعدتها للألفاظ ودلالتها ، فإذا نظرنا إلى قوله « وإذا انتهى إليك مشكل ، فاستظهر عليه بالمشاورة » فلنتأمل لفظة « فاستظهر » موقعها ومعناها وإيحائها ، فلو قال فاستعن لتحوّلت الجملة الى كلام عادي ، واختفت شحنتها الإيحائية ، فالاستظهار بالشيء غير الاستعانة ، والإستظهار أقوى من الاستعانة وأبلغ ، وكذلك لو قال ، واذا انتهى إليك مشكل، فاستشر أصحابك ، فلو قلبنا الوجوه المحتملة جميعاً لما وجدنا لفظة تحمل في ذاتها من المعنى والإيحاء ما تحمل هذه اللفظة في سياق الكلام .

وانظر إلى عبارته « فإنها تفتح مغاليق الأمور » بمعنى أنّ المشورة تذلّل المشاكل، وتحلّها ، فاستعمال الفعل « تفتح » استتبع بالضرورة لفظة « مغاليق » والمغلاق ، ما يغلق به الباب ، فاستطاع بذلك تجسيد المعنوي بشكل حسي ، تمثل صورته أمام العين فيتمثّله العقل بسهولة ويسر .

وهذه الخاصة ، أعني تمثْل المعاني وانتخاب الألفاظ المناسبة لها والمعبّرة عن مكنوناتها ، لا تتأتي إلاّ لصاحب سليقة وفطرة أدبيّة قد هذبتها الدربة والمعاناة .

8 ـ وقال عبد الملك يوصي بني أميّة[1] : « يا بني أميّة ، ابذلوا نداكم ، وكفوا أذاكم ، واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتم ، فإنّ خير المال ما أفاد

(1) في العقد الفريد : ج 3 ، ص89 ، ان عبد الملك قال لبنيه : « كفّوا الأذى ، وابذلوا المعروف ، واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتم ، ولا تلحفوا إذا سألتم ، فإنّه من ضيّق،ضيّق اللّه عليه ، ومن أعطى أخلف اللّه عليه » .

حمداً ، أو نفى ذمّاً ولا يقولنّ أحدكم ابداً بمن تعول ، فإنّما النّاس عيال اللّه ، قد تكفّل اللّه بأرزاقهم ، فَمَنْ وسّع أخلف اللّه عليه ، ومن ضيّق ضيّق اللّه عليه »[1] .

فوصيته لبني أميّة دعوة للتمّسك بالمثل والقيم العربية ، كالكرم وكفّ الأذى والعفو عند المقدرة ، فخير المال ما أفاد حمداً ونفى ذماً ونهاهم عن لومه في بذله وكرمه . وطبيعة الحديث عن الكرم والحمد وغيره تجرّ للحديث عن أضدادها لذا جاء المقطع مليئاً بالطّباق ، وجمله قصيرة متوازنة مسجّعة .

9 ـ وأوصى بنيه بطلب العلم ، فقال : « عليكم بطلب الأدب ، فإنّكم إنْ احتجتم إليه ، كان لكم مالاً ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً »[2] .

10 ـ وقال للوليد ، وكان وليْ عهده : « يا بني ، اعلم أنّه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعيّة أو تملكه إلاّ حرفان : حزم وتوانٍ [3] .

11 ـ وأوصى الوليد في مرضه الذي مات فيه ، وقد بكى الوليد حزناً عليه ، فقال : « إذا أنا متّ ، فضعني في قبري ، ولا تعصر عَلَيّ عينيك عصر الأمةِ[4] ، ولكن شمّر وائتزر ، والبس للنّاس جلد النّمر ، فمن قال برأسه كذا ، فقل بسيفك كذا »[5] .

وفي مروج الذهب زيادة على ذلك « وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه »[6]

وهو في وصيته للوليد ، يطلب منه الحزم وعدم التواني وإظهار شدّته على النّاس وعدم مهادنتهم في أمور السلطة وكنّى عن القوة والبأس بجلد النّمر لما يشتهر النّمر به من الشراسة والبأس . وسجّع في كلامه وأوجز وأبلغ في مراده ووازن في فواصل كلامه .

---

(1) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص484-485 نقلا عن الامالي : ج 2 ، ص32 وانظر البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها .

(2) العقد الفريد : ج 2 ـ ص231-232

(3) المرجع نفسه : ج 1 ، ص32

(4) في مروج الذهب : ج 3 ، ص99 ، أحنين الحمامة

(5) المرجع نفسه : ج 5 ، ص158

(6) مروج الذهب : ج 3 ، ص99-100

12 ـ وأوصى بني أمية فقال : « يا بني أميّة ، أحسابكم أعراضكم ، لا تعرضوها على الجهّال فإنّ الذمّ باقٍ ما بَقِيَ الدّهر ، والله ما سرّني أنْي هجيت ببيت الأعشى وأنْ لي طلاع الأرض ذهباً ، وهو قوله في علقمة بن علاثة :

يبيتــون في المشتى مـلاء بــطونهم   وجـاراتهم غـرثى يبتن خمـائصـا[1]

والله ما يبالي مَنْ مُدِحَ بهذين البيتين ، ألّا يمدح بغيرهما وهما قول زهير :

هنــالـك إنْ يستخبلـوا المــال يخبلوا   وإنْ يسـألوا يعـطوا وإنْ ييسروا يغلوا[2]

على مكـثـريهــم حقّ مـن يعتــريهــم   وعنـد المقلّين السّمـاحــة والبـذل »[3]

فالكلام تحذير لبني أميّة من تعريض أنفسهم للشعراء الذين لا يتورّعون عن ذمّ من لا يعطيهم وهجائهم ، لأنّ الكلمة إنْ سارت بين النّاس لا يستطيع أحد ردّها أو ضبطها ، فهي باقية ، تتناولها الأجيال ، فإنْ كانت ذمّاً ، ألبست مَنْ قيلت فيه الخُـزْيَ والعار أبد الدهر ، ويضرب لهم مثلاً قول الأعشى في هجاء علقمة بن علاثة ، وقد هجاه بالبخل والخساسة ، فبقيت هذه الوصمة عالقة بعلقمة إلى أن يشاء الله خلاف ذلك .

وكما ضرب لهم المثل في الذم وقبحه وسيّء أثره، فقد ضرب لهم مثلاً آخر، فبيّن لهم الأثر الذي تتركه الكلمة في النفوس، إنْ قيلت مدحاً وحمداً، فتمثّل ببيتي زهير ، وقد وصف قوماً بالكرم وطيب المحتد . ورمى عبد الملك من ذلك إلى دعوتهم لبذل أموالهم فيما يكسب الثّناء والأثر الطيّب بين النّاس .

13 ـ وصيّته لبنيه ، قال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنّة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حقّ الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، وإيّاكم والبغي والتحاسد ، فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العزّ المكين . يا بنّي : أخوكم مسلمة نابكم الذي تفرّون عنه ، ومجنّكم الذي

---

(1) الخميص : ضامر البطن .

(2) استخبله الابل : استعارة اياها لينتفع بها .

(3) الامالي : ج 2 ، ص154 ، وزهر الاداب : ج 2 ، ص1088

تستجنّون به ، أصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجّاج ، فإنّه الذي وطّأ لكم الأمر ، كونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام »[1]

هذه الوصيّة هي آخر ما أثر عن عبد الملك وقد وجهّها إلى أولاده ليعملوا بها بعده ابتدأها بدعوتهم لتقوى الله عزّ وجلّ ، والتعاطف فيما بينهم والإخلاص بعضهم لبعض وعدم البغي والتحاسد .

وأوصاهم بأخيهم مسلمة ليصدروا عن رأيه في الأمور الجسام ، وكذلك أوصاهم بالحجّاج بن يوسف لما قدّمه للبيت المرواني من خدمات .

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص100 (وقد ورد اختلاف في نص هذه الوصية في مختلف المصادر التي اثبتتها ، ففي التاريخ الكامل لابن الاثير وردت هذه الوصية كما يلي : « أوصيكم بتقوى اللّه ، فإنّها أزين حلية وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حقّ الكبير ، وانظروا مسلمة ، واصدروا عن رأيه ، فإنّه نابكم الذي عنه تفرّون ومجنّكم الذي عنه ترمون ، وأكرموا الحجّاج ، فإنّه الذي وطأ لكم المنابر ودوّخ لكم البلاد ، وأذلّ الاعداء ، وكونوا بني أمّ بررة ، لا تدّب بينكم العقارب ، وكونوا في الحرب أحراراً ، فإنّ القتال لا يقرّب ميتة ، وكونوا للمعروف مناراً ، فإنّ المعروف يبقى أجره وذكره ، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب فإنّهم أصون له ، وأشكر لما يؤتى إليهم منه ، وتعهّدوا ذنوب أهل الذنوب ، فإنّ استقالوا ، فأقيلوا ، وإن عادوا ، فانتقموا »

التاريخ الكامل : ج 4 ، ص249-220

ووردت وصيته في البداية والنهاية موجّهة للوليد :

« يا وليد ، اتق اللّه فيما استخلفتك فيه ، واحفظ وصيّتي ، وانظر إلى أخي معاوية ، فصِلْ رحمه ، واحفظني فيه ، وانظر الى أخي محمّد فأمّره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر الى ابن عمّنا علي بن عباس ، فإنّه قد انقطع إلينا بمودّته ونصيحته وله نسب وحق ، فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر الى الحجاج بن يوسف ، فأكرمه ، فإنّه هو الذي مهّد لك البلاد ، وقهر الأعداء ، وخلص لكم الملك ، وشتّت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أمّ واحدة ، وكونوا في الحرب احراراً ، وللمعروف مناراً ، فإنّ الحرب لم تدن منّية قبل وقتها ، وإنّ المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب بالمحبّة ويذلّل الألسنة بالذكر الجميل ، وللّه درّ القائل :

إنّ الأمور إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش مفند

عزّت فلم تكسر وإنْ هي بُدّدت ... فالكسر والتوهين للمتبدّد

ثم قال : « إذا أنامتُّ ، فادع النّاس إلى بيعتك ، فمن أبى فالسيف ، وعليك بالإحسان إلى اخواتك فأكرمهن إليّ فاطمة »

البداية والنهاية : ج 9 ، ص67 وما بعدها .

ثم دعاهم للبّر والشجاعة في الحروب والكرم وبذل الأموال .

وعمد إلى كلامه فحسّنه وزاوج بين ألفاظه ، ووازن بين جمله ، حتّى ليمكننا القول أنّ فضيلة هذه الوصية فضيلة بلاغية فنّية بالدّرجة الأولى ، فقد عمد إلى معنى التقوى فكرّره بالألفاظ وأعاد تصويره بالجمل ، وشبّه التّقوى بالعصمة التي تمنع عن صاحبها الشرور ، وعاد فجسّد الفكرة ، فقال « وجنّة واقية » فشبه التقوى بالسترة أو الدرع الذي يقي الجسد المخاطر والآفات ، ولم يكتف بذلك بل جعلها الزّاد الأخير والأفضل في المعاد ، وشبّهها بالكهف الحصين الذي يمتنع به النّاس من أعدائهم .

هذا التكرار والمعاودة للفكرة غلب على وصيّته هذه ، إنّما لم يكن التكرار كلّ ما حفلت به ، فالسجع رافقها منذ البداية حتّى النهاية وبرزت فيها عوامل الصنعة كانتخاب الألفاظ ، وتشكيل الصور ، والتعبير بواسطة التشبيه والإستعارة والمجاز عن الأفكار المعنوية بصور مادية تمثل أمام العين متحرّكة نابضة بالحياة .

أراد عبد الملك أن يظهر فيها عصارة تجربته وخبرته في الحياة ، لذلك فإنّ معانيها لم تكن وليدة صدفة أو مناسبة للقول ، بل هي وليدة التفكير العميق ، والتأمّل الواعي والخبرة المتّصلة بواقع الحياة وواقع النّاس .

بعض أقوال أخرى لعبد الملك :

1 ـ « رأيُ الشيخ أحبّ إلينا من مشهد الغلام »[1]

2 ـ وقال لمّا قتل مصعب : « واروه ، فقد واللّه كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ولكنّ الملك عقيم »[2] .

3 ـ وقال للوليد في معرض حديثه عن الخلافة : « إن يرد اللّه أنْ يعطيكها ، لا يقدر أحد من العباد على ردّ ذلك عنك ، ثمْ قال لابنيه الوليد وسليمان : هل فارقتما محرّماً أو حراماً قط ؟ فقالا :لا ، والله ،فقال : اللّه اكبر ، نلتماها وربّ الكعبة »[3] .

---

(1) البيان والتبيين ، مختارات : ص 180
(2) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص161
(3) البداية والنهاية : ج 9 ، ص59

4 ـ وسأل الوليد عبد الملك ، فقال : « يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصّة مع صدق مودّتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع »[1] .

5 ـ وقال لبنيه : كلّكم يترشّح لهذا الأمر[2] ولا يصلح له منكم إلّا من كان سيف مسلول ، ومال مبذول ، وعدل تطمئنّ إليه القولب »[3] .

6 ـ وقال عن مصعب بن الزّبير : « أشجع النّاس مصعب بن الزّبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين وابنة الحميد بنت عبد اللّه بن عاصم وولي العراقين ، ثم زحف إلى الحرب ، فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عمّا خلص في يده ، فأبى قبول ذلك ، واطرّح كلّ ما كان مشغوفاً به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قرماً يقاتل ، ما بقي معه إلّا سبعة نفر حتّى قتل كريماً »[4]

7 ـ وقال عبد الملك : « أفضل النّاس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، وأنصف عن قوّة »[5] .

8 ـ وقال عبد الملك وقد تذكر الحجّاج وقساوته : « ولقد كنت أمشي في الزّرع ، فأتقي الجندب أن أقتله ، وإنّ الحجّاج ليكتب إلي في فئام من النّاس ، فما أحفل بذلك وقيل له ـ وقد أمر بضرب أعناق الأسراء ـ أقستك الخلافة يا أمير المؤمنين وقد كنت رؤوفاً ! قال : كلّا ، ما أقستني ، ولكن أقساني احتمال الضغن على الضغن »[6] .

9 ـ وقال يذّم الدنيا : « إنّ طويلك لقصير ، وإنّ كثيرك لقليل ، وإنّا كنّا منك لفي غرور »[7] .

---

(1) عيون الاخبار : ج 1 ، ص10 ، العقد ج 1 ، ص18

(2) يعني الخلافة .

(3) العقد : ج1 ، ص17

(4) الاغاني : ج 17 ، ص166-167 ، التاريخ الكامل : : ج 4 ، ص157-162 ، زهر الاداب : ج 1 ، ص210

(5) العقد : ج 1 ، ص27

(6) الحيوان : ج 5 ، ص 591

(7) مروج الذهب : ج 3 ، ص99-100

10 ـ «ودخل رجل من بني مخزوم على عبد الملك بن مروان ، وكان زُبيرياً ، فقال له عبد الملك : أليس اللّه قد ردّك على عقبيك ؟ قال : ومن ردّ إليك يا أمير المؤمنين ، فقد رُدّ على عقبيه ؟ فسكت عبد الملك وعلم أنّه أخطأ »[1].

11 ـ « وجلس يوماً عبد الملك ، وعند رأسه خالد بن عبد اللّه بن أسيد ، وعند رجليه أميّة بن عبد اللّه بن أسيد وادخلت عليه الأموال التي جاءت من قبل الحجّاج حتى وضعت بين يديه ، فقال : هذا ـ واللّه التوفير ، وهذه الأمانة ، لا ما فعل هذا (وأشار الى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كلّ ملطّ فاسق ، فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدّى إليّ من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خُرَاسان ، (وأشار إلى أميّة) فأهدى إليّ برذونين حطمين ، فإنْ استعملتكم ضيّعتم ، وإنْ عزلتكم ، قلتم : استخفّ بنا ، وقطع أرحامنا »[2] .

12 ـ وقال عن الوليد : « أضرّبنا حبّنا في الوليد ، فلم نؤدّبه ، وكأنّ الوليد أدّبنا »[3] .

13 ـ وقال « أربعة لا يستحى من خدمتهم : الإمام ، والعالِم ، والوالد ، والضيف »[4]

14 ـ وقال عن اللحن في الكلام : « اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه »[5] .

15 ـ وعن الضّحّاك بن قيس ، قال : « ألا تتعجّبون من الضّحّاك بن قيس ، يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبض ولا نبض ، (يعني حراك) »[6]

16 ـ ولما كتب أهل خُرَاسان إلى عبد الملك : « إنّ خراسان لا تصلح بعد الفتنة ، إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصّبون عليه ، قال عبد الملك :

---

(1) العقد : ج 2 ، ص39

(2) جمهرة خطب العرب : ج 2 ، ص220 ، نقلا عن العقد : ج 2 ، ص117

(3) العقد : ج 2 ، ص245

(4) المرجع نفسه : ج 2 ، ص261

(5) المرجع نفسه : ج 2 ، ص275-318

(6) الحيوان : ج 1 ، ص260

« خراسان ثغر المشرق ، وقد كان به من الشّر ما كان ، وعليه هذا التميمي ، وقد تعصّب النّاس ، وخافوا أن يصيروا إلى ما كانوا عليه ، فيهلك الثغر ومن فيه ، وقد سألوا أن أولّي أمرهم رجلاً من قريش ، فيسمعوا له ، ويطيعوا . فقال أميّة بن عبد اللّه بن أسيد : يا أمير المؤمنين ، تداركهم برجل منك ، قال : لولا انحيازك عن أبي فديك ، كنتَ ذلك الرجل . قال : يا أمير المؤمنين ، واللّه ما انحزت حتّى لم أجد مقاتلاً ، وخذلني النّاس ، فرأيت أنّ انحيازي إلى فئة أفضل من تعريضي عصبة بقيَت من المسلمين للهلكة ، وأشهد شهوداً ، فقبل منه عبد الملك وولاّه خُرَاسان »[1] .

17 ـ وقال عبد الملك بن الحجّاج التغلبي لعبد الملك بن مروان : « هربت إليك من العراق ! قال : كذبت ، ليس إلينا هربت ، ولكنّك هربت من دم الحسين ، وخفت على دمك فلجأت إلينا »[2] .

18 ـ « وقدم عُروة بن الزّبير على عبد الملك بن مروان ، فدخل ، فأجلسه معه على السّرير ، فجاء قوم ، فوقعوا في عبد اللّه بن الزُّبير ، فخرج عُروة ، فقال للآذن : إنّ عبد اللّه بن الزُّبير ابن أمي وأبي ، فإذا أردتم أن تقعوا فيه ، فلا تأذنوا لي عليكم ، فذكر ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : قد أخبرني الآذن بما قلت ، وإنّ أخاك لم يكن قتلنا إيّاه لعداوة ، ولكنّه طلب أمراً ، وطلبناه ، فقتل دونه ، وإنّ الشأم قوم من أخلاقهم أنْ لا يقتلوا أحداً إلاّ شتموه ، فإذا أذنّا لأحد قبلك، فقد جاء مَنْ يشتمه ، فلا تدخل ، وإذا أذنّا لأحد وأنت جالس ، فانصرف »[3] .

ولئِن التزم عبد الملك في خطابته السياسية ، وما تفرّع عنها ، فقد جاءت وصاياه أشمل وأرحب ، تعبّر عن خبرته بالحياة ، وثقافته الواسعة ، والمتشعّبة في أصناف المعارف والعلوم .

فهو عالم بالسياسة وشؤون الممالك وإدارتها ، خبير بالحرب ، وقائد محنك

---

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص200

(2) عيون الاخبار : ج 1 ، ص103

(3) الاغاني : ج 16 ، ص45

في خوض غمارها ، راوية للأدب والشعر ، أديب ، خطيب ، ومعلّم يضع المناهج التربوية ، وهو ـ بعد ـ حكيم ، لبيب ، يفقه القول ، ويبحث عن الحكمة ، ويحثّ على طلب العلم والمعرفة .

وأسلوبه في وصاياه وأقواله ، يعتمد الإيجاز والإقتصاد في ألفاظه ، والجري على الطبع في كلامه ، مع تنخّل اللفظ وتماسك العبارة ، وتجنّب الزينة والزخرف الخارجين أحياناً ، وتأنق في الكلام أحياناً أُخر ، دون أنْ يصل إلى حدّ الإسراف في ذلك ، فخصائصه في وصاياه وأقواله ، هي عين خصائصه في خطابته .

الفصل الخامس

رسائل عبد الملك بن مروان

رسائل عبد الملك

لئن ظهر جبروت عبد الملك ، وثقته بنفسه ، واعتماده الحزم في معالجة شؤون البلاد في خطبه ، فلم تظهر معاناته ، وما يعتمل في نفسه من أحاسيس وانفعالات معذّبة على صفحة خطبه إلاّ في القليل النادر . فإنّ رسائله وما رافقها من أحداث ، وإن اهتمّت شأن خطبه بالسياسة ـ أبرزت وجدانه ، وعذابات ضميره في أحيان كثيرة ، فهي وإن صحبتها الثّقة والإعتداد بالنّفس ، فقد أفصحت بما لا يقبل الشكّ عن تشابك النّوازع في نفسه ، فالضّمير مهما سكت ونام في ذات الإنسان ، فلا بدّ أنْ يستيقظ ، ويحاسب صاحبه حساباً أليماً .

وهذا ما سوف يظهر لنا في رسائل عبد الملك في أحيان كثيرة ، ونحن نحاول التغلغل في أعماق وجدانه الذي عنه صدرت تلك الرّسائل وما فيها ، فنسبر غور هذا الرجل الذي جمع المتناقضات في شخصه ، حتّى ليبدو أحياناً أنّه لا يفكّر بزوال الدنيا ، وعذاب الآخرة ، بل يقبل على دنياه ، يعيشها ، كما يحلو له أن يعيش ، ويظهر حيناً بصورة الإنسان الذي عرف ربّه ، فخشي مآبه ، وما ينتظره من حساب عسير ، فقد ذكر ابن الأثير : « أنّ عبد الملك تمثّل في مرضه بهذين البيتين :

« إنْ تناقشْ يكنْ نقاشُك يا ربّ عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت ربٌّ صفوحٌ عن مسيء ذنوبه كالترابِ »[1]

---

(1) التاريخ الكامل : ج 4 ، ص250-251

وعلّق على ذلـك بقـولـه : « ويحقّ لعبـد الملك أنْ يحـذر هـذا الحـذر ، ويخاف ، فإنْ يكن الحجّاج بعض سيّئاته ، يعلم على أيّ شيء يقدم عليه»[1] .

فعبد الملك تنازعه أمران :

ـ نزوع إلى السّلطة ، وعمل دائب في سبيل ترسيخها ، وتوسيع رقعتها ، ومن أجل ذلك ، أباح كلّ حق وحرّمه .

ـ ونـزوع إلى اللّه ، وخوف من عـذابه وسـطوتـه ، والنـزوع إلى السلطة كـان أقوى ، فنهج لذلك الطريق الذي يعزّزها ، ويخضع المتطاولين إليها .

إلاّ أنّ ضميره لا يموت تماماً ولا تختفي نزعة الحقّ من كيانه وتضمحلّ ، بل تعود لمقاومة الهوى وحبّ السلطة ويؤنّبه ضميره لِمَا ارتكب من أخطاء فيصبّ جامّ غضبـه على الحجّـاج وبعض الـولاة ، ويصبّ هؤلاء النقمـة بـدورهم فـوق رأس الشعب .

1 ـ رسالة عبد الملك بن مروان إلى عمر بن سعيد الأشدق

حين خـرج عمرو بن سعيـد على عبد الملك بن مـروان وتحصّن في دمشق ، جـرت بينه وبين عبـد الملك مراسـلات ، من بينها هـذه الرسـالة التي أرسلهـا عبـد الملك : « أمّا بعد ، فإنّ رحمتي لك تصـرفني عن الغضب عليك ، لتمكّن الخُـدَع منـك ، وخذلان التـوفيق إيّاك . نهضت بـأسباب وهمتـك أطماعـك أن تستفيد بهـا عزّاً ، كنت جديراً لو اعتـدلت ، أنْ لا تدفـع بها ذلاّ . ومن رحـل عن حسن النّظر ، واستـوطنته الأمـاني ، ملك الحَيْن[2] تصريفـه ، واستترت عنـه عواقب أمـره ، وعن قليـل يتبيّن مَنْ سلك سبيلك ، ونهض بمثل أسبـابـك ، أنّـه أسيـر غفلة ، وصـريـع خـدع ، ومغيض[3] ندم . والـرحـم تحمل على الصفـح عنـك ، مـا لـم تحلل بـك عـواقب جهلك ، وتزجـر عن الإيقاع بـك ، وأنت ، إن ارتـدعت في كنف وسـتـر ، والسّلام »[4] .

---

(1) المرجع نفسه : ج 4 ، ص250-251

(2) الحين : الهلاك ، المحنة .

(3) المغيض : مجتمع الماء ومدخله في الارض وجمعه مغايض .

(4) البيان والتبيين : ج 4 ، ص87

في هـذه الرّسـالة تلميـح وتلويح ، تلميـح بالعفـو وتلويح بـالقـوّة ، وتصـويـر للمنزلق الخطر ، والطريق الوعر الذي يسير عليه عمرو بن سعيد .

ابتدأ رسالته بالحديث عن الرحمة ، وختمها بالحديث عن الصفـح ، وضمنها نقمته عليه وتهديده إيّاه وتحقيره لشأنه ، وقـد حاول فيهـا كبت مشاعـره الحقيقية ، فتحدث عن الرحمـة ، الرحمـة على من تمكّنت الخدع منـه ، وضلّ التـوفيق عنه ، واستسلم لأمـانيه ، دون أن يفـطن لعاقبـة عمله ، وصوّر هـذه العاقبـة فإذا هي غفلة تأسر ، وخدع تصرع ، حتّى ليتـآكل صـاحبها النـدم، ولكن هل يقـطع خط الرّجعـة على عمرو ، فيدفعه بذلك للمضي بمعاندته حتّى النهاية ؟ فـإنّ الفرصـة لم تضع ، وما زال أمام عمرو فرصة يغتنمها ، فيعـود للطاعة ، ويتمتّـع بالعفـو والأمان ، مـا لـم يتمادّ بالمعاندة والعصيان .

لقـد حاول عبـد الملك ضبط مشاعـره ، وكتم نيّته الحقيقيـة ، وإخفاء حقـده القديم على عمرو بن سعيد ، دون أن يتخلّى عن سلاح القوّة والتلويح فيها ، فأظهر بذلك دهاء ومكراً وحسن مصانعة . فهو بحاجة لكلّ سيف من سيـوف أهل الشـام ، فهل يضرب هذه السيوف بعضها ببعض في سبيل الـدخول إلى دمشق ، إذا استـطاع دخولها بوسيلة أخرى ، لقـد اختار المهـادنة والمـلاينة ، وأعـطى عمراً مـا يريـد من العهود والمواثيق ، رغم تصميمه على التخلّص منه في أسرع ما يكون[1] .

إنّ عبـد الملك يحقد على عمـرو منذ زمن طـويل ، ويخفي حقـده ، ويتحيّن الفرص لإظهاره انتقاماً من عمرو وأسرته[2] ثمّ هو يعلم أنّ عمراً يطمع بالخلافة وأنّ في يديه بعض خيوطها[3] ، ويصفح عنه ويؤمّنه ؟

---

(1) انظر فصل الصراع على الزعامة الاموية من هذه الرسالة .

(2) « كان عبد الملك وعمرو يلتقيان في النّسب في أميّة ، وكانت أم عمرو أم البنين بنت الحكم عمّـة عبد الملك ، فلمّا قتل عبد الملك مصعباً واجتمع النّاس عليه ، ودخل أولاد عمرو على عبد الملك وهم اربعة : أمية وسعيد وإسماعيل ومحمّد فلما نظر إليهم قال لهم : إنّكم أهل بيت لم تزالوا ترون لكم على الجميع من قومكم فضلاً لم يجعله اللّه لكم . وان الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً ولكن كان قديماً في أنفس أوليائكم على أوليائنا في الجاهلية »

التاريخ الكامل : ج 4 ، ص146-149

(3) بعد موت مروان بن الحكم ؛ أقبل عبد الملك مسرعاً إلى دمشق خوفاً من وثوب عمرو بن سعيد.

لقد اتخذ عبد الملك من صفحه عن عمرو وتأمينه له الخطوة الأولى للقضاء عليه بأيسر السبل ، ونجح بإخفاء نواياه ، وكتم مشاعره ومخططه المستقبلي بشأن عمرو بن سعيد ، فرسالته والحالة هذه لم تكن وليدة انفعال بحدث التمرّد والعصيان ، إنّما كانت وليدة فكر ومكر وخداع وتبصّر بالأمور ورويّة فيها .

وقد توسّل لإظهار معانيه أسلوباً ينمّ عن قدرة صاحبه ، وتمكّنه من أدوات الفصاحة وامتلاكه ناصية التعبير ، فقوله « إنّ رحمتي تصرفني عن الغضب عليك » تصوّره برماً بفعلة عمرو ، متميّزاً غيظاً وغضباً ولكن حبّه لعمرو ورحمته له تدفعه لكظم غيظه . فعبرت هذه الجملة بألفاظها القليلة عن المعنى بشمول تام وصورت نزعتين إنسانيتين تتشابك إحداهما مع الأخرى ، الرّحمة والغضب ، الصّفح والعقوبة . وفضلاً عن المقابلة بين حالتي الرّحمة والغضب ، فقد جاء إسناد الفعل إلى الرّحمة مجازاً وجعل الفاعل الحقيقي مفعولاً به ظاهراً ليزيد التعبير الفني جمالاً . وانظر للام التعليل في قوله : « لتمكّن الخدع منك ، وخذلان التوفيق إيّاك» فهذه الرّحمة لم تكن لولا تمكّن الخدع منه وخذلان التوفيق إيّاه فرحمته ناتجة عن قصور عمرو وضآلته ، وتشخيص الخدع حتّى لتصبح إنساناً يتمكّن منه ، والتوفيق الذي يتآزر مع شخص ويخذل آخر ساهمت في معنى الرّحمة وأسبابها ، وتصوير صغر شأنه وحقارته حتّى لا يستأهل الغضب عليه .

فما هو الذنب الذي احتقر عمراً من أجله ، فوجده يستأهل الرحمة بدل العقاب ؟ « نهضت بأسباب وهمتك أطماعك أنْ تستفيد بها عزّاً ، كنت جديراً لو اعتدلت أن لا تدفع بها ذلاً » فقابل بين حالين وزاوج بين الألفاظ والجمل ، فطابق بين معنى الطّمع والإعتدال وبين العزّ والذلّ ، وقابل بين حال الإنسان الناهض في سبيل العزّ وحال الإنسان الذي لا يحاول دفع الذّلّ ، وخلص إلى أنّ أسبابه لا تكفيه لدفع الذّلّ عنه ، فكيف يطلب بها عزّاً ؟ وللمبالغة في معناه وتجويد المأتى الذي أتاه ، أسند الفعل مجازاً للأطماع فجعلها إنساناً ، توهم النّاس ، وتدفعهم في هذا

= واجتمع النّاس عليه فقال لهم « إنّي اخاف أن يكون في أنفسكم منّي شيء ، فقال جماعة من شيعة مروان فقالوا : « واللّه لتقومنّ إلى المنبر أو لنضربنّ عنقك ، فصعد المنبر وبايعوه »
تاريخ اليعقوبي : ج 3 ، ص50

الإتّجـاه أو ذاك . ثم يصوّر حـالته وغفلتـه عن أمره فيقـول : « ومن رحل عن حسن النّظر واستوطنته الأماني ملك الحَيْن تصريفه واستترت عنه عواقب أمره ، وعن قليـل يتبيّن من سلك سبيلك ، ونهض بمثل أسبابـك ، أنّه أسيـر غفلة ، وصريـع خدع ، ومغيض نـدم » فقد جعل حسن النظر مكاناً ، يُؤتَى ويُـرَحل عنـه ، وهي عبارة لـطيفة تجسّـد المعنوي في صـورة ماديـة ، تتحرك وتنبض بـالحياة ، وكـذلك في قـولـه « استوطنته الأماني » فتشخيص الأماني وإعطاؤها الإرادة والقدرة في استيطان إنسـان معيّن حتّى لتصرفه عن الواقع ، وتغمض عينه عن الحقيقة ، فيحلم في يقظته بأشياء لا تنطبق على الواقع ، فيملكه الحَيْن ، لأنّ نـظرته لـلأشياء نـظرة ضبابيـة حالمـة ، يعوزها الوضوح في الرؤية ، ولتقـوية معنـاه وإبرازه سلكـه في صور مـاديّة متـلاحقة وسلخ عليهـا من آدميّته مـا جعلها تتحـرّك حركـة إنسـانيّـة « ملك الحَيْن تصـريفـه » « واستتـرت عنه عـواقب أمره » فغـدا « أسير غفلة ، وصـريـع خـدع ومغيض نـدم » فالغفلة مقاتل تقاتله وتأسره ، فلا يستطيـع منها هـروباً ، والخـدع فارس يصـارعه ، فيصرعه ، فيصبـح مجمّعاً للنّـدم ومسربـاً ينسرب فيـه ، لقد جسّـد النّدم وهـو معنى لحالة نفسيّة تلمّ بالإنسان فجعله كالماء الذي يجتمع في مغيض ويختفي في أعماقـه لقد تحوّلت اللفظة في نثر عبد الملك إلى صورة متكاملة زاهية حيناً وشاحبة كما في هذا النّصّ أحياناً بحسب الحاجة إليها ، لكنّهـا مناسبـة لمكانهـا في أيّ حال ، وإذا التفتنالألفاظ عبد الملك في رسالته وتأمّلناها ، لرأينـاهـا بعيدة عن البـداوة والحوشيـة فـلا لفظ يصعب التلّفظ فيه ، ولا لفظ يصعب معنـاه فينغلق على الأفهام ، وحـروف ألفاظه متساوية مع أصواتها وحركاتها ، منسجمـة فيما بينهـا ينظمهـا نغم خفيّ تحسّه النفس وتحسّ تنوّعه الغنيّ غِنَى الحياة . وعباراته رصينة مؤتلفة الألفاظ تتبع إيقاعـاً يعذب على النّفس ويأسر الأسماع ، وصوره تتعاقب متلوّنة نابضة بالحياة والحركـة ، فترهف الإحساس وتذكي الخيال والشّعور بالجمال .

2 ـ رسالته إلى أخيه بشر بن مروان بشأن الخوارج

« أمّـا بعد ، فـابعث من قبلك رجلاً شجـاعاً بصيـراً بالحـرب في أربعـة آلاف فارس ، فليسيروا إلى فارس في طلب المارقة ، فإنّ خالداً كتب إليّ يخبـرني أنّه قـد بعث في طلبهم داود بن قحذم ، فَمُرْ صاحبك الذي تبعث ألّا يخالف داود بن قحذم

إذا ما التقيا ، فإنّ اختلاف القوم بينهم عون لعدّوهم عليهم ، والسّلام عليك »[1] .

وهذه الرّسالة تختلف عن الرّسالة السّابقة إنشاءً وهدفاً ، فالرّسالة السّابقة قصد فيها عبد الملك التأثير في ذات عمرو بن سعيد وتصوير الوضع الخطر الذي وضع نفسه فيه ، وثنيه عن العصيان والتمرّد . أمّا رسالته لأخيه فلا تعدو والأمر والتوجيه في العمل ، فسلك أسلوباً مباشراً غايته بلوغ المعنى فحسب ، فغلب الإيجاز على أسلوبه ، وابتعد عن التشبيه ، والإستعارة والبديع وغيرها من المحسّنات اللفظية والمعنوية إلّا ما جاء عفواً دون قصد ، كتجنسه بين فارس وفارس .

وهذا لا يعني أنّ رسالته لعمرو أبلغ من رسالته لبشر ، مع أنّ رسالته لعمرو زاخرة بالصّور الفنّية الجماليّة ، ورسالته لبشر تعتمد أسلوباً مباشراً يبتعد عن التأنّق في اللفظ والترصيع في العبارة ، إلّا أنّه أسلوب فيه من الصفاء والروعة ما يؤثّر في النفس ، فالألفاظ متساوقة يأخذ بعضها برقاب البعض وتتّسق في بناء العبارة ، فتختال دون تعقيد في التركيب أو ركاكة وإسفاف ، وقاموسه الذي يختار منه ألفاظه ، قاموس عصري يبتعد عن الغريب ولا يؤخَذ في العاميّ من الألفاظ ، والمعاني تنثال انثيالاً فتقع على اللفظ المناسب ، فالتشاكل بين اللفظ ومعناه خاصة من خواص عبد الملك الأسلوبيّة .

3 ـ وعندما هُزِمَ أخو خالد بن عبد اللّه القسري في حروبه مع الأزارقة ، أرسل له عبد الملك الرّسالة التالية :

« أمّا بعد فإنّي كنت حدّدت لك حدّاً في أمر المهلّب ، فلمّا ملكت أمرك نبذت طاعتي واستبددت برأيك ، فوليت المهلّب الجباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبّح اللّه هذا رأياً ، أتبعث غلاماً غرّاً لم يجرّب الحروب ، وتترك سيّداً شجاعاً مدبّراً حازماً ، قد مارس الحروب ، تشغله بالجباية ؟ أمَا لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من مكيري ما لا بقيّة لك معه ، ولكن تذكّرت رحمتك ، فلفتني عنك ، وقد جعلت عقوبتك عزلك »[2] .

---

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص173

(2) الكامل في اللغة والادب : ج 2 ، ص218 ، وفي تاريخ الكامل تختلف الرسالة باللفظ وتتفق بالمعنى ولا ذكر فيها لعزل خالد .

لقد وبّخ عبد الملك خالداً في هذه الرّسالة على سؤ فعله ، بتولية أخيه حرب الأزارقة ، مع علمه بجهل أخيه في الحروب ، وتركه المهلّب وهو ما هو خبرة في الحروب ومقاساة لها فخالف بذلك تعليمات عبد الملك مخالفةً واضحةً ، مِمّا أحفظ عبد الملك عليه ، فأمر بعزله . وقد تدرّج بانفعاله ، فبدأ رسالته معاتباً لخالد على مخالفته أمره ، واستبداده برأيه ، ثمّ ما عتم أن تحوّل إلى توبيخه توبيخاً مريراً لسؤ فعله ، وأنهى رسالته بتوقيع العقوبة عليه بعزله .

واعتمد في أسلوبه الإيجاز والإقتصاد في ألفاظه دون أن تختلّ عباراته أو يلتوي معناه ، فلخّص بعبارة واحدة كلّ ما جرى بينهما بشأن المهلّب « فإنّي كنت حدّدت لك في أمر المهلّب حداً » ففي هذه العبارة القصيرة تذكير بتعليمات عبد الملك السّابقة التي تجاهلها خالد ، ولم يعمل بها . ولو أراد عبد الملك تفصيلها لطال بنا المقام ، لكنّه اكتفى بالإشارة واستعاض باللمحة الدّالّة عن الإطناب والتطويل ، فحرك في ذهن قارىء رسالته شريطاً من التوجيه والتعليمات كان قد زوّده بها ، فاكتسبت ألفاظه بذلك قوّة إيحائيّة تَعْبر النّفس وتمدّ ظلالها على الذاكرة فتنعشها. وبعد تذكيره بتعليماته السّابقة ذكر صنيع خالد وقد ملك أمره فقال : « فلمّا ملكت أمرك ، نبذت طاعتي واستبددت برأيك » فقد صوره بصورة الإنتهازي الذي يتظاهر بالطّاعة ويضمر خلافها فجاء بفعل نبذ ، والنّبذ يكون للتّرك والإهمال عن عداوة ، ولو استعمل فعل « ترك » لَمَا أفصح عمّا يدور في ذاته من معنى ، فالترك في بعض الأحيان محمود ، إنْ صدر عن حسن رأي وتبصّر ورويّة في الأمور .

فاختيار عبد الملك لألفاظه لم يكن صدفة ، ولم يلبس معانيه ما اتفق من الألفاظ ، إنّما كان يتنخّل ألفاظه ، فيأتي باللفظة التي لا تقوم مقامها لفظة من جنسها في موضعها . وألفاظه تكتسب دلالاتها من قدرته على خلق أبعادها النّفسيّة التي تصدر عن قلبه وعاطفته ، فتظهر فيها ملامح الحياة ، وتنطبع عليها ظلال نفسه الجيّاشة بالإنفعال . وبناء عبارته صادر عن ملكة أدبيّة ، غذّتها الموهبة ، وصقلتها الدّربة ، فآلفت بين الألفاظ وساوقت العبارات ، فلا نستطيع حذف لفظة أو جملة دون أن يختلّ المعنى وينقطع ، فتأمّل مقابلته حال من بعثه خالد على رأس الجيش ، ومن تركه لجباية الخراج في قوله « فوليت المهلّب الجباية ، ووليت أخاك

حرب الأزارقة ، فقبح اللّه هذا رأياً ، أتبعث غلاماً غرّاً لم يجرّب الحروب وتترك سيّداً شجاعاً مدبّراً حازماً ، قد مارس الحروب تشغله بالجباية ؟ » فقد أخبره بصنعه منكراً فعله ، مقابلاً صفات الرّجلين بصيغة الإستفهام الإنكاري ، ليظهر له خطأه وغفلته ، ثمّ أظهر عظم ذنبه وصغر عقوبته بقوله « أمّا لو كافأتك على قدر ذنبك ، لأتاكَ من نكيري ما لا بقيّة لك معه » فالذنب عظيم والعقوبة يجب ان تكون كذلك ، ولكنّ الرّحم تصرفه عن العقوبة فيجعلها عزله .

فانظر إلى لفظة النّكير وما توحيه من غيظ وإنكار لفعله وتعظيم لذنبه وما تضفيه على عبارته !

ثمّ انظر إلى قوله « ولكن تذكّرت رحمك ، فلفتني عنك وقد جعلت عقوبتك عزلك » لقد أظهر عزله عقاباً بسيطاً ، دفعه إليه رحم فتجاوز عن ذنبه العظيم وأسند فعل لفت إلى الرّحم مجازاً وجعل نفسه مفعولاً كذلك ، فأضفت هذه العلاقة على الجملة إيحاءً بوفاء عبد الملك ورحمته وتجاوزه عن الذنوب فالرّحم سبب في تلطيف العقوبة أو الإلتفات عنها ، لكنّ قدرة عبد الملك في تشخيص وتصوير العواطف والانفعالات الإنسانية جعلت صلة القرابة إنساناً يشفع في الذّنوب ، وهذا لا يتأتّى إلاّ لِمَنْ عانق اللغة معانقة حميمية فصدرت عن نفسه مشحونة بعواطفه وانفعالاته .

4 ـ رسالته لبشر من مروان

« وكتب إلى بشر بن مروان بعد أن ولّاه الكوفة : « أمّا بعد ، فإنكَ أخو أمير المؤمنين يجمعك وإيّاه مروان بن الحكم ، وأنّ خالداً لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أميّة ، فانظر المهلّب ، فولّه حرب الأزارقة ، فإنّه سيّد بطل مجرّب ، فأمدّه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل »[1] .

لم يهدأ انفعال عبد الملك بما فعله خالد ، وخشي أنْ يفعل بشر مثله فيبعد المهلّب عن حرب الأزارقة ، فكتب له ليولّي المهلّب قتالهم ، ويمدّه بثمانية آلاف رجل .

(1)الكامل في اللغة والادب : ج 2 ، ص218-219

وبدأ رسالته بإخبار بشر بما يعلمه من نسبه ونسب خالد ، فألمح بذلك لواجب الفطنة والحكمة في أخذ الأمور ، فمصلحة عبد الملك هي عين مصلحة بشر والخلافة فيهم ، وما يطلب من خالد في هذا المجال أقلّ مِمّا يطلب من بشر ، فخالد يعمل لغيره ، وبشر يعمل لنفسه ، والمصلحة تقضي أنْ يتولّى المهلّب قتال الخوارج لأنهّ قادر عليه مجرّب فيه . واكتفى بالإيحاء والتلميح في تحذيره من فعل خالد ، وحذره وحذوه .

وتبرّم بشر من ذلك وقال : « وللّه لأقتلنّه ، فقال له موسى بن نُصَير : إنّ للمهلّب حفاظاً وبلاءً ووفاءً »[1] فعلم المهلّب بالامر وتمارض ، فكتب بشر إلى أخيه يعلمه بالأمر ، وأوفد وفداً على رأسه عبد اللّه بن حكيم المجاشي ، فلمّا قرأ الكتاب ، خلا بعبد اللّه بن حكيم فقال له : « إنّ لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلّب قال : إنّه عليل ، قال ليست علّته بمانعته ، قال عبد الملك : أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد ، فكتبَ يعزم عليه أن يولّي المهلّب »[2] .

5 ـ رسالته لبشر بن مروان يعزم عليه بتولية المهلّب حرب الأزارقة

« أمّا بعد ، فابعث المهلّب في اهل مصره إلى الأزارقة ، ولينتخب من أهل مصيرة وجوههم ، وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم ، فإنّه أعرف بهم ، وخلّه ورأيه في الحرب ، فإنّي أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين ، وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً ، حسيباً ، صليباً ، يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ، ثم انهض إليهم أهل المصرين ، فليتبعوهم أنّى وجه ما توجّهوا حتّى يبيدهم اللّه ويستأصلهم ، والسلام »[3] . لقد خشي عبد الملك أنْ يسيء أخوه التّصرّف ، وأحسّ برغبته عن المهلّب ، فأرسل لبشر هذه الرّسالة التي تضمّنت ثلاثة أقسام :

الأوّل : أمره بتوليه المهلّب بن أبي صفرة حرب الأزارقة وتزويده من أجل ذلك بصلاحيّات واسعة ، حدّدها عبد الملك ، بأنْ أعطاه الحريّة في اختيار جنده

---

(1) المرجع نفسه : ج 2 ، ص219

(2) المرجع نفسه : ج2 ، ص219

(3) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص195-126

من أهل البصرة ، لأنّ المهلّب يعرف أهل مصره ، وأعطاه الحريّة في مباشرة الحرب والحركة فيها ، لثقته بخبرته وقوّة شكيمته ونصيحته للمسلمين .

والثّاني : ويتعلق بأهل الكوفة ، فترك لبشر حريّة اختيار القائد ، ولكنّه حدّد له من الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها ما حصر حريته باختيار رجل من بين عدد قليل من الرّجال ، إذ قال له : « وابعث عليهم رجلاً معروفاً ، شريفاً ، حسيباً ، صليباً ، يعرف بالبأس والنّجدة والتّجربة للحرب » وهذه صفات لا توجد في الكثير من الرّجال .

والثّالث : أمر بتعقّب الخوارج وأبادتهم .

والرّسالة من حيث هي أمر عسكري على قدر كبير من الأهمية ، تطلب الوضوح في المعاني ومباشرتها ، تخلّى فيها عبد الملك عن المقدمة التي جعلها في رسالته السّابقة ، واعتمد أسلوباً يعبّر بإيجاز عن قصده ومعانيه ، فابتعد عن تزويق ألفاظها وترصيع عباراتها وتنميقها وتجنّب فيها التصوير والأستعارة فاختار لها من الألفاظ ما تعبّر عن معانيها بدقة ، دون أن يتخلّى عن فصاحة اللفظة وجمال العبارة ورصانتها ، فحروف ألفاظه بعيدة المخارج متساوقة الحركات ، تتزاوج الحركة مع صوت الحرف في اللفظة فتحدث إيقاعاً وتنتظم اللفظة في العبارة فتولّد نغماً ، تشعره النّفس ، وتسلس عباراته في تسلسل يتدرّج بتدرّج المعنى ، فلا جملة في غير موقعها ولا لفظة شاذّة عن سياقها .

6 ـ كتب محمّد بن الحنفيّة الى عبد الملك : « إنّ الحجّاج قد قدم بلدنا ، وقد خفته ، فأحبّ أن لا تجعل له عَلَيَّ سلطاناً بيد ولا لسان ، فكتب عبد الملك إلى الحجّاج : « إنّ محمّد بن علي كتب إليّ يستعفيني منك وقد أخرجت يدك عنه ، فلم أجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان ، فلا تتعرّضْ له »[1] وكان في كتابه « جنّبني دماء بني عبد المطّلب ، فليس فيها شفاء من الحرب ، وإنّي رأيت بني حرب سُلِبُوا ملكهم لمّا قتلوا الحُسَين بن علي »[4] وقد علّق المسعودي على هذا

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص59

(2) العقد : ج 5 ، ص140-141 ، وفي مروج الذهب : ج 3 ، ص107 وما بعدها . اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى .

الخبر فقال : « فكـان الحجّاج يتجنّبهـا خوفـاً من زوال الحكم عنهم ، لا خوفـاً من الخالق عزّ وجلّ »[1] .

7 ـ وكتب عبد الملك كتاباً وجهّه لمحمّد بن علي جاء فيه « قد بلغني كتـابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التي معك ، فلك عهد اللّه وميثاقـه ، أنْ لا تهاج في سلطاننا ، غائباً ولا شاهداً ، ولا أحد من أصحابك ما وفوا ببَيْعَتِهم ، فإنْ أحببت المقام بالحجاز فأقم ، فلن ندع صلتك وبرّك ، وإنْ أحببت المقام عنـدنا فـاشخص إلينا ، فلن ندع مواساتك ، ولعمري لئن ألجأناك إلى الذهاب في الأرض خائفاً لقـد ظلمناك ، وقطعنا رحمك ، فاخرج إلى الحجّاج ، فبايع ، فإنّك أنت المحمود عندنا ديناً ورأياً ، وخير من ابن الزُّبير وأرضى وأتقى »[2] .

لقد بـذل عبد الملك الكثير من الجهد والكثير من الأموال والدّماء في قضـائه على ابن الزّبير ، والخوارج لم تزل تثير في وجهه الثّورات والفتن . فهل يتعمّد إثارة محمّد بن علي وشيعته ، ومحمّـد لا يطلب خـلافة أو يسعى لهـا ، وجلّ مـا يطلبـه الأمان له ولأصحابه وكفّ أذى الحجّاج عنهم ؟

إنّ عبد الملك بفطنته وحزمه وذكائه التفت للأمر ، فوجد أبناء علي لا يقيمـون على الهوان ، وأمثولة الحسين بن علي في كربـلاء لم تزل مـاثلة أمام عينيه . فرأى من الأجـدى والأحكم لـه كفّ أذى الحجّـاج عنهم ، وتـأمينهم ، فيسلس عليـه قيـادهم ، ويتّقي غضب اللّه النـاتـج عن ظلمهم . وقـد جـاء تـوقيعـه على رسـالـة الحجاج ـ وكان قد أغراه بهم[3] ـ يجمع الفكر والحكمـة والأناة في قـالب بلاغي ، جمع الإيجاز والإفصاح وجمال العبارة . وهي عبارة ، تمثّل مسلكاً من مسالك عبـد الملك في القول والعمل ، بثّهـا النّغم بثاً ، ينبعث من فـواصلها وجـرس حروفهـا ، والتجنيس فيهـا ، لم يكبّل المعنى ولم يقيّـد اللفظ ، إذ جاء رشيقـاً ينبىء عن ملكة بلاغيّة ثابتة دون تعمّل أو اصطناع .

أمّا رسالته لمحمّد بن علي ، فقد تضمّنت الأفكار التالية : بدأها بإشارة سريعة

---

(1) مروج الذهب : ج 3 ، ص107 وما بعدها .
(2) العقد : ج 5 ، ص 140-141
(3) العقد : ج 4 ، ص258

لكتاب بعثه ابن الحنفية إليه ـ وقد أشرنا له آنفـا ، وخلص من ذلك إلى العهـد الذي أعطاه ، فجعله عهداً من اللّه وميثاقاً له ولأصحابه أن لا يهاج شاهداً أو غائباً ولا أحد من أصحابه ما وفوا بعهدهم وبَيْعَتهم له . وتلطّف إليه ، فترك له حريّة المقام ودعـاه إلى زيارته ، ثمّ وصف نفسه بالـظلم إنْ قطع رحمـه أو ألجاه للذهـاب في الأرض . ودعاه إلى بَيْعَة الحجّاج وحرّضه على هذه البَيْعَة ، إذ فضّله على ابن الزّبيـر ومدحـه بحسن الدين والرأي ، فبرهن عن قدرة سياسية عظيمة ، وفطنة وذكاء إذ عرّض بـابن الزّبير وهو عالم بالمباغضـة بين ابن الحنفيّة وابن الـزّبير لعلّه يصيب هـوى في نفس ابن الحنفيّة .

وقد تجلّت بلاغة عبد الملك العفوية ومـا فُطِرَ عليـه من الفصاحـة والبيان مـع حبّ ظاهر للإيجاز واقتصاد الألفاظ وتقنينهـا دون إهمال الجـانب الجمالي في النّصّ أو الجانب المعنوي فاختار ألفاظه وواءمها فسهلت على اللسان وحسنت في الآذان ، فلا اللسان يتعثّـر بنطقهـا ولا الآذان تستشعر في أصـواتها نشـازاً بل تـآلفاً وتنـاغماً . واتّسقت ألفاظه في عباراته سلسة ، تتموّج بتموّجات الرّوح الإنسانية .

8 ـ و« كتب الحجّـاج إلى عبـد الملك بن مـروان يعـرّفـه آثـار عبـد اللّه بن الحجّـاج وبلاءه من محـاربته ، وأنّـه بلغة أنّـه (أي عبد الملك) أمّنـه ، ويحـرّضـه ويسأله أنْ يفده إليه ليتولّى قتله . . فكتب إليه عبد الملك :

» إنّي قـد عرفت من خبث عـد اللّه وفسقه ، مـا لا يزيـدني علماً بـه ، إلاّ أنّه اغتفلني متنكّراً ، فدخل داري ، وتحرّم بطعامي ، واستكسـاني ، فكسوتـه ثوبـاً من ثيابي ، وأعاذني ، فأعذته ، وفي دون هذا مـا حظر عَلَيّ دمـه ! وعبد اللّه أقـلّ وأذلّ من أنْ يوقع أمراً وينكث عهداً في قتله خوفاً من شـرّه ، فإنْ شكـر النعمة وأقـام على الطّاعة ، فـلا سبيل عليـه ، وإنْ كفر مـا أُوتِيَ ، وشاقّ اللّه ورسـوله وأوليـاءه ، فاللّه قاتله بسيف البغي الذي قُتل به نظراؤه ومَنْ أشدّ بأساً وشكيمـةً منه من الملحـدين ، فلا تعرض له ولا لأحد من أهله بسيئة إلاّ بخبر والسلام »[1] .

إنّ لدى عبد الملك قدرة عجيبة في تصوير معانيه وخلجات ضميره ، ساعدتـه

(1) الاغاني : ج 12 ، ص32

عليها بديهة صافية ، وسليقة لغوية لم تفسدها الحضارة والإختلاط بالأعاجم ، تظهر هذه القدرة في هذه الرّسالة التي كانت جواباً على رسالة الحجاج ، فأخبره بإيجاز عن علمه بفسق عبد اللّه وخبثه ، ثمّ وصف وفادة عبد اللّه عليه ، فلم تكن وفادة علنية قبلها عبد الملك أو رضي بها ، لكنّه اغتفله اغتفالا ، فتسلّل إلى داره متنكّراً ، فأكل طعامه واستكساه ، فكساه ، واستعاذ به ، فأعاذه ، وقتلُه بعد الذي حصل بجلب العار ولا يطفىء النّار .

ثمّ انتقل إلى وصف عبد اللّه ، فوصفه بالقلّة والذّلّة التي تمنعه أن ينكث عهداً ، وهو عالم أنّ الجزاءالقتل إن فعل . فإنْ ثابر على الطّاعة وشكر النعمة فقد سبق له الأمان ، أمّا إنْ كفر بالنعمة وجاهر بالعصيان ، فمصيره كمصير نظرائه ومن هم أشدّ بأساً منه وأحمى أنوفاً ، وقد أنهى رسالته بالعزم على الحجّاج أن لا يتعرّض لعبد اللّه أو لأحد من أهله إلّا بخبر ، لأنّه يعرف الحجّاج وكيده وشدّته على خصومه ، فقد لا يسلم عبد اللّه من شرّه إن لم يؤكد عليه عبد الملك ذلك .

أمّا من حيث الفن التعبيري فإنّ في هذا النّصّ سهولة في الألفاظ دون إسفاف ومشاكلة بينها وبين معانيها تزخر بالموسيقى الداخلية التي تسكر النفس بإيقاعها وحلاوة جرسها ، فمخارجها متباعدة لا يتعثّر اللسان في نطقها وعباراته متدرّجة في معانيها تتسلسل تسلسلا منطقياً وعبارته جزلة رصينة متماسكة . وقد أكثر في ألفاظه المقاطع الطويلة المفتوحة التي لم تأتِ عبثاً ، وإنّما لغاية فنيّة أصيلة تنبىء عن بلاغة كبيرة ومقدرة في امتلاك ناصية البيان ، وخاصة في القسم الذي يصف فيه وفادة عبد اللّه عليه ، فإنّ فيه سبعة عشر مقطعاً طويلاً مفتوحاً في أقلّ من عشرين لفظة ، وهذه الحركةالمحدودةتسمح بترجيع النّغم وترديده وتطريبه ، وكأنّ عبد الملك يأسف ويردّد أسفه في نفسه ، فينبعث من خلال ألفاظه للطريقة التي استأمن بها عبد اللّه ، فوجد أنّ إجارته وتأمينه ضرورة عرفية أخلاقية لا مجال للتخلّص منها . وقد أكثر من أفعال المطاوعة في هذا القسم ليظهر انفعاله وتأثّره من جهة المعنى ويظهر جمال اللفظ والتجنيس من ناحية اللفظ وجماله وحلاوة نغمه المترجّع في الأذن .

وهو إنْ أكثر من المقاطع الطويلة في القسم الأول من الرّسالة ، فقد أكثر من المقاطع القصيرة في القسم الأخير منها ، فظهر تناغم جرسها وائتلاف حروفها في

اللفظة وائتلاف الألفاظ بالعبارة ، فأشرك بذلك العقل والذّوق والأذن والحسّ الجمالي في تذوّق فنه واستشعار بلاغته .

ومِمّا يلفت النظر في القسم الثاني من رسالته ، وصف عبد الملك لعبد اللّه ، وقد خرج ، وأعلن عصيانه ، فصوّر الخروج على عبد الملك خروجاً عن الّدين ، ومشاقة للّه وللرّسول وأوليائه ، فهو وليّ اللّه ومن عانده كافر وملحد أثيم ! وهو معنى ردّده في خطبه، وتردّد في خطب غيره من خطباء عصره .

9 ـ وكتب في رسالة إلى الحجّاج : « إنّه ليس شيء من لذّة الدنيا إلّا قد أصبت منه ، ولم يكن عندي شيء ألذّه إلّا مناقلة الإخوان للحديث ، وقبلك عامر الشّعبي ، فابعث به إليّ يحدثني ، فدعا الحجّاج الشّعبي فجهزّه وبعث به إليه »[1] . وقد أشرنا سباقاً لهذه الرّسالة وما تمثّله من شغف عبد الملك بالعلم وجريه وراء الأدب .

ـ وقال الجاحظ : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أنْ يستخلف ورعاً وزهداً ، فجلس يوماً في خاصّته ، فقبض على لحيته ، فشمّها مليّاً ، ثم اجترّ نفسه ، ونفخ نفخةً أطالها ، ثم نظر في وجوه القوم فقال : ما أقول يوم ذي المسألة عن ابن أمّ الحجّاج ، وأدحض المحتّج على العليم بما طوته الحجب ؟ أمّا إنّ تمليكي له قرن بي لوعة يحشّها[2] التذكار، كيف وقد علمت ، فتعاميت ، وسمعت فتصاممت ، وحمله الكرام الكاتبون ! واللّه لكأنّي إلْف ذي الضّغن على نفسي ، وقد نعت الأيّام بتصرّفها أنفساً حقّ لها الوعيد بتصرّم الدّول ، وما أبقت الشّبهة للباقي متعلّقاً ، وما هو إلّا الفلّ الكامن من النّفس بحوبائها[3] !، والغيظ المندمل؟ اللّهّم أنت لي أوسع ، غير منتصر ولا معتذر . يا كاتب هات الدواة والقرطاس . فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه :

---

(1) الاغاني : ج 9 ، ص169.

(2) اوقدها وحركها ،هيجها .

(3) مؤنث احوب ، وهو الأثم وقد تأتي بمعنى النفس .

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

من عبد اللّه ، عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف : أمّا بعد ، فقد أصبحت بأمرك برماً ، يقعدني الإشفاق، ويقيمني الرّجاء ، وإذا عجزت في دار السّعة وتوسّط الملك وحين المهل واجتماع الفكر أنْ ألتمس العذر في أمرك ، فأنا لعمرو اللّه في دار الجزاء وعدم السّلطان واشتغال الحامّة والرّكون إلى الذّلّة من نفسي والتوقّع لما طُوِيَت عليه الصّحف أعجز ، وقد كنت أشركتك فيما طوّقني اللّه عزّ وجلّ حمله ولاث بحقوي من أمانته في هذا الخلق المرعيّ ، فدُللتَ منك على الحزم والجدّ في إماتة بدعة وإنعاش سنّة ، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها ، حتّى صرت حجّة الغائب ، وعذر اللاعن والشّاهد القائم !

فلعن اللّه أبا عَقيل وما نجل ، فالأم والد وأخبث نسل ، فلعمري ما ظلمكم الزّمان ، ولا قعدت بكم المراتب ، فقد ألبستكم ملبَسكم ، وأقعدتكم على روابي خُططكم ، وأحلّتكم أعلى مَنعتكم ، فمن حافر وناقل ومانح للقُلُب المُقْعدة في الفيافي المُتفيهقة ، ما تقدّم فيكم الإسلامُ ولقد تأخرتم ، وما الطّائف منّا ببعيد يُجهل أهله ، ثمّ قمت بنفسك وطمحت بهمّتك ، وسرّك انتضاء سيفك ، فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح ابن زنباع وشرطته، وأنت على معاونته يومئذ محسود ، فهفا أمير المؤمنين والّه يصلح بالتّوبة والغفران زلّته ، وكأنّي بك وكأنّ ما لو لم يكن لكان خيرا مِمّا كان ، كلّ ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين ، فصدعت صَفاتَنا ، وهتكت حجبنا ، وبسطت يديك تحفِن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة ، والأرحام الواشجة ، في أوعية ثقيف ، فاستغفر اللّه لذنب ماله عذر ، فلئن استقال أمير المؤمنين فيك الرأي ، فلقد جالت البصيرة في ثقيف بصالحِ النبيّ (صلعم) إذ ائتمنه على الصّدقات وكان عبده ، فهرب بها عنه ، وما هو إلاّ اختبار للثّقة والمطلب لمواضع الكفاية : فقعد فيه الرّجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له ، فكأنّ هذا ألبس أمير المؤمنين ثوب العزاء ، ونهض بعذره إلى استنشاق نسيم الرّوح ، فاعتزل عمل أمير المؤمنين واظعن باللعنة اللازمة ، والعقوبة الناهكة إنْ شاء اللّه ، إذا استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام »[1] .

(1) العقد الفريد : ج 5 ، ص 260-262

لحظة تأمّل وخشوع وصفاء ألمّت بعبد الملك ، فتذكّر ربّه ووعيده للظالمين ، وتفكّر في نفسه ، فيما له وما عليه ، فهاله أمره ، وخشي يوماً يزول عنه سلطانه ، وتضمحلّ قوّته ، فيتساوى بغيره من النّاس ، ويمثل مع مَنْ ظلمهم في محكمة إلهيّة عادلة . لقد عظم عليه أمره وما فعلت يداه ، ونظر إلى الحجّاج وقد علم شدّته وقسوته وانتهاكه لمحارم اللّه ، وعلم أنّه مسؤول عمّا صنعه ويصنعه الحجّاج ، لأنّه مَنْ ولّاه ووطّأه رقاب النّاس ! فهاج في داخله صراع عنيف ، الدين والدنيا اصطرعت في نفسه وتشابكت نوازع الخير مع نوازع الشرّ في قلبه ، وصراع هذا نوعه من المستحيل أن يكون وليد لحظته ، إنّما هو صراع مزمن عانته نفسه طويلاً ، فلم تستطع كبته ، فثار لعنةً على لسانه أصابت شآبيبها الحجّاج ، وفوّتت عليه لذّته في قهر العباد .

لقد تذكّر عبد الملك يوم الحشر يوم يسأل الإنسان عن ذنوبه وآثامه ، فماذا يقول عن الحجّاج ؟ وكيف يستطيع الدّفاع عن نفسه ؟ وصحفه منشورة بين يديه تحتوي كلّ صغيرة وكبيرة من ذنوبه ومساوئه ، فأمْر الحجّاج أعياه ، وتمليكه قرن به لوعة تضطرم في أحشائه ، كلّما تذكّره ،لأنّه مسؤول عنه وعن عمله ، ولأنّه رضي وتغاضى عن كلّ مساوئه وذنوبه ، فهل يرضى ويتغاضى الكرام الكاتبون يومَ الحساب ؟ إنّ لوعته ناتجة عن شعوره بهول ذلك اليوم ، حين يقف مَنْ ظُلِموا ، ويطالبون بحقوقهم ودمائهم ولا طاقة له بردّهم ، فلم تبق الشّبهة للباقي متعلّقاً ، ولا عذر يعتذر به أمام ربّه . فيتوسّل إلى خالقه آملاً برحمته ، ويقرّر بنفسه شيئاً ، فيستدعي كاتبه ، ويملي عليه رسالته إلى الحجّاج ، وهي إحدى رسالتين احتفظتا بالدّيباجة كاملة في أوّلهما ، وسائر أجزائهما .

وتخلّى عبد الملك عن لقب أمير المؤمنين في بداية رسالته ، واكتفى بلقب عبد اللّه ، وأبدى تبرّمه من سلوك الحجاج، وأظهر ذات نفسه ، وما يتشابك فيها من انفعالات ونوازع مختلفة ، فهو ضجر من الحجّاج ، متحيّر فيه ، يتركه شفقة عليه ، ويهمّ به رجاء عفو اللّه ورضوانه ، ويقابل حاله في الدنيا بحالته في الآخرة ، يقابل بين نقيضين : القوّة والضّعف ، الملك وعدم السلطان ، القدرة على اتّخاذ القرار والعجز عن صنعه . فإذا عجز أنْ يجد عذراً يقتنع به أو حجة يحتّج بها في توسّط

ملكـه واجتماع فكـره ومهله في أمـره ، فكيف يستـطيـع إيجـادهـا ـ وقـد سلب عـزّه وملكه ، وتملّكه الخوف والرّعب بما قدّمت يـداه ـ ويلتمس في الحجّاج عـذراً ؟ ثمّ تحـدّث عن سيرة الحجّـاج في ولايته ، فـإذا هي إنعاش بـدعة وإمـاتة سنّـة ، حتّى أصبح حجّة المنتقد ، وعذر اللاعن في كلّ مكان .

وانتقـل إلى مثالب الحجّـاج.فعدّدهـا ، وشتمه ، وعيّـره بأهله ومـا يمتهنون ، وتحدّث عن الحجّاج ونهضوضـه، وكيف اصـطنعه أميـر المؤمنين واختاره من أعـوان رَوْح بن زنباع ، فأخطأ في اخيـاره، وأظهر توبته ، لعلّ اللّه يغفر بالتوبـة الزّلَـة ، فلو لم يختره لكان أحسن وأفضـل ، لأنّه تجـاسر على مخـالفته ، وكـابر في معصيتـه ، فأطلق بذلك ألسنة النّاس في ذمّه وعيبـه ، لأنّه (أي الحجّـاج) اعتدى على حقـوق النّاس ، فاغتصبها وجعلها لنفسه ، ودعاه لاستغفار ربّه عن ذنب لا عذر له .

لئن أخطأ عبد الملك في اختياره للحجّاج ، فله أسوة بالنّبيّ صالح ، إذ اختار ثقيفـاً وكان عبـده ، فجعله على الصّدقـات ، فهـرب بهـا عنـه ، ولـم يكن ذلـك إلاّ لاختبار الثّقة ، فقعد فيه الـرّجاء ، كمـا قعد بعبـد الملك فيما نصب الحجّـاج له ، ولـم يخلص ثقيـف لنبي من أنبياء اللّه في أمانـة ائتمنه عليهـا ، فكيف يخلص حفيده لعبـد الملك ؟ إنّ في فعلة ثقيف مع النّبيّ صـالح عـزاء يتعزّى بـه عبـد الملك لمـا صنعه الحجّاج ، ويهمّ بعزله ، لكنّه لم يفعل ! فهل صدق عبد الملك في مشاعره ؟ وهل صدق بخشيته من اللّه بما تطويه الحجب من مظالمه وذنوبه ؟

إنّ البحث عن إيمان عبد الملك ودرجة تدنيه ، لا يهّمنا إلاّ بالقدر الذي تبوح بـه نصوصـه ، ولقد حـاول عبد الملك أنْ يـظهر من خـلالها بمـظهر المتـديّن الذي يخشى ربّه ، ويحرص على دينه ، لكنّه في الحقيقة لم يحرص إلاّ على ملكـه حتّى أيّامه الأخيرة . وما تديّنه الظاهر وحـرصه على انعـاش السنّة وإمـاتة البـدع إلاّ وسيلة يتـوسّل بهـا في ملكه ، فـالخلافـة منصب ديني وسياسي في الـوقت نفسـه ، وظهـور الخليفة بمظهر الغيور على الدّين ، والحامي لحقيقته من مستلزمات الخـلافة التي لا بدّ منها . فتوسّله بالدين إذاً ، مظهر من مظاهـر حبّ السّلطة ، وإقبالـه عليها ، ولـو كان ما أظهره من الجزع يعبّر عن حقيقة إيمان صادق ومتأصل في نفسه ، فما الـذي منعه من عزل الحجّاج وغيره من ولاته العتاة ؟

إنّ صراعاً كان ينشب في ذاته بين حين وآخر من غير شكّ ، لكنّ حبّ السلطة والنّـزعة للسّيـطرة كانت الأقـوى دائماً في سلوكـه ، والمسيطرة على نفسـه ، ورغبـة نفسّيـة أخـرى كـانت تلحّ عليـه في بعض الأحيـان ، ليـظهـر بمـظهــر النّـاقم على الحجّاج ، النّاقد لسلوكه وسيرته ، ولكنّ الحجّاج ما شأنه ؟ هـل خالف آراء خليفتـه أو عصاه في شأن من شؤونه ؟ التّأريخ لا يذكـر ذلك ، إنّمـا يذكـر أنّ الحجّاج كـان مخلصاً لعبد الملك شديد الإخلاص في محافظته على مصالح الخـلافة المـروانية ، يكتب لسيّـده في كلّ أمـر من أمور ولايتـه ، ويعمل بتعليمـاته ، صـرّح بذلـك عبـد الملك نفسه عندما قال : « لقد كنت أمشي في الزّرع فـأتقي الجنـدب أنْ أقتله وإنّ الحجّاج ليكتب إليّ في فئام من النّاس فما أحفـل بذلـك »[1] فتصرّف الحجّـاج لم يكن بمنأى عن عبد الملك وهو شريكه في المسؤوليّة .

ويظهر أنّ عبد الملك كان يرى الحجّاج وصعود نجمه واشتداد ساعده وجبروته فيشعر برغبة جامحـة لتوبيخـه وإظهار مقـدرته على عقـوبته وتهجين سيـاسته وتـأكيد سلطته عليه ، أمّا معاقبته أو عزلهُ ، فهو إنْ همَّ بها تراجع بأسـرع من البرق ، يـظهر ذلك في حديثه لأحد مواليه ويدعى نباتـة ، لمّا نـاوله الكتـاب لينقله إلى الحجّاج : « قال : يا نباتة ، العجـل ثم العجل ، حتّى تـأتي العراق ، فضـع الكتاب في يـد الحجّاج ، وترقّب ما يكون منه ، فإذا اختبل عند قـراءته واستيعـاب ما فيـه ، فاقلعـه عن عمله ، وانقلع معه حتّى تأتي به ، وهدّن النّاس حتّى يأتيهم أمري ، بما تصفني به في حين انقلاعك ، من حبي لهم والسّلامـة ! وإنْ هشّ للجواب ولم تكتنفـه أُرْبَة الحيرة ، فخذ منه ما يجيب به ، وأقرِرْه على عمله ، ثم عجّل عَلَيّ بجوابه »[2] .

لقد همّ بعزل الحجّاج وتخليص النّاس من أكبـر طواغيـه ، ولكنّه تـذكّر الحكم ومشاكله وتذكّر أهل العراق وتقلّبهم ، فرأى أنّه لا يقوم لهم ويخضد شوكتهم غيره ، فعدل عن العزل واستعاض عنه بالتوبيخ .

الرّسالة رسالة موجّهـة الى الحجّاج ، صـدرت عن قلبه ونفسـه وعاطفتـه ، لم يقصد من خلالها إلاّ التعبير عمّـا يعانيـه ، ومع هـذا ، فقد امتـازت بخصائص عبـد

---

(1) الحيوان : ج 5 ، ص59

(2) العقد : ج 5 ، ص262

الملك وطَبِعَتْ بأسلوبه المشرق الذي يغشى النّفس ، فتتفاعل معه ، وتتحدّ ذاتها بذاته وما يعانيه ، وأوّل ما يلفت النّظر في هذه الرّسالة بعض الألفاظ الحوشيّة المتنافرة الحروف، التي لا شكّ يعتبرها البلاغيون وأصحاب الفصاحة غير فصيحة مثل (لاث وحقو والمتفيهقة) فهل هذه الألفاظ في النّصّ كما وصفها البلاغيون ؟ لتمثّل فصاحة هذه الألفاظ او حوشيّتها لا بدّ من إثبات العبارة التي دخلت هذه اللفظة أو تلك في بنيتها ، فنتأملها ونصدر حكما من خلال تفحّص دقيق لها ، لقد جاء في النّصّ ما يلي : « ولاث بحقوى من أمانته في هذا الخلق المرعيّ » « فمن حافر وناقل ومانح للقُلُب المعقّدة في الفيافي المتفيهقة » إنّ الفصاحة تبدو من خلال هذه العبارات والألفاظ في أرفع مستوياتها ، ولم تكن لولا حوشيّة هذه الألفاظ وتنافر حروفها !

إنّ فعل لاث يعبّر في كلّ معانيه عن الإحاطة بالشيء ولفّه والتلبّس به ، والحقو تعني الخصر أو الإزار ، فاستطاع بهذه العبارة القصيرة إيجاد تشبيه متعدّد الجوانب وجسّد معنى ذهنياً في صورة ماديّة ، عرفها العربي واعتاد على رؤيتها ، فشبّه الأمانة بالشّملة وقد لُفّت على خصره . وأمّا جملته فقد وصف بها قوماً متبدين ، يمارسون أعمالاً شاقّة في فيافي الصّحارى ، فهل أفصح وأبلغ في التعبير من وصف النّاس بألفاظ ألفوها وتمثّل بيئة اعتادوها ؟ وكيف يصف حوشيَّ النّاس بغير الحوشيّ من الألفاظ ، وإنْ أراد التعبير حقارة أصولهم وضآلة حظوظهم من المجد والحضارة ؟

ثمّ انظر القاف وقلقلتها وترديدها في القُلُب والمعقّدة والمتفيهقة والتاء والفاء وما توحيه من التّفشّي والخبط في الصّحراء ،فتجد أنّ هذه الكلمات عبّرت بأصواتها عن معانيها ، فاختيارها لم يكن عبثاً أو صدفة إنّما قصده قصداً فأظهر براعة في التعبير وتمثّل الألفاظ واختيارها لتعبّر عن معانٍ بعينها تعجز ألفاظ أخرى من تأديتها .

وإذا تركنا الألفاظ واختيارها وتأمّلنا العبارة عنده ، لوجدنا فيها من أسرار البلاغة ما ينبيء عن عبقريّة وسليقة امتلكت ناصية البيان ، وقدرة فذّة في توزيع الفواصل الصوتيّة ، وبثّ الصور الإيحائيّة والماديّة بما يخدم غرضه ويقرّب غايته ويساعد على فهم ما يعانيه وتمثّله ، فتصوّرْ حالةَ الإنسان النفسيّة ، وقد استبدّ به

القلق وأضجرته الحيرة ، وكيف تظهر على شكل حركات انفعالية . وتأمّلْ عبد الملك وقد استبدت به تلك الحالة ، فصوّرها تصويراً لطيفاً ، وجزاً بقوله « يقعدني الإشفاق ، ويقيمني الرّجاء » فأبرز حالةً نفسيّةً عانى منها من خلال مظهرها الخارجي المادي ، وأسند الفعل قعد إلى الإشفاق وقام إلى الرّجاء مجازاً وجعل نفسه مفعولاً ، فنسب الفعل إلى سببه ، فاستفاد التشخيص وإيحاءه وظهرت بلاغة عباراته ، أمّا لو قال ما أراد على وجه الحقيقة فغيّر نظم الكلام واستعاض بالحقيقة عن المجاز في إسناده لأفعاله لتحوّل كلامه إلى كلام عادي ، يفهمه العقل من غير شكٍّ ولكنّه يفقد بلاغته وجماله وقوّة إيحائه .

وأمّا قدرته على المقابلة ، فتظهر بمقابلة حال الدّنيا بحال الآخرة ، فقد جعل دار السّعة ، بإزاء دار الجزاء وتوسّط الملك مقابل عدم السلطان ، وحين المهل واجتماع الفكر مقابل اشتغال الحامّة والرّكون إلى الذّلّة مبرّراً بذلك نقمته على الحجّاج . والبدعة والسّنة معان ذهنية لا تموت ولا تحيا على وجه الحقيقة ، إنّما الإنسان هو السبب في انتشار البدعة أو محقها ، ولكنّ عبد الملك انتقل من الأسباب إلى النّتائج فشخّص هذه المعاني وسلخ عليها شيئاً من روحه وذاته ، فجعلها موجودات حيّة تنتعش وتموت ، مستعيناً بالمجاز وإيحائه ليسقط في يد الحجّاج ، فيستشعر ذنبه وتقصيره بواجبه .

وقد حفلت رسالته بأنواع الفنون البلاغيّة من تشبيه واستعارة ومجاز ، لكنّه لم يظهر التكلّف عليها بل ساعدت في إبراز جمالها . ولإمعانه في ذمّ الحجّاج وتوبيخه ، وتبصيره بعاقبة أمره تمثّل بقصّة النبيّ صالح مع ثقيف ، الجدّ الأعلى للحجّاج وتأسّى بها ، فترك الحجّاج أسير شعور بالذّلّة والحقارة في الأصل والمنبت .

وعمد إلى رسالته فرصّعها بأنواع البديع كالطّباق ، ولمح علاقة الأضداد بعضها ببعض وقدرتها على توضيح الصّورة ، وتحريك الذّهن فطابق بين (يقعدني ، ويقيمني) وفي مقابلته الدنيابالآخرة ،طابق بالألفاظ وطابق بين الصّورتين في نفس الوقت . وكذلك بين إماتة وإنعاش وبدعة وسنّة ، وقعدت ونهضت ، والقائم والغائب والتوبة والذّلّة ، وطابق سلباً في قوله وكأنّ ما لو لم يكن

لكـان خيراً ممّـا كـان » . ووشّـاها بـالجناس (ألبستكم ملبسكم الـخ) وعمـد الى العبـارات فأحسن فـواصلها ، وبثّهـا نغمـاً خـارجيـاً في تقصيـره للجمـل وفي بعض الأسجاع والتآلف في قوافي بعضها ، ونغماً داخلياً موحياً تستريح النّفس على إيقـاعه الغني غنى الحياة . « فدُللت منك على الجدّ والحزم في إماتة بدعة وإنعاش سنّـة ، فقعدت عن تلك ، ونهضت بما عاندها ، حتّى صرت حجّة الغائب ، وعـذر اللاعن والشـاهد القـائم » « فلعن اللّه أبا عَقيـل وما نجـل ، فالأم والـد وأخبث نسل الـخ » فقصّـر عباراتـه وقنّن ألفاظهـا وأحسن إيقاعهـا وأجراس أصـواتهـا ، فعبـر بـالصّـوت والصّورة ، والحركة الذهنية عن معانيه وانفعالاته ، فهو لا يتكلّم كلاماً عـادياً ، إنّمـا يبثّها بثّاً ، فتشترك الحواس جميعاً في تذوّقها وفهم معانيها .

10 ـ « خرجت خارجة على الحجّاج بن يوسف ، فأرسـل إلى أنس بن مالـك أنْ يخرج معه ، فأبى ، فكتب أليه يشتمه ، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان ، يشكوه ، وأدرج كتاب الحجّاج في جوف كتابه ، قال إسماعيل بن عبد اللّه بن أبي المهاجر : بعث إليّ عبـد الملك بن مروان في سـاعة لم يكن يبعث إليّ في مثلها ، فدخلت عليه، وهو أشدّ ما يكون حنقاً وغيظاً ، فقال : يا إسماعيل : ما أشدّ عَلَيّ أنْ تقـول الرّعيّـة : ضعف أمير المؤمنين : وضـاق ذرعه في رجـل من أصحاب النبيّ (صلعم) لا يقبـل له حسنـة ، ولا يتجاوز لـه عن سيّئة ، فقلت : ومـا ذاك يا أميـر المؤمنين ؟ قال : أنس ابن مـالك : خـادم رسـول اللّه ؛(صلعم) كتب إليّ أنّ الحجاج قد أضرّ به وأساء جواره . وقـد كتبت في ذلك كتـابين ، كتابـاً إلى أنس بن مـالك ، والآخـر إلى الحجّـاج ، فـاقبضهمـا ثمّ اخـرج على البـريـد ، فـإذا وردت العراق ، فابدأ بأنس بن مالك ، فادفع له كتابي ، وقل له : اشتدّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجّاج إليك ، ولن يأتي إليك أمر تكرهه إنْ شاء اللّه ، ثم ائت الحجّاج فادفع إليه كتابيّ ، وقل له : قد اعتذرت بأمير المؤمنين غرّة لا أظنّه يخـطئك شـرّها . ثم افهم مـا يتكلّم بـه ومـا يكـون منـه ، حتّى تفهمني إيّـاه إذا قـدمت عَلَيّ إن شـاء اللّه »[1] .

وكان نصُ رسالته بما يلي : « بسم اللّه الرحمـن الرحيـم ، من عبـد اللّه ،

---

(1) البيان والتبيين : ج 1 ، ص ، ص386 ، العقد الفريد : ج 5 ، ص271 وما بعدها .

عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف ، أمّا بعد ، فإنّك عبد طمت بك الأمور فطغيت ، وعلوت فيها حتّى جزت قدرك ، وعدوت طورك ، وأيم اللّه يا ابن المستفرمة بعَجم زبيب الطائف ، لأغمزّنك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولأركضنّك ركضة تدخل منها في وجعاء أمّك ، اذكر مكاسب آبائك بالطائف ، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ، ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم ، فقد نسيت ما كنت عليه ، أنت وآباؤك من الدّناءة واللؤم والضّراعة ، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أُنس بن مالك خادم رسول اللّه (صلعم) جرأة منك على أمير المؤمنين ، وغِرّة بمعرفة غِيَره ونقماته وسطوته على من خالف سبيله ، وعمد إلى غير محبّته ، ونزل عند سخطته ، وأظنّك أردت أن تروزه بها ، لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها ، فإنْ سُوِّغتها مضيت قدماً ، وإنْ بُغِّضتها وليت دُبراً ، فعليك لعنة اللّه من عبد أُخيفش العينين ، أصكّ الرّجلين ، ممسوخ الجاعرتين ، وايم اللهّ لو انّ أمير المؤمنين علم أنّك اجترمت جرماً وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من سبحك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك ، فيحكم بما أحبّ ، ولن يخفى على أمير المؤمنين نبوءك ، ولكلّ نبأ مستقرّ وسوف تعلمون »[1] .

لقد صرّح عبد الملك منذ البداية بالدّافع الذي جعله ينتصر لأنس بن مالك ، فابن مالك بِمَا لَهُ من سابق الفضل في خدمة الرّسول الكريم ، يتمتّع بمنزلة عالية عند المسلمين ، والإساءة له ، تحرّك قطاعاً واسعاً من المؤمنين ، وتثير غضبه في أوساط الرأي العام ، قد تنعكس على النّظام العام ، وتساعد على الأضطراب ، وزعزعة الثّقة بالحكم والأسس التي يقوم عليها فغضبة عبد الملك على الحجّاج لها ما يبرّرها في نهجه السياسي . لقد اعتبر أنّ الحجّاج بإساءته لابن مالك ، إنّما يقدّم خدمة مجانيّة للمعارضة ، وحجّة يحتجّون بها ، ويستخدمونها في سبيل الإنقضاض على الخلافة الأمويّة . فرسالته إلى الحجّاج تهدف لإصلاح الخطأ الذي ارتكبه

(1)البيان والتبيين . ج 1 ، ص386 ، العقد الفريد : ج 5 . ص 272-274 وانظر البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها . وهذه الرسالة مؤخوذة من العقد وقد اورد الجاحظ منها في البيان والتبيين فقرة وفيها جملة غير موجودة في النص المثبت وهي « والله لقد هممت أن أركلك ركلة تهوى بها في نار جهنم وابن كثير اشار الى الرسالة اشارة ولم يثبتها .

الحجّاج ، فلا يشاع في أوساط النّاس والرّسالة تجري مجرى الرّسالة السابقة في شدّتها وقساوة معانيها التي وسم الحجّاج بها ، وهي الثّانية من حيث احتفاظها بجميع أجزائها ، من البسملة في أوّلها حتّى نهايتها ، استهلّها عبد الملك بمقدمة صوّرت الحجّاج وطغيانه واعتداده بجبروته ، واغتراره بنفسه حتّى تجاوز صلاحيّاته ، وهدّده وتوعدّه ، وأقسم باللّه لينتقمنّ منه ، وشتمه وشتم أمّه ، وعدّد مثالب قومه ، وعيّره بهم ، وأرجعهم إلى أصلهم الهيّن الخبيث وخلص من مقدّمته إلى غرضه في كتابه ، فذكر إساءة الحجّاج لابن مالك، فاعتبرها إساءةً شخصيّة له ، اجترأ عليها الحجّاج خبثاً وتطاولاً ليرى ردّة فعله ، فإنْ تغاضَ عنها تطاول إلى غيرها ، وإنْ استكبرها ، وهمّ بإنزال عقوبته ، اعتذر الحجّاج وتراجع ، ثمّ لعنه وهجاه وجعل منه رسما كاريكاتوريّاً مضحكاً من خلال النعوت التي نعته بها .

ثمّ حذّره من مغبّة انتقامه من أنس بن مالك إنْ حاول ذلك وهدّده وتوعّده بالقود منه ، وتحكيم ابن مالك فيه بما يحبّ ، ثم ختم رسالته فتمثّل آياً من القرآن الكريم « وِلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

إنّ بين الرّسالة التي نحن بصددها والرّسالة السابقة تشابهاً إلى حدّ ما في النّهج والمعاني فضلاً عن الأسلوب المتّبع في كلا الرّسالتين ، فقد صبّ جامّ غضبه على الحجّاج وهدّده وعدّد مثالب قومه وحقّر شأنهم ، وتمثّل في الأولى بحكاية النبي صالح وفي الثّانية بآية من القرآن ، والأسباب التي دفعته لكتابة رسالتيه متشابهة ، وإنْ كانت في الأولى أعمّ وفي الثّانية أخص فانتقد في الاولى سيرة الحجّاج بشكل عام وهمّ بعزله ، وفي الثّانية انتقدها عموماً وعرّج الى سلوك معيّن فضخمّه وجعله سبباً أكثر لنقمته ، فوبّخه عليه ، وهجّن رأيه ، إلاّ أنّ انفعاله في الرّسالة الثّانية أشدّ ، وبصمات غضبه أكثر وضوحاً ، يبدو ذلك من خلال الشّتائم التي كالها في رسالته ، والألفاظ التي أظنّه يأنف عن التلفّظ بها في حالات أقلّ غضباً وانفعالاً ، كخطابه للحجاج بقوله : « وايم اللّه ، يا ابن المستفرمة بعَجم زبيب الطائف » وقوله · « ولأركضنّك ركضةً تدخل منها في وجعاء أمّك » فهذه العبارات والألفاظ ان دلّت، فإنّها تدلّ على القيظ الذي يضطرم في صدره، والغضب الذي يتأجّج في أعماق نفسه !لكن ما يدعو للعجب والحيرة حقّاً ، هو إنْ كان عبد الملك يمقت

الحجّاج كلّ هذا المقت ، ويحقد عليه كلّ هـذا الحقد ، فمـا الذي منعـه من عزلـه واستبداله بسواه ؟

إنّ عبد الملك ما انفكّ يحقّر الحجّاج ، ويتلو عليه سيرة قبيلته بالطّائف قبل الإسلام وبعده تحقيراً لشأنه وتصغيراً لهمّته وقدره ، يكيل له الشّتائم والوعيد ، ومع ذلك يبق الحجّاج والياً للعراق وما يليه من بلاد فارس ، يزداد نجمه سطوعاً ولمعاناً ، ويزداد هو تفانياً وخدمةً وإخلاصاً لخليفته وولاءً !

وأسلوبه الفنّي في هذه الرّسالة لا يختلف عن أسلوبه بشكل عام ويتطابق مع أسلوبه في الرّسالة السّابقة ، فمقلع ألفاظه واستعاراته ومعانيه واحدة كتشبيهه الطّريف في قوله : « لأغمزنّك كبعض غمزات الليوث للثعالب » فشبّه نفسه بالأسد وشبّه الحجّاج بالثعلب وانتزع وجه الشبه من متعدّد ، فمثلت أمامنا صورة متكاملة تنبض بالحياة والحركة ، وتتجسّد فيها القوّة كأشدّ ما تكون ، والضعف الذي يمازجه المكر والحيلة والجبن ، في معركة معروفة النتائج يسيطر فيها الهول والرّعب على مخلوق ضعيف حقير جبان ، فيهرب هلعاً ، يبحث عن مأوى في المطلق يأوي إليه .

والصورة الفذّة الطّريفة التي رسمها في قوله « فعليك لعنة اللّه ، من عبد أخيفش العينين ، أصك الرجلين ، ممسوخ الجاعرتين » فتخلى فيها عن وسائل التصوير كالتشبيه والإستعارة والمجاز وعمد إلى بعض عيوبه فضخّمها ، وآلف بينها ، فاستوت رسماً كاريكاتورياً ، يمثّل إنساناً مشوّهاً ، تثير صورته الغرابة والضحك .

وإنهاء رسالته بآية من القرآن، تثير النّفس بما ينتظرها ، وتوحي بهيبة المقام وجديّة الأمر ، فانتخابه لهذه الآية ، يمثّل فهماً للقرآن الكريم وحفظاً لآية وبراعة في انتخاب ما يناسبه من جواهره وبدائعه .

11 ـ وكتب الحجّاج إليه كتاباً يذكر فيه عُروة بن الزّبير ويتهمه ، ويطلب منه إيفاده عليه ليستردّ الأموال منه فردّ على كتابه بكتاب جاء فيه : « أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك ، خابطاً في السّياسة خبط عشواء الليل ، فإنّ رأيك الذي يسوّل لك أنّ النّاس عبيد العصا هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب

عليك ،واذا أحرجت العامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة ، ثمّ لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى منك أنوفاً ، وأقرب إلى عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، وللشدّ واللين أهلون ، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة، والسّلام»[1].

خفّت حدّة عبد الملك ، وهدأ غضبه في هذه الرّسالة ، فاختفى تهديده ووعيده ، وذمّه للحجّاج وشتمه ، وأصبح واثقاً من نصيحته ، لكنّه ناقش آراءه ، ففنّدها ، وردّها ، وتحوّل إلى معلّم يعلّمه أصول الحكم ومبادىء السّياسة ، فالحجّاج يخبط في سياسته كما تخبط النّاقة العشاوء في الليل البهيم ، لماذا ؟ لأنّ رأي الحجّاج هو الشدّة وأنّ النّاس عبيد العصا ، فردّ عبد الملك هذا الرأي وجعله سبباً لثورة وجوه النّاس عليه لأنّه أذلّهم ، فتحيّنوا به الفرص للوثوب عليه ، وأخذ العامة بالعنف والشدّة ، يجعلهم يحقدون عليه ، وينتظرون الفرص للثورة به مع من يدعوهم لذلك دون تمحيص أو امتناع فهم في هذه الحالة لا يهمّهم ضلالةُ ولا يعنيهم هداه ، غايتهم الثأر من الحجّاج والاقتصاص منه .

ثم يقابله بولاة العراق قبله ، فوصفهم بأنّهم كانوا أحمى أنوفاً وأقرب إلى عمياء الجاهلية ، وما تمثّله من عصبيّات وأضغان ، ومع هذا كانوا أصلح منه عليهم وأسمح ، فللشدّ أهله ، وللين أهله ، ثمّ ختم رسالته بدعوة للتوسّع بالعفو وقلّة الإفراط في معاقبة النّاس تأليفاً لقلوبهم .

لم تختلف هذه الرّسالة بنهجها ومعانيها فحسب عن سابقاتها من الرّسائل الموجّهة للحجّاج ، وإنّما اختلفت أيضاً بألفاظها وفواصلها ، وما تبثّه من موسيقى وإيقاع . إنّ من يقرأ رسالته للحجّاج بشأن أنس بن مالك ، ثم يقرأ هذه الرّسالة يحس الفرق في انشائه وموسيقاه التي تنبعث من ثنايا الحرف واللفظة، فالموسيقى في رسالته السّابقة موسيقى عسكرية ، كثيرة الضّجّة تنذر بالحرب ووقوع الويلات ، والإيقاع حربي يثير الرّهبة في النّفس ، ويجعلها تتوقّع الإنتقام والفناء ، بينما هي في هذا النّصّ توحي بالسلام والمهادنة والموادعة ، لا يسمع فيها صليل السّيوف

(1) العقد الفريد : ج 5 ، ص278-279

ووقع سنابك الخيل ، فالألفاظ لهـا شأنهـا في أسلوب عبد الملك ، ولهـا أهميّتها ، ولمعاني الشدّة والانتقام ألفاظ ولمعاني المهادنة والموادعة ألفاظ ، للحقد والكراهية ألفـاظ وللحبّ والسّـلام ألفـاظ ، ألفـاظ تعبّـر عن الإنفعـال وأخـرى عن الهـدوء والصّفاء ، وبلاغة عبد الملك وعبقريته في اختيار ألفاظه ، وتوقيع موسيقاه ، وإشراك العاطفة والعقل والخيال والحواس جميعاً في عملية التواصل الأدبي في خطة محكمة تؤدّي للتأثير على سامع كلامه أو قارئه .

وهو في سبيل ذلك يقتنص الصّورة التي تجسّد معناه وتشخّصه ، فتعطيه روحاً تحرّكه ، وتجعل فيه الحيـاة نا ضـة ، لقد رأى الحجّـاج وتخليطه بـالسياسـة ، فشبّه سياسته المضطربة بتخبّط ناقة عشواء في الليل ، فهذه النّاقـة تسير على غيـر هدى ، دون دليل لا تعلم اين تضع خفّها ، ولا أين تقودهـا قوائمهـا ، فشبّه خـطط الحجّاج السيـاسية بهـا ، فوضحت صـورتها وبـان فسادهـا بهذه الصّـورة التي للنّاقـة ، وهذا الإطار الذي يمثّل الليل وعدم وضوح الـرؤية ، ثم بـدأ بتنفنيد رأيـه ، وتعليل خـطأه وبرهن على ذلك بنتائجه ، وقـابل الحجّـاج بمَنْ سبقه من الـولاة ، فكنّى عن الإباء والمـروءة والشمم بقولـه : أحمى منك أنـوفاً ، وبعميـاء الجاهليـة عن شدّة تعصّبهم ونزقهم في علاقاتهم البدوية القائمة على الثأر والإنتقام والقبلية !

ومن بديع مجازه الذي وشّى به رسالته قوله : « إنّ النّاس عبيد العصا » فأضاف لفظة عبيد للعصا مجازا ، والعصا مظهر من مظاهـر القوّة ، والقـوّة سبب في استعباد الضّعفـاء ، وهي لا تستعبدهم على وجـه الحقيقة ، إنّمـا الإنسان القـوّي هو الـذي يطمح لذلك ، واتخذ من الطّباق وسيلة بيانية تساعـد على الإيضاح ، وتـزيد المعنى قـوّة واللفظ جمالاًفـطابق بين الضّلال والهـدى مستفيداً من التنـاقض بين المعنيين ، ليعبّر عن حالة نفسية جماعية تستبد بالعامة إذا أحسّت بالاستبداد والـظلم ، وكذلـك طابق بين الشدّ واللين ، وبين العفو والعقوبة .

12 ـ كتب عبـد الرحمٰن بن محمّـد بن الأشعث في وقت خروجـه كتابـاً إلى الحجّاج جاء فيه : « أمّا بعد فإنّ مثلي ومثلك ما قال القائل :

سـائـل مجـاور جَـرْمٍ هـل جنيت لهـا   حـربـاً تفـرّق بين الجيـرة الغلطِ[1]

[1] في الاغاني رواية اخرى : حربا تزيل : وكذلك في الكامل في اللغة والادب .

ام هــل دلـفـت بـجـرّار لــه لَـجَـبٌ   يغشى الأمـاعيز بين الهسـل والفُرُطِ[1]

. . . هـذا مثلي ومثلك فسأحملك على أصعبـه وأريحك من مـركبـه ، فكتب الحجّـاج بذلـك إلى عبد الملك ، فكتب إليـه جوابـه : أمّا بعـد ، فـإنّي أجبتعدو الرحمٰن بلا حول ولا قوّة إلاّ باللّه ، ولعمر اللّه لقد صدق ، وخلع سلطان اللّه بيمينه وطاعته بشماله ، وخرج من الدين عرياناً كما ولدته أمّه . . . وعلى أنّ مثلي ومثله ما قال الآخر :

أنــاةً وحـلمــاً وانـتــظاراً بـكـم غــداً   فمـا أنـا بـالـواني ولا الضَّـرَع الغِمُـرْ
أظُنُّ صــروف الـدّهــر والجهــل منهم   ستحملهم مني على مـركـب وعـر[2]

فليت شعري أسما عدو الرحمٰن لدعائم دين اللّه يهدمها ، أمْ رام الخلافـة أنْ ينالها وأوشك بأنْ يوهن اللّه شوكتـه ، فاستعن بـاللّه ، وأعلم أنّ اللّه مع الـذين اتقوا والذين هم محسنون »[3] .

لقـد ردّ عبد الملك على ابن الأشعث ، فـأحسن الجـواب ، وتكلّم ، فـأجـاد

---

(1) الشطر الاول فيه ثلاث روايات في الاغاني : ام هل دلفت ، ام هل سموت ، ام هل علوت ، وفي الكامل : أسموت ، والشطر الثـاني فيه ثـلاث روايات في الاغـاني : يغشى الاماعيـز ، يغشى المخارم جم الصواهل ، ورواية الكامل تتفق مع الروايـة الاخيرة . والسهـل والفـرط مـوضعان بأعيانهما ، الفرط آكام شبيهٰات بالجبال .

(2) رواية هذا البيت في الكامل . اظن خطوب الدهر . الشعر الذي تمثل به ابن الاشعث لوعلة الجرمي والذي تمثل به عبد الملك لابنه الحارث بن وعلة :

(3) الاغاني : ج 19 ، ص140 والكامل للمبرد ذكر ان رسالة عبد الرحمن فيها سطور اربعة يقول فيها :

سـائل مجـاور جـرم هـل جنيت لهـا   حـربـاً تــزيّـل بين الجيــرة الخلـطِ
وهــل سمــوت بجــرّار لــه لـجب   جمّ الصــواهـل بين الجمّ والفُــرُطِ
وهـل تـركت نســاء الحي ضـاحيــة   في سـاحة الـدار يستـوقـدن بـالغُبُطِ
قتــل الملوك وصــار تحت لــوائــه   شــجـر الـعــرى وعراعر الأقــوام

فكتب إليه عبد الملك كتاباً (يعني للحجّاج)وجعل في طيّة جواباً لابن الأشعث :

مــا بـال من أسعى لأجبـر عـظمــه   حفـاظاً وينـوى من سفـاهتـه كسـرى
أظنّ خــطوب الـدّهــر بيني وبينهم   ستحملهـم منى على مـركب وعــر
وإنّـي وإيّـاهـم كـمن نـبّــه الـقــطا   ولـو لم تنبّه بـاتت الـطير لا تسـرى
أنــاة وحـلمــاً وانتــظاراً بـهم غــداً   فمـا أنا بـالواني ولا الضَـرَع الغمـر»

(الكامل في اللغة والادب : ج 1 ، ص160-161

الخطاب ، فلم يتهدّد ويتوعدّ وإنما استعان باللّه ، فلا حول ولا قوة إلاّ بـه ، وصدّق ابن الأشعث وأخرجه عن سلطان اللّه وطاعته ، وكفّـره بدينـه ، وتمثّل بشعـر يناقض الشّعر الذي تمثّل به ابن الأشعث ، فنّم عن حكمة ورؤية وحزم .

ثمّ تساءل عن غاية عبد الرحمٰن : أهي طموح لتحـريف الإسلام وهـدمه ؟ أم طمع بالخلافة ونوالها ؟ وتحدّث عن ضعفه وقرب قضاء اللّه عليه ، وأوصى الحجّاج بالإستعانة باللّه ، ودعا للتّقوى ، فإنّ اللّه مع الـذين اتّقوا والـذين هم محسنون . إنّ ثورة ابن الأشعث اندلعت في السّنـوات الأخيرة من عمـر عبد الملك ، عنـدما رغب عن سفك الدّمـاء والبطش ، فحـاول إخمادهـا دون إزهاق الأرواح وإراقـة الدّمـاء ، وحاول استرضاء أهل العراق بعزل الحجّاج عنهم ، ولكنّ أهل العراق رفضوا ذلك ، وأصروا على متابعة القتال حتّى كان من ثورتهم ما كان[1] .

من هـذه الزاويـة يمكننـا فهم تصـرّف عبـد الملك ، وعـدولـه عن دقّ طبـول الحرب في رسالته بشكل يظهر تعطّشه لسفـك الدّمـاء ومحق ابن الأشعث وأنصاره ، ان بصر عبد الملك ينظر إلى الدّنيا ولكنّه يلتفت إلى الآخرة خوفاً من اللّه ، وتأليفـاً لقلوب المسلمين من حـوله . فعمـد إلى الـدّين فـأظهـر ابتعـاد ابن الأشعث عنـه ، وخروجه منه ، بالأفعال المتتابعة إظهاراً لتجدّد الكفر في ذاته ومتابعته له ، بـاستفهام إنكاري ، يوحي للمسليمن بمجاهدته والتصدّي له ، وتوسّـل لذلـك الصّور المـاديّة المشخّصة ، التي تمثل أمام العين فتشارك الأذن على فهم المعنى وظـلال إيحائـه ، كتصـويره لابن الأشعث في خـروجه « وخلع سلطان اللّه بيمينـه وطاعتـه بشمـالـه ، وخرج من الدين عرياناً كما ولدته أمّه » وطابق في ألفـاظه ومعـانيه لإبـرازها وإظهـار العلاقة بينها ، كطباقه بين اليمين والشّمال ، وعمد إلى ألفـاظه ، فـاختارهـا ، رقيقةً حيناً ، تُشْعِر بالخشوع والرّحمة ، لخفة جرسها وعذوبته ، وهمس صوتها ونعومتـه ، وجزلة قـويّة حينـاً ، تُظْهِـر الحزم والقـوّة ، وبثّها نغمـاً متلوّناً يهمس همسـاً ، ويشتدّ أحياناً فينساب انسياباً ، فيساعد على مشاركـة الإنفعال والعـواطف بحوار القلب مـع العقل .

---

(1) البداية والنهاية : ج 9 ، ص41

13 ـ وكتب إلى الحجّاج كتاباً جاء فيه :

« أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدّماء ، وتبذيرك الأموال ، ولايحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من النّاس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء ، في الخطأ بالدّيّة وفي العمد بالقَود وفي الأموال ردّها إلى مواضعها ، ثمّ العمل برأيه ، فإنّما أمير المؤمنين أمين اللّه ، وسيّان عنده ، منع حقّ أو إعطاء باطل ، فإنْ كنت أردت النّاس له فما أغناهم عنك ، وإنْ كنت أردتهم لنفسك ، فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدّة ، فلا يؤنسنّك إلاّ الطّاعة ، ولا يوحشنّك إلاّ المعصية ، وظنّ بأمير المؤمنين كلّ شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظّفر على قوم ، فلا تقتلنّ جانحاً ولا أسيراً .

وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنت لم تطلب أموراً كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنتَ طالبُه

وتخشى الذي يخشاه مثلي هارباً ... إلى اللّه منه ضيّع الدّرَّ حالبُه

فإنْ تَرَ منّي غفلةً قُرَشِيّةً ... فيا ربما قد غصَّ بالماء شاربُه

سأملي لذى الذنب العظيم كأنني ... أخو غفلة عنه وقد جبّ غَاربُه

فإن كفّ لم أعجل عليه، وإنْ أبى ... وثبت عليه وثبةً لا أراقبُه[1]

فلا لا تلمني والحوادث جمّة ... فإنّك مجزيٌّ بما أنت كاسبُه

ولا تَعْدُ ما يأتيك منّي وإنْ تعد ... يقوم بها يوما عليكَ نوادبُه

ولا تدفعَنْ للنّاس حقّاً علمته ... ولا تعطيَنْ ما ليس للّه جانبُه»[2]

وقف عبد الملك موقف القاضي العادل الذي يخشى اللّه ويعمل في سبيله ، فأشار في كتابه إلى ما تناهى إلى علمه من أفاعيل الحجّاج ، فاستنكرها ، وأصدر حكمه عليه بموجبها ، الخطأ بالديّة والعمد بالقود ، وردّ الأموال إلى مواضعها ، وبعد ذلك العمل برأي أمير المؤمنين ، لأنّه أمين اللّه في عباده ، ومنع الحقّ عنده كإعطاء الباطل لأنّه لا يصدر إلاّ عن جور ، فإنْ أراد بذلك النّاس لأمير المؤمنين ، فهم بغنى عن الحجّاج ، وإنْ أرادهم لنفسه ، فهو بغنى عنهم ، لأنّ العدالة ستأخذ مجراها ، وأمير المؤمنين لا يقبل إلاّ الحقّ ولا يرضى بدونه .

(1) هذا البيت وسابقه مأخوذ من فوات الوفيات : ج 2 ، ص32

(2) مروج الذهب : ج 3 ، ص(74-75) ، وقد اورد صاحب الفوات مقتطفات منها : ج 2 ، ص32

ثم يتطرّق إلى سلوكه مع الحجّاج ، فيلخصه بأمرين : لين وشدّة ، لين في الطّاعة ، وشدّة في المعصية ، فلا يأنس إلاّ في الطّاعة ، ولا يوحش إلاّ في المعصية ، لأنّ أمير المؤمنين يحتمل كلّ شيء إلاّ الخطأ ، ثم نهاه عن قتل الجانح والأسير .

وكرّر ـ فيما تمثّل فيه من الشعر ـ معانيه ، فهدّده ، إنْ لم يطلب رضاه حتّى لو كره ذلك في بعض الأمور ، ويخشى اللّه خشيّة أمير المؤمنين منه ، فقد شذَّ عن غايته ، وتجشّمَ من العناء ما لا ينفعه ، فإنْ ظهرت منه غفلة ، فهي تغافل قد يأتي بعدها بما لا تحمد عقباه ، وإنْ بدرت منه وثبة أموية ، فهو صاحبها ، فلا يغرينّه تغافل ، لأنّ ما يأتيه بعده من نكيره كفيل بالقضاء عليه ، يتغافل عن ذوي الذنوب لكنّه لا يغفل عنهم ، فإنْ أرعوا وعادوا عن غيّهم وأخطائهم استمّر في تجاهله لهم وتغافله عنهم ، وإنْ تمادوا وثب عليهم لا يهادنهم حتّى يقضي عليهم ، فلا مجال للوم على ذلك ، فالحوادث كثيرة ، وكلّ امرىء وما كسبت يداه ، فإنْ أطاعه سلم وإنْ عصاه ندم ، وقضى على نفسه بفعله ، فلا يمنع أحداً من حقّه ، وهو عالم بمكانه ، ولا يعطيّنه ما [illegible] له وليتجنّب كلّ ما يغيظ اللّه .

إنّ ما يلفت النّظر حقّاً ، ويثير الإهتمام ذلك الحكم الذي أطلقه عبد الملك ، لأنّه يتضمّن معنى الإعدام ، ولكن هل أمضى حكمه في الحجّاج ؟ هل أجبره على دفع دية أو أقاد أحد النّاس منه ؟ هذا لم يثبت بالبرهان القاطع لأحد من الباحثين ، فالحجّاج صنيعة عبد الملك ، لا يجرؤ على معاندته أو مخالفته ، وعبد الملك بحاجة للحجّاج يعرف له فضله ، وكان يقول عنه إنّه جلدة ما بين عينيه ، فهل تخامره منه الشّكوك لدرجة يفكّر فيها بالقضاء عليه ؟ الكتاب كالكتب التي سبقته ، مجرّد تهديد ناتج عن غضب سرعان ما يزول ، وما تهديد عبد الملك ووعيده للحجّاج إلاّ كابح له ليخفّف من منشدة اندفاعه في البطش والقسوة .

وأسلوبه يعتمد الإيجاز في اللفظ وتقصير الجمل وتكثيف المعاني دون أنْ يتخلّى عن الوضوح ، لا يعبّر عن معنى بجملة إنْ وجد لفظة تقوم مقامها ، ولا بفقرة إنْ وجد عبارة تفي بغرضها ، يظهر ذلك جليّاً بإشارته لما علمه عن الحجّاج فعبّر عنه بقوله : « فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك الأموال » فأثبت حرف

التحقيق في بداية جملته ولم يذكر ثبتاً بمن قتلهم الحجّاج ظلماً أو خطأً ولا تكلّم عن الكيفية التي بذّر فيها الحجّاج أموالاً ، لأنّه يعلم أنّ الحجّاج يعلم ، وذكر ما يعلمه يعتبر كلاماً لا منفعة فيه . وإذا نظرنا إلى حكمه في الحجّاج ، لما استطعنا حذف لفظة منه دون أن يلتوي المعنى أو يفسد ، أمّا قوله : « فإنّما امير المؤمنين أمين اللّه ، وسيّان عنده منع حقّ أو إعطاء باطل ، فإنْ كنت أردت النّاس له فما أغناهم عنك ، وإنْ كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم » فتتجلّى فيه فصاحة الألفاظ وقوتّها وجزالة العبارة وتماسكها ، واتحادها لتعبّر عن معنى واسع ودقيق بألفاظ قليلة منتقاة تعبّر ألفاظها عن معانيها ، وهو لا يقصد الزّينة في لفظه قصداً ، ولا يتأنّق عمداً ، إلاّ أنْ تأتيه عفواً ، فتزيد كلامه جمالاً ومعانيه وضوحاً ورسوخاً دون أن يخضع المعنى للفظ أو يطغى المعنى على المبنى ، إنّما يتزاوجان ويتّحدان في الإعراب عمّا في نفس عبد الملك وعمّا في عقله من العواطف والآراء . مثل مطابقته في قوله « وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود « فطابق بين الخطأ والعمد وقوله « سيان عنده منع حقّ أو إعطاء باطل » فطابق بين المنع والإعطاء وبين الحقّ والباطل ومثل لين وشدّة ، ويؤنسنّك ويوحشنّك ، والطّاعة والمعصية .

14 ـ وأرسل عبد الملك كتاباً إلى خالد بن عبد اللّه القسري جواباً على رسالة كان خالد قد أرسلها له : « أمّا بعد ، فقد قدم رسولك في كتابك ، تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج ، وبهزيمة من هُزِمَ ، وقتل من قُتِلَ ، وسألت رسولك عن مكان المهلّب فحدّثني أنّه عامل لك على الأهواز ، فقبّح اللّه رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكّة على القتال ، وتدع المهلّب إلى جنبك يجبي الخراج ، وهو الميمون النقيبة ، الحسن السّياسة ، البصير بالحرب ، المقاسي لها ، ابنها وابن أبنائها ! انظر أنْ تنهض بالنّاس حتّى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز ، وقد بعثت إلى بشر أنْ يمدّك بجيش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لقيت عدّوك فلا تعمل فيهم برأي حتّى تحضره المهلّب ، وتستشيره فيه إن شاء اللّه ، والسّلام عليك ورحمة اللّه »[1] .

---

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص71 ، انظر الرسالة الثالثة في هذا الفصل فاني ارجح ان ما اثبته =

فالرسالة جواب لما أخبره خالد به ، وفيها لوم وتوبيخ لخالد لسؤ رأيه بتأمير أخيه على الجيش وإهمال أمر المهلّب ، فأمّر أعرابياً جاهلاً بشؤون السياسة والقتال وترك سيّداً شجاعاً صاحب سياسة وخبرة بالحرب ، لكثرة ما خاض في غمارها ، وأمره بالنهوض بمن معه لقتال الخوارج ، وأعلمه أنّ بشراً سيمدّه بجيش من أهل الكوفة ، ودعاه إلى الأخذ بنصيحة المهلّب وآرائه .

15 ـ وكتب إلى بشر بن مروان يقول : « أمّا بعد ، فإنّي كتبت إلى خالد بن عبد اللّه آمره بالنهوض إلى الخوارج ، فسرّح إليه خمسة آلاف رجل ، وابعث عليهم رجلاً من قبلك ترضاه ، فإذا قضوا غزاتهم تلك ، صرفتهم إلى الريّ ، فقاتلوا عدّوهم وكانوا في مسالحهم ، وجبوا فيئهم حتّى تأتي أيّام عقبهم فتعقبهم وتبعث آخرين مكانهم »[1] وهذه الرّسالة كسابقتها تتضمّن أمراً عسكرياً ، وترسم حركة الجيش ، انصرف فيها عبد الملك إلى موضوعه مباشرة ، واختار ألفاظاً تؤدّي معانيه دون زيادة أو نقصان ، فأسلوبها مباشر واضح وألفاظها سهلة دون إسفاف .

16 ـ عندما كتب الحجّاج إلى عبد الملك يذّم يزيد وآل المهلّب ويصفهم بالزّبيرية كتب إليه عبد الملك : « إنّي لا أرى نقصاً بآل المهلّب طاعتهم لآل الزّبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وإنّ وفاءهم لهم ، يدعوهم إلى الوفاء لي ، فكتب إليه الحجّاج يخوّفه غدرهم لما أخبره به الشيخ[2] فكتب إليه عبد الملك : قد أكثرت في يزيد وآل المهلّب فسمّ لي رجلاً يصلح لخراسان »[3] .

17 ـ عن ابن دريد « كتب عبد الملك إلى الحجّاج في أيّام ابن الأشعث « إنّك أعزّ ما تكون باللّه أحوج ما تكون إليه ، وأذل ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون إليه . وإذا عززت باللّه فاعف له ، فإنّك به تعزّ وإليه ترجع »[4] .

= المبرد وابن الاثير والطبري رسالة واحدة تناقلتها السنة الرواة ، فحصل اختلاف في الرواية بين راو واخر وقد أثبتُ هذه الرسالة لأن فيها زيادة عن النص الذي اثبته المبرد .

(1) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص171

(2) يروى ان شيخا اخبر الحجاج بان رجلا صفته كذا وكذا ، سيخلع الطاعة ويجاهر بالعصيان ، فخشي الحجاج ان يكون يزيد بن المهلب ذلك الرجل .

(3) تاريخ الرسل والملوك : ج 6 ، ص395

(4) البداية والنهاية : ج 9 ، ص61 وما بعدها ، في عيون الاخبار : ج 1 ، ص 102 وفي العقد : ج 2 ،

18 ـ وأرسل عبد الملك إلى الحجّاج كتاباً جاء فيه « ابعث بثلاثين جارية : عشراً من النجائب وعشراً من قعد النّكاح ، وعشراً من ذوات الأحلام »[1] .

فلم يعرف الحجّاج قصد عبد الملك ، ففسّر الغضبان له ذلك[2] .

وكما لاحظنا ، أنّ خطب عبد الملك ، قد ضاع قسم كبير منها ، فإنّ رسائله لم تصلنا كلّها ، إذ من غير المعقول أنْ يستمّر أخوه عبد العزيز بن مروان في ولايته لمصر حتّى سنة خمس وثمانين ، دون ان يتبادلا كثيراً من الرّسائل ، ورسالة عبد الملك لأنس بن مالك أشار إليها الجاحظ وابن عبد ربه دون إثباتها في سياق كلامهما ، ثم أين رسائله إلى ولاته الآخرين ؟ إنّ قسماً من رسائله قد ضاع دون

والملاحظة الأخرى التي لا بدّ من ذكرها ، أنّ الرّسائل الموجّهة للحجّاج ، هي أبلغ رسائله وأقساها ، إذا استثنينا رسالته لعمرو بن سعيد ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ منافسة خفيّة كانت قائمة بين عبد الملك والحجّاج ، يحاول كلّ منهما أنْ يتفوّق على صاحبه ، ويظهر له قدرته على انتخاب الكلام وترصيعه ببديع المعاني وبلاغة التصوير والتطريز لهذا كان عبد الملك يتفنّن في شتم الحجّاج ، وتهديده ، وتقريعه ، ويرسل له الرّسائل الأحاجي ، التي لا يستطيع فهمها ، فيستنجد بأرباب الأدب والرّواة ويرصد لهم الجوائز إنْ حلّوها ، وفهموا قصدها ومعانيها ، فقد مرّ معنا أنّ عبد الملك أرسل له يوماً يقول : « أنت عندي كسالم ، فلم يدر الحجاج قصده » وأرسل مرّة أخرى يقول : أنت عندي كقدح بن مقبل ، فلم يدر أيضاً معناه ، وفي رسالة قال له : أوصيك بما أوصى به البكريّ زيداً ، فلم يعرف ذلك ، وعندما أرسل كتاباً في طلب الجواري من الحجّاج وقف الأخير متحيرّاً ، ففسّر الغضبان الكلام ، وأفصح عن معانيه ، إنّ عبد الملك يعرف بلاغة الحجّاج وقدرته على اختراع المعاني والصّور الأدبيّة ، فحاول التفوّق عليه في هذا المجال ، وكان

= ص38 ان رجلا امر بقتله عبد الملك فقال له معظم هذا الكلام فعفا عنه .

(1) مروج الذهب 3 ، ص83

(2) أما النجيبة من النساء فالتي عظمت هامتها وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبيها وثدييها ، واتسعت راحتها ، وتخنت ركبتها ، وأما قعد النكاح فهن ذوات الأعجاز ، منكسرات الثدي ، كثيرات اللحم ، يقرب بعضهن من بعض فأولئك يشفين القَرِم ، ويروين الظمآن ، وأما ذوات الأحلام فبنات خمس وثلاثين إلى الاربعين .

الحجّاج حريصاً على إظهار بلاغته وقدرته في الإفصاح عن معانيه وانفعالاته .

ولعلّ هذا ما يكشف السرّ في كثرة تهديد عبد الملك للحجّاج دون تنفيذ تهديداته فإنّ كل رسالة يوجهها عبد الملك إليه ، كانت تقابل برسالة من الحجّاج تطفىء نارها ، وتمحو آثارها ، وتنال من عبد الملك الإعجاب والرّضى ، وتفنّن عبد الملك بإظهار قدرته في ثلب الحجّاج ، وطول باعه في معرفة نسبه ، وقبيلته وتاريخها ، وما فيه من مخاز ، وتذكيره بقوّته وقدرته على إنزال العقاب عليه ومحقه كانت تقابل بتفنّن في إظهار الطّاعة والإخلاص له والعرفان بمنزلته ، وقدرته والتذلّل إليه ، فيخبو غضبه ، وتطيب نفسه ، ويعجب بالحجّاج فيرضى عنه ، وما ذلك إلاّ للأثر الذي تتركه رسائل الحجّاج في نفسه .

ولعلّ ما ذكره ابن عبد ربّه في عقده ، يظهر جهد الحجّاج في هذا المجال فقد روى : أنّ الحجّاج « أرسل إلى عبد الملك كتاباً ، يعظّم فيه أمر الخلافة ، فأُعْجب به عبد الملك فقال : لوددت أنّ عندي بعض الخوارج فأخاصمه بهذا الكتاب ! فانصرف عبد اللّه بن يزيد إلى منزله ، فجلس مع ضيفانه ، وحدّثهم الحديث فقال له حوّار بن زيد الضبي ـ وكان هارباً من الحجّاج : توثّق لي منه ، ثم أعلمني به فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال : هو آمن على كلّ ما يخاف ، فانصرف عبد اللّه إلى حوّار ، فأخبره بذلك ، فدخل على عبد الملك ، وقرأ أمامه كتاب الحجّاج ، فقال حوّار : أراه ، جعلك في موضع ملكا ، في موضع نبيّاً ، وفي موضع خليفة ، فإنْ كنت ملكاً فَمَنْ أنزلك ، وإنْ كنت نبيّاً فمن أرسلك ، وإنْ كنت خليفة فمن استخلفك ، أعن مشورة من المسلمين ، أم ابتززت النّاس أمورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك : قد أمّناك ، ولا سبيل إليك ، فلا تجاورني في بلد أبداً »[1] .

إن عبد الملك والحجّاج كانا يسلكان طريقين مختلفين إلى غاية واحدة ، هي التفوّق في البلاغة وإظهار مكامن النّفس ، فيسرف عبد الملك في بعض الأحيان بإظهار قوّته وبطشه ، وتهديده ، وتصويره قدرته على الحجّاج ومحقه ، يقابلها إسراف في تعظيمه والتزلّف إليه وإظهار الإخلاص والإستذلال له من قبل الحجّاج .

(1) العقد الفريد : ج 5 ، ص(284-285)

خاتمة

هـذا هو عبـد الملك بن مروان الخليفـة الفارس ، والنّـاقـد الأديب ، والفقيـه العالم الذي برز على مسرح السيـاسة العـربيّة ، هي تعـاني أشدّ أزمـاتها ، فتخـطّى جميـع العقبات التي كـانت تحول وتقف بـوجه وحـدة الدولـة الإسـلاميـة ، وواكب الحـركة الأدبيّـة طيلة عشرين عـاماً ، يغـدق على رجالهـا ، ويـرصـد الجـوائـز لهم ويتعهّدهم بالرّعاية والتشجيع ، ويشاركهم نشاطهم ، ويتمثّل أشعارهم ، وأقـوالهم ، وينتقد قصائدهـم ، وتقصده الشّعراء من أقاصي الأرض ، تنشـده أشعارهـا ، وتغرف من علمه ونواله .

لم تصرفه السّيـاسة وتـدبير شؤون الأمّـة عن الإهتمام بـأخبار الأدبـاء والشّعراء وأقوالهم وجيّد أشعارهم وخطبهم .

فكان عالماً بالحديث ، فقيهاً بالدّين ، راوية لأخبار القبـائل وأنسـابهم ، راوية لأشعار العرب ، ناقداً لها ، يهزّه البيت الجّيـد من الشعر فيمـطر صاحبـه من كرمـه الفيّـاض وأعطيـاته الكثيـرة ، أمّا مـا نسب له من البخـل ، ورواية البعض أنّـه « كان يُلَقّب برشح الحجر لبخله »[1] فلم أجد ما يؤيّدها من الشواهد إلا تعريض حميد بن هـراسة ببخله حين سـأله عبـد الملك عن أفضل الشّعراء ، فقـال : « أفضلهم المقنّع الكندي حيث يقول :

إنّي أحـــرّض أهـــل البخـــل كلّهـم — لـو كان ينفـع أهل البخـل تحريضي

(1) تاريخ الخميس : ج 2 ، ص308

مـا قـلّ مـالـي إلاّ زادني كـرمـاً حتّى يكـون بـرزق اللّه تعـويضي
والمـال ينفـع مَنْ لـولا دراهـمـه أمسى يقلّب فينا طرف مخفـوض
لن تخـرج البيض عفـواً من أكفّهم إلاّ عـلى وجـع منـهـم وتـمـريض
كـأنّهـا من جلود البـاخلين بهـا عند النّوائب تحـذى بـالمقاريض

فقال عبد الملك ـ وعرف ما أراد ـ اللّه أصدق من المقنّع حيث يقول : والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا »[1] .

وكان خطيباً معدوداً في الطّبقة الأولى من خطباء عصـره ، كاتباً يعانق اللفـظة ويسلخها من قلبه ، فتختال عبارته شديدةً كالعاصفة ، لينـةً كنسمة الـربيع ، متـدفقة كمياه الفرات ، لكنّها في جميع أحـوالها تتلبّس بـالحياة وتنبض بـالحركـة ، وتزخـر بالعاطفة وتحرّك الخيـال ، تصدر عن نفس واثقـة عظيمـة ، خبرت الحيـاة ، وذاقت مرارتها ، وتمرّغت في نعيمها ، لا تهزّه الفواجـع ، يقف بوجههـا كالـطّود العظيم ، فتنكمش أمامه صغيرة حقيرة إزاء كبر نفسه وعظمتها ، لا يكـلُ أمر دنيـاه إلى غيره ، يتعهّد شؤون خلافته وولاته ، دائم التـوجيه لهم ، يـوبخّهم تارة ، ويعلّمهم طـوراً ، ويحنو عليهم في معظم الأحيان ، بصير بالسياسة ، بصير بالحرب ، يصدر في أقواله وأفعاله عن رؤية وخبرة ومشورة .

المـأخذ الـوحيد الـذي سجّله عليه المؤرخـون ، تبدّل سيـرتـه بعـد أنْ تسلّم الخلافة ، فأهمل دينه ، وارتكب الكبائـر في سبيل تـوطيد ملكـه ، فغدر بعمـرو بن سعيد ونهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حضرتـه ، وعمل مـا استنكره من أعمال يزيد بن معاوية ، فقد روى السيوطي أنّ يحيى الغسّاني قال : « لما نـزل مسلم بن عقبـة المدينـة ، ودخلتُ مسجـد النبي (صلعم) فجلستُ إلى جنب عبـد الملك ، فقال لي عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم ، قال : ثكلتك أمّك ! أتدري إلى من تسيـر ؟ إلى أوّل مـولود في الإسلام ، وإلى ابن حـواري النبي (صلعم) وإلى ابن ذات النّطاقين ، وإلى من حنّكه النبي (صلعم) أمـا واللّه ، إن جئته نهاراً وجدته صائماً ، ولئن جئته ليلاً لتجدنّه قـائماً ، فلو انّ أهـل الأرض اطبقـوا

---

(1) الاغاني : ج 5 ، ص158

على قتله لأكبتهم اللّه جميعاً في النّار ، فلمّا صارت الخلافة إلى عبد الملك ، وجهّنا مع الحجّاج حتّى قتلنا »[1] .

لا بدّ للنّاقد من أن يرتاب بهذا الخبر وأمثاله ، فقد مرّ معنا أنّ عبد الملك أُخْرِجَ مع بني أميّة من المدينة قبل أنْ يدخلها مسلم بجنوده ، وابن طباطبا ذكر في كتابه الفخري[2] أنّ عبد الملك التقى بمسلم قبل أنْ يدخل المدينة ، فأوصاه بالطريقة المثلى لدخولها ، وعمل مسلم برأيه ، ثم هل يستنكر عبد الملك إرسال جيش لمقاتلة من طرده وأهله من ديارهم ؟ أمّا ما نسب من قول لعبد الملك وقد تسلّم الخلافة وهو يقرأ القرآن : هذا فراق بيني وبينك أو هذا آخر العهد بك ، فقد يكون تعبيراً مجازياً ، قصد منه عبد الملك أنّ الأمر لا يتمّ له إنْ تمسّك بأهداب الدين وأوامره ونواهيه ، ولئن صحّ ، فإنّه دليل على عبقريته وعظمته وقدرته على تمثّل التاريخ والاستفادة منه ، فبعد أنْ استبدت الأهواء بالأمّة واتّخذ الدين مطيّة للطامحين إلى كرسيّ الخلافة ، بعد أن شاهد بأمْ عينه تألّب النّاس على عثمان بن عفّان وقتلهم إيّاه ، وهو يتلو القرآن ، وبعد أن شاهد سلوك علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ونتيجته ، ونظر إلى زمانه فرأى كثرة الطامعين بالخلافة ولو على حساب وحدة الدولة والمؤسسات هل يستطيع الحكم على هدى كتاب اللّه وسنّة رسوله (صلعم) ؟ هل يستطيع الإقتداء بأبي بكر وعمر بن الخطّاب ؟ ولو سار على نهج السّلف الصالح من المهاجرين ، ما هو المصير الذي ينتظره؟ وما هو مصير الدولة الإسلامية بعده ؟

لسنا نبرّر مسلكيّة عبد الملك في حكمه بعد ان استقر وتوطّد ، لكنّه سلك الطريق الأمثل في لحظة من أحرج لحظات التاريخ الإسلامي ، وتفادي بذلك تمزّق الدولة إلى دويلات تتحارب فيما بينها ، لا تلبث أنْ تطمع بها الدول المجاورة والشعوب المغلوبة ، فتنكفىء إلى الجزيرة العربية قبائل يناصب بعضها البعض العداء . فكان بذلك كما وصفه كثيّر بن أبي جمعه :

« رأيت أبا الوليد غداة جمع   به شيب وما فقد الشّبابا

---

(1) تاريخ الخلفاء : ص 302

(2) الفخري : ص 100

فقلت لـه ، ولا أعيـا جـوابـاً إذا شـابت لـدات المـرء شـابـا
ولكن تحت ذاك الشّيب حـزم إذا ما قال أمرض أو أصابا»[1]

(1) الحيوان : ج 3 ، ص60

فهرس الموضوعات

الفصل الخامس